مكسيم جوركى



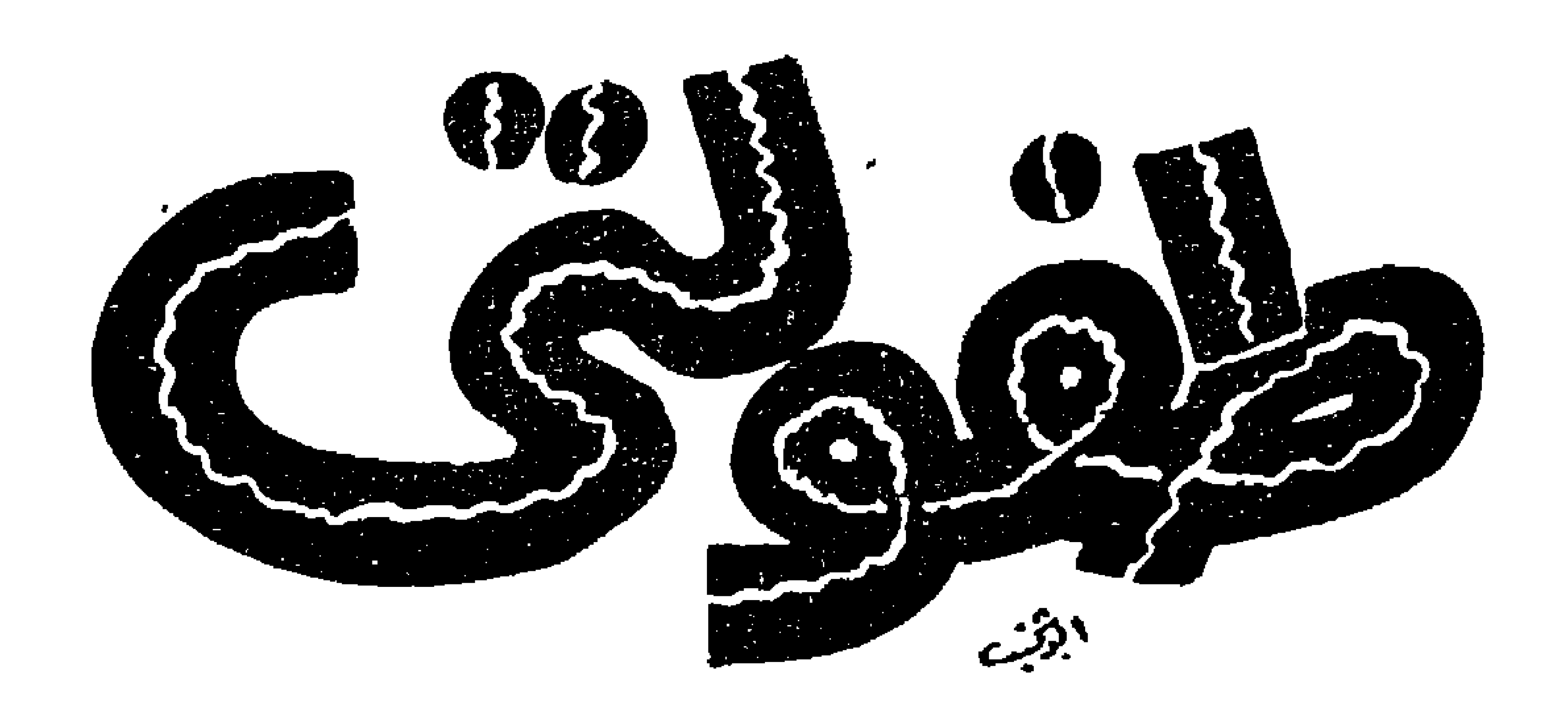
ترجمة

الدكتور محمود الشنيطى

دار المعرفة

طفولتی

مكسيم جوركي



ترجمة

الدكتور محمود الشنيطي

دار المعرفة

١٥ شارع صبري ابو علم بالقاهرة

تليفون ٠٥٨٥٠٥

الطبعة الاولى

يناير ـ ١٩٥٩

الفصل الأول

كان أبي مسجى على الأرض تحت النافذة في غرفة ضيقة حجب عنها النور ، عليه ثوب سابغ أبيض ، وقد استطالت أصابع قدميه العاريتين استطالة غريبة ، وتقلصت أصابع يديه الهامدتين اللتين اطمأنتا على صدره ، وأطبقت عيناه المرحتان بقطعتين سوداوين من النقود النحاسية ، وغاض النور من وجهه الجامد ، وكشر عن أسنانه بصورة قبيحة أفزعتني .

وكانت أمي جاثية وعليها قميص أحمر يكاد لا يسترها ، وهي تمشط شعر أبي الطويل الناعم من جبينه إلى قذاله ، بذلك المشط الأسود الذي طالما لذّ لي أن أقشر به البطيخ . ولا تكف عن الكلام بصوتها الخافت الأجش ، ويبدو أن سيل الدموع الغامر لابد أن يسيل من عينيها المتورمتين .

وكانت جدتي تمسك بيدي . وهي امرأة ذات رأس كبير مدور ، وعينين واسعتين ، وأنف كإسفنجة — امرأة سمراء رقيقة ممتعة جدا . وكانت هي أيضا تبكي ، وحزنها يناغم حزن أمي ، وهي تدفعني مرتعدة صوب أبي . ولكنني حاولت جاهداً أن أختبيء فيها وقد استولى علي الخوف والقلق . فما رأيت أناسا راشدين يبكون ، ولم أفهم الكلمات التي كانت جدتي ترددها مرة بعد أخرى :

— ودع أباك . إنك لن تراه بعد الآن . لقد مات — قبل الأوان .

كنت مدنفا ، والحق أني لم أبرح الفراش إلا منذ قليل ، وأذكر جيداً أن أبي اعتاد في بدء علتي الجولان حولي في مرح . ثم أختفى بغتة ، وشغلت جدتي مكانه ، وهي شخص غريب عني .

سألتها : من أين قدمت ؟

أجابت : من فوق ، نجني ، ولكنني لم آت على قدمي ، وإنما ركبت زورقا . إن المرء لا يمشي على الماء ، أيها الشيطان الصغير .

كان هذا أمراً مضحكا ، غير مفهوم ولا حقيقي . فقد كان يسكن في الطابق العلوي رجل فارسي جلف ، وفي العلية شيخ كلموكي أصفر يبيع جلد الشاء ، وكان المرء يستطيع أن يصعد إلى فوق راكبا الدرابزين ، أو ينزل عليه منزلقا ، كنت أعرف هذا بالتجربة . ولكن أين الماء هنا ؟ كان الأمر كله غير حقيقي ، مختلطاً اختلاطا لذيذاً . قلت :

— ولكن لماذا أنا شيطان صغير ؟

قالت ضاحكة : لماذا ؟ لأنك شديد الصخب .

كان كلامها عذبا مرحا منغوما ، وقد صادقتها منذ اليوم الأول . وكان كل ما أريده الآن أن تسرع بى خارج تلك الغرفة .

ضمتنى أمى إلى صدرها ، فأثارت فى دموعها وأناتها شعوراً غريباً بالقلق ، فقد كنت أراها على تلك الحال لأول مرة ، وهى التى تبدو دائما امرأة صارمة قليلة الكلام ، نظيفة مصقولة ، متينة البناء كالحصان ، مفعمة الجسم بقوة الكواسر ، باطشة الذراعين . ولكنها الآن منتفخة مرتجفة تخيم عليها التعاسة ، وتساقط شعرها الذى كانت تضفره حول رأسها تحت قبعتها الكبيرة الزاهية الوشى — على كتفيها العاريتين ، وانساح على وجهها ، وتدلى مابقى مضفورا منه على وجه أبى النائم .

لم تنظر إلى نظرة واحدة وإن مر على فى الغرفة وقت طويل ، فقد كانت منصرفة إلى تمشيط شعر أبى منتحبة تخنقها العبرات .

ثم أطل من الباب بعض حفارى القبور ، سمر الوجوه ، وشرطى . صاح الأخير غاضبا : اخرجوا الآن . أسرعوا .

وكان على النافذة ستارة من ملاءة قاتمة . تنفخها الريح كأنها شراع . وقد عرفت هذا لأن أبى كان قد أخذنى فى زورق شراعى ، وإذا بالرعد يقصف ، فضحك ابى ، وضمنى إلى ركبتيه وهو يقول : « لاشىء .. لا تفزع » .

وبغتة ألقت أمى بنفسها إلى الأرض ، ولكنها لم تلبث أن استدارت على ظهرها وهى تجر شعرها فى التراب ، وقد ازرق وجهها الأبيض الجامد ، وكشرت عن أسنانها مثل أبى . قالت فى صوت مخيف :

— أغلقوا الباب . . . أخرج . . . يا ألكسى .

فنحتنى جدتى جانبا ، واندفعت إلى الباب صائحة :

— لا تنزعجوا أيها الأصدقاء ، ولا تتدخلوا ، بل اذهبوا محبة للمسيح . ليست هذه كوليرا ، بل وضع ... أرجو أن تذهبوا يا كرام !

اختفيت فى ركن مظلم وراء صندوق ، ورأيت من ثم كيف كانت أمى تتلوى على الأرض وهى تلهث وتصر بأسنانها ، وقد جثت جدتى إلى جانبها ، تخاطبها فى حب وأمل :

— باسم الآب والابن ... تصبرى يافيروشا ، أيتها العذراء ... ياراعيتنا ...

فزعت ، ووراحتا تزحفان على الأرض قريبا من أبى وتلسانه وتئنان وتصرخان ، ولكنه ظل دون حراك ، بل كان يبتسم . واستمر هذا الزحف على الأرض وقتا طويلا ، وكثيراً ما كانت أمى تقف ثم لاتلبث أن تقع ثانية ، وكانت جدتى تتدحرج فى الغرفة داخلة خارجة مثل كرة كبيرة سوداء ناعمة . وفجأة صاح طفل . وقالت جدتى :

— شكراً لله . إنه ذكر .

وأضاءت شمعة .

ولابد أنى نمت فى الركن ، إذ أنى لاأذكر بعد هذا شيئا .

والصورة التالية مما انطبع فى ذهنى صورة ركن مهجور من مقبرة فى يوم ممطر . وأنا واقف إلى جوار كومة زلقة من تراب لزج أنظر إلى الحفرة التى ألقوا فيها تابوت أبى . وفى قرار الحفرة بعض الماء ، والضفادع أيضا ، وقد وثبت اثنتان منها على غطاء التابوت الأصفر.

وكنت أقف إلى جانب القبر أنا وجدتى وكاتب الكنيسة الذى بلله المطر ، ورجلان فظان من حفارى القبور فى أيديهما المساحى . وقد غمرنا جميعا المطر الدافىء الذى كان يتساقط قطرات صغيرة كحبات الخرز . صاح الكاتب مبتعدا :

— أحثوا التراب .

فبدأت جدتى تبكى وقد غطت وجهها بطرف وشاحها الذى اتخذته غطاء لرأسها . وأخذ الحفاران يهيلان أكوام التراب على التابوت بسرعة ، وقد انحنيا إلى الأرض ، وراحا يضربان الضفادع التى تثب على جوانب الحفرة ويرميانها إلى القاع . قالت جدتى وهى تأخذ بكتفى :

— هيا يا لنيا .

ولكنى لم أرد الذهاب ، فتخلصت من يديها . ودمدمت جدتى ، وكأنما تخاطبنى وتخاطب الله معاً :

— وماذا بعد يا إلهى ؟

وبقيت صامتة برهة وقد حنت رأسها يائسة .

وطم القبر ، ولكنها بقيت واقفة هناك حتى ألقى الحفاران المساحى على الأرض فسمع لها رنين وقرقعة ، وهب النسيم ومضى وهو ينثر قطرات المطر ، ثم أخذتنى من يدى وقادتنى إلى كنيسة على مسافة قريبة عبر ممر يكتنفه عدد من الصلبان القائمة . سألتنى وقد ابتعدنا عن الجبانة :

ــ لم لا تبكى ؛ ينبغى أن تفعل .

فكان جوابى :

ــ أنا لا أريد أن أبكى .

قالت بلطف :

ــ حسنا ، إذا كنت لا تريد البكاء فلا حاجة بك إلى ذلك .

أدهشنى قولها . فإنى قلما بكيت ، وكان أكثر بكائى ـ حين أبكى ـ عن غضب لا عن حزن ، ثم إن أبى اعتاد أن يضحك من عبراتى ، فى حين تصرخ بى أمى قائلة :

ــ إياك أن تبكى !

وركبنا ـ بعد ذلك ـ عربة سارت بنا فى شارع واسع ولكنه قذر ، بين صفين من المنازل طليت بطلاء أحمر قان . سألت جدتى فى الطريق :

ــ أتستطيع تلك الضفادع أن تخرج يوما ؟

أجابت :

ــ كلا . يرحمها الله .

ففكرت فى أن أبى وأمى لم يجر بينهما ذكر الله قط بمثل هذه الكثرة أو الألفة .

* * *

وبعد أيام قليلة ، ركبت مع أمى وجدتى سفينة بخارية كانت فيها حجرة صغيرة .

وكان أخى الصغير مكسيم قد مات ، ووضع على منضدة فى الركن ، وقد لف بالبياض ، وربط بشريط أحمر . وتسلقت الصرر والحقائب ، أنظر من الكوة التى بدت لى كأنها عين حصان . وكان الماء العكر المزبد يسيل على زجاجها ولا ينقطع ، وحدث مرة أن اندفع على الزجاج بشدة حتى تناثر على فوثبت إلى الأرض برغمى . فقالت جدتى وهى ترفعنى بخفة بذراعيها الحانيتين ، وتعيدنى إلى مكانى على الصرر :

ــ لا تخف .

كان يرف على الماء ضباب أشهب ندى ، وتبدو من بعيد أرض ظليلة بين الحين والحين ، ثم تختفى من جديد وراء الضباب والزبد . وكان كل شىء حولنا يبدو مرتجفا ، غير والدتى التى استندت إلى الحائط ويداها معقودتان خلف رأسها ، وهى ثابتة ساكنة ووجهها أكمد صلب كالحديد ، خال مثله من التعبير . ولاحت لى فى وقفتها تلك ، وهى خرساء مغمغمة العينين ، شخصا غريبا عنى كل الغرابة . بل إن ثوبها نفسه كان غريبا عنى .

قالت لها جدتى غير مرة فى رقة :

ــ ألا تطعمين شيئاً يا فاريا ؟

ولكن أمى لم تقطع الصمت ولم تتحرك من مكانها . وكانت جدتى تكلمنى هامسة ، فإذا خاطبت أمى رفعت صوتها ، ولكن فى حذر وحياء وإجلال . خطر لى أنها تخشاها ــ وكان ذلك واضحا ــ وبدا لى أنه يوثق الصلة بينى وبين جدتى . وبغتة راعتنا صيحه عالية وحشية من أمى :

ــ ساراتوف ، أين البحار ؟

أى كلمات غريبة جديدة علىّ ! ساراتوف ! البحار ؟

وهنا دخل الغرفة شخص عريض الأكتاف ، أشيب الرأس ، يرتدى ثوبا أزرق ، ويحمل صندوقا صغيراً أخذته جدتى منه ، وراحت تضع فيه جثة أخى . ثم حملت الصندوق بما فيه على ذراعيها الممدودتين وسارت به نحو الباب ، ولكن وا أسفا ، إنها لاتستطيع لسمنها أن تخرج من باب الغرفة الضيق إلا بجانبها ، وقد وقفت أمامه الآن فى تردد مضحك . صاحت أمى نافذة الصبر وهى تتناول منها التابوت الصغير :

ــ حقا يا أماه !

ثم اختفتا كلتاهما وبقيت أنا فى الغرفة أنظر إلى الرجل ذى الثوب الأزرق . قال وهو ينحنى على :

ــ هكذا ياصاحبى ذهب الأخ الصغير !

ــ من أنت ؟

ــ أنا بحار .

ــ ومَنْ ساراتوف ؟

ــ ساراتوف مدينة . أنظر من النافذة . . . تلك هى .

بدت الأرض من خلال النافذة كأنها تتراوح . وقد أذكرتنى إذ يتصاعد منها البخار فى الضباب ، وتتكشف عن نفسها فلا يظهر منها غير أجزاء ــ بكسرة كبيرة اقتطعت توا من رغيف ساخن .

ــ أين ذهبت جدتى ؟

ــ تدفن حفيدها .

ـــ تراهم يدفنونه فى الأرض ؟

ـــ أجل ، طبعا .

فأخبرت البحار بالضفادع الخس التى دفنت مع أبى . رفعنى وصاح وهو يعانقنى ويقبلنى:

ـــ آه ، ياصاحبى الصغير المسكين . أنت لا تفهم . إن الخليق بالرثاء أمك لا الضفادع . انظر كيف أنقض الحزن ظهرها .

ثم تناهت إلينا من فوق ولولة صاخبة . فلم أخف إذ أدركت أنها صادرة عن السفينة ، ولكن البحار وضعنى على الأرض بسرعة واندفع صائحا :

ـــ يجب أن أسرع .

فتولتنى الرغبة فى الهرب ، وأنطلقت خارج الباب ، فوجدت الردهة المظلمة الضيقة خالية ، ورأيت النحاس الذى على درجات السلم يلمع غير بعيد . ونظرت فوق ، فأبصرت الناس يمسكون فى أيديهم بالصرر والصناديق ، وكان واضحا أنهم يغادرون السفينة ، وأنى ينبغى أن أغادرها كذلك .

ولكن ما ظهرت عند الممر بين جمع الفلاحين المحتشد ، حتى أخذوا جميعا يتصايحون :

ـــ ابن من هذا ؟ ابن من أنت ؟

فلم يعرف أحد .

وظلوا وقتا طويلا يدفعوننى ، ويهزوننى وينخسوننى ، حتى ظهر البحار الأشيب فأمسك بى ، وجلا الأمر بقوله :

ـــ إنه الصبى الاستراخانى ساكن الغرفة .

وجرى بى إلى الغرفة ووضعنى على الصرر وذهب وهو يلوى إلى بإصبعه متهددا :

ـــ سأضربك !

وأخذت الضجة تخمد فوق رأسى . ولم تعد السفينة ترتعش أو ترجها حركة الماء . وقد أغلقت نافذة الغرفة بغطاء رطب ، ودان الظلام فى الداخل وفسد الهواء وبدا لى أن الصرر نفسها قد كبرت وأخذت تضغط جسمى ، فهالنى كل شىء وبدأت أتساءل : ترى أأترك إلى الأبد وحيدا فى هذه السفينة الفارغة ؟

ذهبت إلى الباب ، ولكنه لم ينفتح ، فقد أبت الأكرة النحاسية أن تدور ، فتناولت زجاجة لبن وأهويت بها عليها بكل قوتى . وكانت النتيجة الوحيدة أن انكسرت الزجاجة وأريق اللبن على رجلىّ ، وانسرب إلى حذائى . وسحقتنى الهزيمة فألقيت بنفسى على الممر وأنا أبكى بكاء هادئا حتى أدركنى النوم .

وحين صحوت ، كانت السفينة قد عادت إلى الحركة ، واشرقت كوة الغرفة كأنها الشمس .

وكانت جدتى جالسة بقربى تمشط شعرها وتتمتم بشىء وهى مقطبة الجبين . وكانت غزيرة الشعر ، يتساقط على كتفيها وصدرها إلى ركبتيها ، بل قد يمس الأرض . كان شعرها فاحما ، وقد رفعته عن الأرض بيد واحدة ، وأمسكت به جاهدة ، وراحت تجرى فى جدائله الكثيفة مشطا خشبيا يكاد يكون أدرد . وقد زوت شفتيها ، ولاح فى عينيها السوداوين بريق وحشى وأحاط الشعر الكثيف بوجهها ، فبدا مضحكا فى صغرة ، وارتسم على وجهها ما يشبه الحقد ، ولكنى حين سألتها لم كان لها ذلك الشعر الطويل ، أجابتنى بصوتها العذب الحنون :

ـــ لا شك أن الله عاقبنى به . . . حتى حين يمشط . تأمله ... لقد كنت فخورا فى شبابى بفرعى ... لكنى ألعنه الآن وقد هرمت . ولكن اذهب أنت ونم فلا زال الوقت باكرا إن الشمس لم تكد تشرق . . .

ـــ ولكنى لا أريد أن أنام ثانية .

فبادرت تقول وهى تجـــدل شعرها وتنظر إلى المهد الذى كانت أمى تنام فيه جامدة ووجهها إلى أعلى :

ـــ حسنا . لاتنم . إذن كيف هشمت تلك الزجاجه ليلة أمس ؟ خبرنى عن ذلك فى هدوء

وهكذا كانت تتكلم دائما وتنتقى من الألفاظ ما يمتاز بالعذوبة حتى لقد انطبعت كلماتها فى ذاكرتى كأنها أزهار عبقة وضيئة خالدة . وكانت حين تبسم يتسع إنسان عينيها الدعجاوين الحلوتين ، ويتألق بسحر لا يوصف ، وتلمع أسنانها القوية البيضاء فى بهجة . وإذا عدونا التجاعيد الكثيرة وسمرة الوجه ، فقد كانت طلعتها شابة متألقة . ولم يكن يفسدها غير أنف كالبصلة ، واسع المنخرين أحمر الأرنبة ، من أثر النشوق الذى اعتادت أن تنشقه من علبة سوداء مموهة بالفضة ، ومن شغفها بالشراب . كان ظاهرها قاتما ، ولكنها كانت مشرقة النفس تضيئها شعلة براقة متقدة لا تنطفىء تنكشف فى عينيها . وكانت برغم انحنائها ، بل تحدّب ظهرها ، سريعة الحركة ، لطيفة ، أشبه ما تكون بهرة كبيرة ولها رقة ذلك الحيوان الأليف .

وكأنى كنت غارقا فى النوم ، محتبئا فى الظلام ، قبل أن تلوح جدتى فى أفق حياتى ، وما أن ظهرت حتى أيقظتنى وقادتنى إلى ضوء النهار ؛ ومضت تنظم أحاسيسى كلها فى سلك واحد ، وتنسج منها زخرفا كثير الألوان ، فأصبحت بذلك صديقة حياتى ، وأقرب الناس إلى قلبى ، وأعزهم وأيسرهم على فهمى ، وتفانت فى حبها للخليقة كلها ، فأغنتنى ، ونمت فى القوة التى يحتاجها المرء لحياة شاقة .

* * *

منذ أربعين عاما ، كان سير السفن بطيئا . وقد مر بنا وقت طويل فى طريقنا إلى نجنى ، ولن أنسى تلك الأيام المترعة بالجمال .

كان الجو رائقا . وكنت أبقى مع جدتى من الصباح إلى المساء فوق ظهر المركب تحت السماء الصافية ، ونحن نتهادى فى تباطؤ وتراخ بين ضفتى الفولجا المموهتين بذهب الخريف . وكانت السفينة الحمراء اللامعة تسحب وراءها فى نهايه حبل طويل ، قاربا راح يئن فى علوه وهبوطه على صفحة الماء الزرقاء المحمرة .

وكانت الشمس تسبح على الفولجا غير ملحوظة ، وكنا فى كل ساعة نحاط بمناظر جديدة : التلال الخضراء صاعدة كأنها طيات كبيرة فى ثوب الطبيعة الفاخر ، وعلى الشاطىء مدن وقرى ، وأوراق الخريف الذهبية تسبح على الماء .

كانت جدتى تصيح فى كل لحظة وهى تنتقل بين جانبى المركب . وقـــد تألق وجهها ، واتسعت عيناها فرحا .

— أنظر . يالجمال كل شىء !

وكثيراً ما كانت تنسانى وهى ترنو إلى الشاطىء ، فتقف على ظهر المركب وقد عقدت يديها على صدرها ، وراحت تبتسم فى صمت والدموع تملأ عينيها . وكنت أجذبها من ذيل ثوبها الكتانى المشجر الداكن ، فتصيح فزعة !

— آه لابد أنى نمت وبدأت أحلم .

— ولكن لم تبكين ؟

فتجيبنى باسمه :

— أبكى من الفرح والهرم ياعزيزى . فأنا أهرم كما تعلم — لقـــد عبرتْ برأسى ستون عاما .

وتبدأ تقص على — وهى تنشق نشقة من السعوط — بعض الحكايات الرائعة عن اللصوص السمحاء والأولياء، وصنوف الحيوانات المفترسة والأرواح الشريرة.

تقص على تلك الحكايات فى لطف وغموض ووجهها قريب من وجهى، وهى تحدجنى بعينيها الواسعتين، وهكذا تثبت فى القوة التى كانت تشب فى نفسى. وكلما طال كلامها بل غناؤها سالت كلماتها عذوبة. كان الإصغاء إليها متعة لا توصف.

كنت أنصت إلى الحكاية وأطلب غيرها فتطرفنى بهذه:

— يعيش فى الفرن عفريت عجوز، وذات يوم دخلت فى قدمه شوكة، فأخذ يترنح هنا وهناك وهو ينتحب قائلا: «آه، أيتها الفيران الصغيرة شديدة الإيلام. آه، أيتها الفيران الصغيرة، أنا لا أستطيع احتمالها».

وتأخذ جدتى قدمها فى يديها وتحركها من جانب إلى آخر، وقد جعدت وجهها تجعيداً مضحكا، كأنما هى التى أصيبت.

فيقول البحارة — وهم رجال ملتحون سمحاء — وقفوا حولنا يصغون ويضحكون ويمتدحون القصص:

— والآن اتحفينا بأخرى ياجدة.

ثم يقولون فيما بعد:

— أقبلا نتعش معاً.

وكانوا على العشاء ينعشونها بالفودكا ويحبوننى بالبطيخ، يفعلون ذلك خفية، إذ كان على المركب رجل يروح ويجيء يحرم أكل الفاكهة، وقد اعتاد أن يأخذها ويرميها فى النهر. وكان ذلك الرجل يرتدى ملابس رسمية ولا يفيق من الشراب، وكان الناس يتحاشونه.

وكانت أمى تصعد إلى ظهر المركب فى فترات نادرة، وتقف فى أقصى الجوانب عنا، ولا تخرج عن الصمت. كان جسمها الضخم المليح، ووجهها العابس، وتاج شعرها الكث، المجدول اللامع — كان كل شيء فيها محكماً جامداً، وقد بدت لى كأنها ملفوفة فى ضبابة، أوسحابة شفافة، وهى تنظر من خلالها شزرا، بعينيها الرماديتين الواسعتين كعينى جدى.

صاحت مرة فى ضراعة:

ـــ أماه . إن الناس يضحكون منك .

فأجابت جدتى غير آبهة :

ـــ يرحمهم الله ! ليضحكوا ولتسعد حظوظهم .

وأذكر ما أظهرت جدتى من فرح الأطفال حين رأت نجنى . فقد أخذتنى من يدى وذهبت بى إلى جانب المركب وهى تصيح :

ـــ أنظر . أنظر كم هى جميلة . ! نجنى . تلك هى ! إن فيها شيئاً سماويا ! أنظر إلى الكنيسة أيضاً ، ألا تبدو كأن لها أجنحة ؟

والتفتت أمى وهى تكاد تبكى :

ـــ إنظرى يافاروشا . ألا تنظرين؟ تعالى ، يبدو أنك نسيت كل شىء عنها . ألاتستطيعين أن تظهرى شيئاً من السرور ؟

فعبست أمى وابتسمت فى مرارة .

وحين وصلت السفينة خارج المدينة الجميلة بين نهرين احتشدت فيهما السفن ، وتكاثفت عليهما مئات من السوارى الدقيقة ، حاذاها زورق كبير يحمل كثيراً من الناس ، ثم أخذ ركابه يتعلقون بالمردى عند المعبر واحداً إثر واحد ، ثم يصعدون إلى ظهر السفينة . كان فى مقدمتهم رجل قصير نحيل يرتدى السواد ، أصهب اللحية ، أنفه كمنقار الطائر ، وعيناه خضراوان.

صاحت أمى بصوت عال أجش

ـــ أبى . . .

وألقت نفسها بين ذراعيه ، ولكنه صاح وهو يأخذ وجهها فى يديه الصغيرتين الحمراوين ، وربت على خديها بسرعة :

ـــ ماذا يا بنية ، ماذا بك ؟

وعانقتهم جدتى جميعا وقبلتهم وهى تدور وتدور « كالنحلة » ، ثم دفعتنى إليهم قائلة بسرعة :

ـــ أسرع ... الآن ! هذا خالك ميخائيل . وهذا ياكوف ، وهذه خالتك ناتاليا وهذان ابنا خالك ، واسم كل منهما ساشا ، وتلك أختهما كاترينا ، هذه أسرتنا كلها . أليست أسرة كبيرة .

فقال لها جدى :

ـــ أأنت بخير يا أماه ؟

وقبل كل منهما الآخر ثلاث مرات .

ثم أخذنى من بين الجمع الحاشد وسألنى وهو يضع يده على رأسى :

ـــ ومن عسى أن تكون ؟

ـــ أنا الصبي الاستراخانى ساكن الغرفة .

فالتفتت جدتى إلى أمى قائلة :

ـــ عم يتحدث بالله ؟

ولم تنتظر جوابا بل هزتنى وقالت :

ـــ الولد سر أبيه ، أهبط إلى الزورق .

وبعد أن وصلنا إلى الشاطىء ، أخذت الجماعة تصعد فى الجبل فى طريق رصف بالحصى الكبير ، وعلى جانبيه منحدران عميقان تغطيهما حشائش سحقتها الأقدام .

كان جدى وأمى يتقدمان الجميع . وكان أقصر منها بهامة ، وراح يمشى بخطوات قصيرة معجلة ، على حين لاحت ـ وهى تشرف عليه من عليائها ـ كأنها تسبح إلى جانبه ، وكان يسير وراءهما خالى ميخائيل الأسمر ، الناعم الشعر ، وياكوف وهو نحيل مثل جدى أبيض جعد الشعر ، ثم نساء بدينات بملابس زاهية الألوان ، وتسعة أطفال كلهم أكبر منى وكلهم هادىء .

وكنت مع جدتى وخالتى الصغيرة ناتاليا . وهى فتاة شاحبة بدينة ذات عينين زرقاوين ، وكثيرا ما توقفت عن السير وهى تلهث وتهمس :

ـــ أوه . لا أستطيع أن أمضى خطوة !

فتدمدم جدتى غاضبة :

ـــ لم أثقلوك بالحضور ؟ يا لهم من بلهاء .

لم يرقنى الكبار ولا الصغار ، وشعرت بنفسى غريبا بينهم ـ حتى جدتى أمست على شىء من الغرابة والبعد .

كان جدى أبغضهم جميعا ، وقد أحسست لأول وهلة أنه عدوى ، وخامرنى نحوه شعور من التطلع الحذر .

وقد بلغنا الآن غايتنا ، فعند القمة نفسها ، وعلى المنحدر الأيمن ، يقع أول بناء فى

الشارع — وهو بيت مقع من طابق واحد ، مزخرف بطلاء بنفسجى قذر ، وسقفه ضيق واطىء ، ونوافذه بارزة . إذا نظر إليه من الشارع بدأ منزلا كبيراً ، ولكنه كان من الداخل تزحمه الغرف المظلمة الصغيرة . وكان فى كل مكان منه أناس يتشاجرون فيما بينهم كما حدث عند المرساة ، وقد عمت البيت كله رائحة كريهة .

وخرجت إلى الفناء فلم يرقنى كذلك . إذ نشرت فيه ثياب كبيرة مبللة ، وتراكمت فيه أحواض بها ماء عكر من لون واحد ، وقد غمست فيها ثياب أخرى . وكان فى الركن كوخ متداع به موقد تشتعل تحته قطع الخشب ، وعليه شىء يغلى أو يقلى ، وشخص لا يرى ، ينطق هذه الكلمات الغريبة .

— صنتالين ، فوكسين ، زاجْ .

الفصل الثاني

ثم بدأت حياة عميقة متنوعة شديدة الغرابة ، راحت تعدو بي عدوا ، فخلتها قصة فجة أجاد روايتها عبقري سمح ولكن صدقه يغيظ . إنه ليصعب على الآن ، وأنا أسترجع الماضي ، أن أعتقد — مع تراخي المدة — أن الأمـــور كانت حقا كما وقعت ، وأود لو أماري في الحقائق أو أنكرها . إن تأمل قسوة الحياة الملوثة التي يحياها قريب غير حبيب ، لشيء يحز في النفس . ولكن الحقيقة أقوى من الرحمة ، ثم إني لا أكتب عن نفسي ، ولكن عن تلك البيئة الضيقة الخانقة ، والأحاسيس الكريهة التي كان يعيش فيها — نعم ، ولا يزال حتى اليوم يعيش فيها — الروسي العادي من هذه الطبقة .

كان بيت جدي يغلي بالعداوة المتبادلة ، قد أعدت الكبار ، بل لقح بها الأطفال . وقد أدركت من حديث سمعته اتفاقا بين جدي وجدتي ، أن أمي وصلت في عين اليوم الذي طالب فيه أخوتها أباهم بتقسيم ما يملك . وقد شحذت رجعتها غير المتوقعة رغبتهم وقوتها ، إذ خشوا أن تطالب أمي بالبائنة التي جعلت لها ، ومنعها جدي عنها لأنها تزوجت سرا وعلى غير رغبة منه . وكان خالاي يريان أن تقسم تلك البائنة بينهم جميعا ، ثم أنهما قضيا وقتا طويلا يختصمان فيما بينهما خصاما عنيفا فيمن يفتح منهما مصبغة في المـــدينة ، أو على الأوكا في قرية كونا فيني .

وذات يوم بعد وصولنا بقليل . نشب على الغداء نزاع مباغت . فانتصب خالاي على أقدامهما ، وبدآ وقد انحنيا على المائدة — يصيحان بجدتي ويصرخان وهما يزمجران ويهزان جسميهما كالكلاب ، فقرع جدي المائدة بملعقة ، وقد أحمر وجهه احمرارا شديدا . وصرخ بصوت حاد كأنه صياح الديك :

— سأطردكما من البيت .

وقالت جدتي وقد تقلص وجهها تقلصا مؤلما :

— أعطهما يا أبتاه ما يطلبان ، تحظ بشيء من السلام .

فصاح جدي وقد ومضت عيناه :

— أسكتي ، يا جاهلة .

وكان عجيبا أن يستطيع ـ وهو الرجل الضئيل ـ أن يصم الآذان بصياحه .

ونهضت أمى عن المائدة ، وأولتنا جميعا ظهرها إذ ذهبت إلى النافذة فى هدوء .

وبغتة صفع خالى ميخائيل أخاه على وجهه بظهر يده ، فاشتبك معه الأخير صائحا صيحة غضب ، وراحا يتمرغان على الأرض ، وهما يهدران ويلهثان ويتشاتمان . وبدأ الأطفال يبكون : وصرخت خالتى ناتاليا ، وكانت حاملا ، صرخة مدوية ، فطوقت أمى جسمها وجرتها بعيداً ؟ وذهبت المربية الصغيرة النشيطة بوجينا بالأطفال خارج المطبخ ؛ وانقلبت الكراسى على الأرض ، وجلس الأسطى تشيجانوك الشاب العريض الأكتاف على ظهر خالى ميخائيل ، فى حين راح جريجورى إيفانوفتش رئيس المصبغة ـ وهو رجل أصلع مليح ذو منظار ملون ـ يقيد أيدى خالى بالفوط فى هدوء .

وأخذ خالى ميخائيل يسب سبا قبيحا ، وهو يلوى رأسه فتزحف لحيته السوداء الناحلة الخفيفة على الأرض ، وصاح جدى فى مرارة وهو يجرى حول المائدة :

ـــ وهذان أخوان ! .. من دم واحد ... يا للعار !

وكنت فى بدء النزاع قد وثبت على الموقد فزعا ، ومن ثم رأيت فى ذهول مؤلم جدتى وهى تغسل وجه خالى ياكوف المكدم فى حوض ماء صغير ، فى حين راح هو يبكى ويدق الأرض بقدميه . قالت فى صوت حزين :

ـــ أيها الأشرار ! لستم خيراً من عائلة حيوانات متوحشة . متى تعودون إلى صوابكم ؟

وصاح بها جدى وهو يستر كتفه بقميصه الممزق :

ـــ وإذن فقد كنت تلدين حيوانات متوحشة ، يا عجوز .

وحين خرج خالى ياكوف ، أنحازت جدتى إلى ركن ، وأخذت تصلى وهى ترتجف أسى :

ـــ يا أمنا العذراء . ردىّ أبنائى إلى صوابهم .

ووقف جدى إلى جانبها ، وقال بلطف وهو يلمح بنظره المـــائدة التى أنقلب كل ما عليها أو أريق .

ـــ إذا فكرت فيهم يا أماه ، ثم فكرت فى الولد الصغير الذى يزمعون فاريا من أجله . . . فأيهم خير ؟

ـــ اسكت ، بالله . أخلع هذا القميص لأصلحه .

ووضعت جدتى راحتيها على رأسه ، وقبلته فى جبينه، فضغط هو ـ وكان ضئيلا بالقياس إليها ـ كتفها بوجهه وقال :

ـ ليس أمامنا إلا أن تعطيهما نصيبهما يا أماه . هذا واضح .

ـ أجل ـ يا أبتاه ، ذلك ما يجب عمله .

ثم تحادثا وقتا طويلا ، حديثاً ودياً أول الأمر ، ولكن جدى ما لبث أن راح يحك الأرض بقدميه كما يفعل الديك قبل قتال ، ورفع إصبعه يهدد جدتى وهمس وحشية :

ـ أنا أعرفك ! هما أحب إليك منى . ولكن من هو ابنك مشيكا ؟ ـ يعقوبى ! وياشكا ـ ماسونى ! وهما عيال على . . . طفيليان ، هذا كل أمرهما .

تحركت قلقا على الموقدة ، فأسقطت حديدة أحدثت ضجة كالرعد . فانتصب جدى واقفاً ، واجتذبنى وحلق فى وجهى كأنه يرانى الآن لأول مرة :

ـ من وضعك على الموقدة ؟ أمك ؟

ـ لقد صعدت وحدى .

ـ أنت تكذب !

ـ كلا . لست أكذب ، إنى صعدت هناك وحدى ، فقد كنت خائفاً .

فدفعنى بعيد عنه ، بلطمة خفيفة من راحة على رأسى .

ـ ما أشبهك بأبيك ! أغرب عن وجهى .

كنت موقناً بأن عينى جدى الخضراوين الماكرتين الحادتين تتبعانى فى كل مكان فكنت أخافه . وأذكر كيف كنت أريد دائما أن أختبىء من تلك النظرة الوحشية . كان جدى يبدو لى رجلا حقودا ، فقد كان يسخر بكل من يخاطبه ويهاجمه . ويجتهد ـ بتحرشة ـ أن يخرج سواه عن طوره ؛ وكثيراً ما صاح متعجبا .

أغ أنت

ولا زال الصوت الممطوط « أغ » يذكرنى دائما بإحساس من الشقاء والقشعريرة .

وحين كان هو وخالاى والعمال يأتون إلى المطبخ من المصبغة ساعة الراحة وقت تناول شاى المساء ، وهم متعبون قد تلوثت أيديهم بالصندالين وحرقها حامض الكبريتيك ، وقد جمعوا شعورهم بعصائب من الكتان ، وكلهم يبدو كالأيقونة القاتمة الملامح ، الموضوعة

فى ركن المطبخ ـ فى تلك الساعة الرهيبة ، اعتاد جدى أن يجلس إزائى ، ويثير حسد أحفاده الباقين بأن يتحدث إلى أكثر مما يحدثهم . كان كل ما فيه شديدا حاسما ، وكان صداره الأطلسى المطرز بالحرير عتيقا ، وقميصه القطنى الملون البالى مغضنا ، وكانت البقع الكبيرة تختال على ركبتى سرواله ، ولكنه كان برغم ذلك يبدو أكثر ثقافة وأناقة فى ملبسه من ابنيه بقمصانهما الزائفة ، وربطاتهما الحريرية .

وبعد أيام قليلة من وصولنا ، جعلنى جدى أحفظ الأدعية ، وكان الأطفال الآخرون جميعا يكبروننى ، وقد أخذوا يتعلمون القراءة والكتابة على يد قسيس ، كنيسة أوسبنسكى . واعتادت خالتى الحبيبة ناتاليا أن تعلمنى فى رفق ، وكانت امرأة ذات وجه يشبه وجه الطفل ، وعينين شفافتين ، حتى لكأنك تستطيع بالنظر فيهما أن ترى ما فى داخل رأسها . فأحببت أن أحدق فى تينك العينين دون أن أحول ناظرى أو أطرف . وقد كانتا تومضان حين تلتفت برأسها عنى وتقول فى رقة وفى شبه همس :

ــ كيفى ... سمع الآن « يا أبانا الذى فى السماء ، تقدس اسمك ... » فإذا سألت :

ــ ما معنى تقدس اسمك ؟

نظرت حولها فى خفر وحذرتنى قائلة :

ــ لاتسأل الأسئلة . هذا خطأ . قل بعدى وحسب : يا أبانا .. كانت كلماتها تقلقنى ، فلم كانت الأسئلة خطأ ؟ وأصبح لكلمتى « تقدس اسمك » دلالة غامضة فى ذهنى ، فرحت أخلط عامدا ما استطعت .

ولكن خالتى الشاحبة ، بل المنهكة ، كانت تتصبر فتجلو صوتها ـ وكان أجش دائما ـ وتقول :

ــ كلا . ليس هذا صوابا . قل « تقدس اسمك » . هذا واضح جدا .

ولكن الوضوح كان يعوزها ويعوز كلماتها ، وكان هذا يغيظنى ، ويعوقنى عن تذكر الدعاء وذات يوم سأل جدى :

ــ حسنا يا أوليشا ، ماذا فعلت اليوم ؟ لعبت ؟ إن الرضوض التى على جبهتك لتخبرنى بذلك . إن ثمن الرضوض بخس . وماذا عن « يا أبانا » ؟ أحفظها ؟

فقالت خالتى فى رفق :

ــ إنه ضعيف الذاكرة .

فابتسم جدى وهو يرفع حاجبيه الأصهبين ، كأنما سره ذلك . قال :

— وماذا تظنين ! يجب أن يجلد . هذا كل شيء .

ثم التفت إلى ثانية وقال :

— ألم يجلدك أبوك قط ؟

وإذا كنت لا أدرى عم يتحدث ، فقد صمت ، ولكن أمى أجابت :

— كلا . إن مكسيم لم يكن يضربه ، بل زاد فأمرنى ألا أضربه .

ولكن لماذا يا ترى ؟

— لقد كان يقول إن الضرب ليس تربية .

— إن مكسيم ذاك كان جاهلا بكل شيء .

ثم صاح جدى فى وضوح وغضب :

— ليغفر الله لى أنى أتحدث بهذا عن الموتى !

ورأى لساعته أن تلك الكلمات أحنقتنى فسألنى:

— لم هذا الوجه النكد ؟ أغ . أنت !

ثم أضاف وهو يسوى شعره الأصهب الذى جرت فيه عروق الفضة : .

— وسأعطى ساشا يوم السبت هذا « علقة » .

سألت :

— ما « العلقة » ؟

فضحكوا جميعا ، وقال جدى :

— انتظر قليلا ، وسترى .

ورحت أفكر سرا فى كلمة « علقة » . كان الظاهر أنها تعنى الجلد والضرب . وقد رأيت الناس يضربون الخيل والكلاب والقطط ، وقد اعتاد الجنود فى أستراخان أن يضربوا العجم ، ولكنى لم أر أحدا يضرب الأطفال الصغار من قبل . ومع ذلك فقد رأيت هنا خالىّ يضربان أبناءهما على الرءوس والأكتاف ، فيحتمل هؤلاء ذلك فى غير تبرم ، ولا يكون منهم إلا أن يفركوا العضو المضروب ، وإذا سألتهم أيتألمون أجابونى فى شجاعة دائما :

— كلا ، البتة .

ثم وقعت قصة « الكشتبان » المشهورة . فقد أعتاد خالاى ورئيس العمال فى الأماسى بين وقت الشاى والعشاء أن يخيطوا قطعا من قماش مصبوغ بعضها إلى بعض ، ويضعوا عليها بطاقات . وأراد خالى ميخائيل أن يعبث بجريجورى الأعمش ، فسأل ابن أخيه — وهو

صبي في التاسعة ـ أن يحمى « كشتبان » جريجورى على لهب الشمعة . فأحماه ساشا بمقراض الشموع حتى أحمر تماما ، واحتال لأن يضعه قريبا من يد جريجورى دون أن يلحظه أحد ثم اختفى بجانب الموقدة ، ولكن الحظ لعب دوره ، فجاء جدى نفسه فى تلك اللحظة وجلس ليعمل فدسّ إصبعه فى الكشتبان الملتهب .

وحين سمعت الجلبة ، أندفعت إلى المطبخ ، ولن أنسى أبداً كيف بدا جدى مضحكا وهو يدلك اصبعه المحترقة ويتواثب ويصرخ :

ـ أين الشرير الذى دبر هذه الخدعة ؟

فانتزع خالى ميخائيل الكشتبان وراح ينفخه وهو منحن تحت المائدة ، ومضى جريجورى فى الخياطة غير آبه ، والخيالات تتراقص على صلعته الهائلة . ثم اقتحم خالى ياكوف المطبخ واختفى فى ركن بجوار الموقدة ، ووقف يضحك فى هدوء ، وشغلت جدتى نفسها بقشر البطاطس ، وبغتة صاح خالى ميخائيل .

ـ لقد فعلها ساشا يا كوف .

فزعق يا كوف مندفعا من وراء الموقدة .

ـ كذاب !

ولكن ابنه قال من أحد الأركان وهو يبكى وينتحب :

ـ لا تصدقه يا أبى ! لقد أرانى بنفسه كيف أفعلها .

وبدأ خالاى يتشاتمان ، ولكن جدى هدأ فجأة ، ووضع على إصبعه ضمادة البطاطس المقشور ، وخرج فى صمت وقد أخذنى معه .

قال الجميع إن اللوم يقع على خالى ميخائيل ، وسألت طبعا أيجلد أم يعطى « علقة » . فأجاب جدى . وهو يلحظنى :

ـ ينبغى له .

فدق خالى ميخائيل المائدة بيده ، وصاح بأمى :

ـ مرى يا فارفارا جروك أن يسد حنكه قبل أن أقطع رأسه .

فأجابت أمى :

ـ إذن فافعل . حاول أن تضع يديك عليه .

ولم يزد أحد على ذلك كلمة .

كان لأمى قدرة على أن تنحى الناس من طريقها وكأنها تمسحهم ، وتشعرهم بصغارهم بكلمات قليلة كهذه . وقد اتضح لى أنهم جميعا كانوا يخشونها حتى أن جدى كان فى حديثه معها أهدأ منه حين يخاطب غيرها . وأدخل ذلك على نفسى الرضا ، حتى كنت أتيه على أبناء خالى فأصارهم بقولى :

— إن أمى ند لهم جميعا .

وكانوا لا ينكرون ذلك .

ولكن الأحداث التى وقعت يوم السبت قللت من احترامى لأمى .

* * *

قبل أن يحل يوم السبت ، كانت فرصة الوقوع فى الحرج قد أتيحت لى أنا أيضا . فقد خلبتنى السهولة التى يغير بها الرجال الراشدون ألوان الأشياء المختلفة . كانوا يتناولون الشىء الأصفر ويغمسونه فى صبغ أسود ، فيخرج أزرق قاتما . وكانوا يضعون القطعة الرمادية فى ماء محمر فتصبح أرجوانية . كان الأمر يسيرا جدا ، وإن استعصى على تفسيره . وقد شاقنى أن أصبغ بنفسى ، وأسررت رغبتى إلى ساشا ياكوفتش وهو ولد عاقل ينال الحظوة دائما عند الكبار ، سمح أبدا ، ظريف ، لا يتوانى عن خدمة غيره .

كان الكبار يطنبون فى الثناء عليه لطاعته ومهارته ، ولكن جدى لم يكن راضيا عنه ، بل اعتاد أن يقول :

— ذاك شحاذ محتال .

كان ساشا ياكوف أسمر ناحلا ، فى عينيه جحوظ وحذر ، وقد اعتاد أن يتكلم بصوت خفيض سريع كأنما يغص بالكلمات ، ولا زال وهو يتكلم ينظر يمنة ويسرة فى وجل كأنه يرتقب أوهى عذر فيهرب ويختبىء . وكان إنسانا عينيه العسليتين ساكنين إلا أن يهتاج فيمتزجا بالبياض . لم أكن أحبه ، بل كنت أقدم عليه ساشاميخائيلوفتش الكسلان المحتقر ، وكان صبيا هادئا حزين العينين لطيف البسمة كثير الشبه بأمه الحنون ، وكانت أسنانه قبيحة بارزة ، وله فى الفك العلوى صفان منها ، وكان هذا العيب يشغله ويهمه حتى ليجعل أصابعه فى فمه دائما ويحاول أن يقلقل الصف الخلفى منها ، ويسمح برؤيتها عن طيب خاطر لمن يود أن يفحصها .

ولكن ذلك كان الأمر الوحيد الذى يشوق المرء منه . كان يعيش منعزلا فى بيت يعج بالناس ، ويحب أن يجلس فى الأركان المظلمة نهاراً ، وعند النافذة فى المساء ، ويسعد غاية

السعادة إذا استطاع أن يظل بغير كلام ، وقد ألصق وجهه بزجاج النافذة ساعات طويلة وهو يحدق فى سرب الزاغ الصغير إذ يحوم حول قبة كنيسة أوسبنسكى فى شفق المساء ، يحلق فوقها تارة ، ويسف إلى الأرض تارة أخرى ، وأخيرا تحجبه سحابة غائمة قاتمة فيختفى فى مكان ما وقد خلف وراءه فراغا . ولم يكن يرى ذلك يستشعر الرغبة فى الحديث عنه ، بل كان يستولى عليه خمول لذيذ .

أما ساشا ابن خالى يا كوف فكان على النقيض من هذا ، يستطيع الحديث عن كل شيء بطلاقة وثقة مثل شخص راشد . وحين سمع برغبتى فى ممارسة الصباغة نصحنى بان آخذ غطاء من أحسن أغطية المائدة البيضاء وأصبغه أزرق . قال فى جد بالغ :

ــ أنا أعلم أن الأبيض أقبل الأشياء للصبغ .

فسحبت غطاء ثقيلا وجريت به إلى الفناء ، ولكنى لم أزد على أن غمست طرفه فى حوض الصبغ الازرق القاتم ، حتى اندفع تسيجانوك نحوى من حيث لا أعلم ، وأنقذ القماش وراح يعصره بيديه الخشنتين ، وصاح بابن خالى وكان يرقب عملى من مكان أمين :

ــ ناد جدتك بسرعة .

وقال لى وهو يهز رأسه الأسود الأشعث منذرا :

ــ ستعاقب لهذا .

وجاءت جدتى إلى المكان تجرى وتولول بل تبكى لما رأت ، وعنفتنى بطريقتها المضحكة . قالت :

ــ أوه ، أيها الغلام المتعب . أرجو أن يصفعوك على هذا .

على أنها قالت فيما بعد لتسيجانوك .

ــ لا حاجة بك إلى أن تقول شيئاً للجد يافانكا . وسأجتهد أنا فى إخفاء الأمر ولعل شيئاً يشغله .

فأجاب فانكا مرتبكا وهو يجفف يديه فى مئزره الكشمير الألوان :

ــ أنا ؟ أنا لن أخبره ، ولكن يجدر بك أن ترى أن ساشا هذا لا يذهب ويقص الأقاصيص .

قالت جدتى وهى تقودنى إلى المنزل :

ــ سأعطيه شيئا ليصمت .

وقبل صلاة المساء يوم السبت دعيت إلى المطبخ ، وكان يرين عليه الظلام والهدوء . لازلت أذكر النوافذ المحكمة الإغلاق فى السقيفة وفى الغرفة ، وقتام الضباب فى أمسية

خريفية ، ونقر المطر الشديد . كان تسيجانوك جالسا أمام الموقدة على مقعد ضيق ، غاضباً متغير الحال وكان جدي واقفاً في ركن المدخنة يتناول أعواداً طويلة من دلو به ماء ، ويقيسها ويطابق بينها ، ويضرب بها الهواء فيند عنها صوت حاد صافر . وكانت جدتي جالسة في مكان ما من العتمة تنشق السعوط وتدمدم قائلة :

— هذا وقتك يا طاغية !

وكان ساشا يا كوف جالساً على كرسي في وسط المطبخ ، وهو يفرك عينيه ببراجمه ويئن كشحاذ عجوز في صوت لا يشبه صوته العادي :

— سامحني محبة للمسيح ...

وكان يقف بجوار الكرسي ابنا خالي ميخائيل ـ الأخ والأخت — متلاصقين كأنهما تمثالان من الخشب . قال جدي وهو يجري بين أصابعه عوداً طويلا رطباً :

— سأعفو عنك بعد أن أضربك والآن . . أخلع سروالك .

كان يتكلم في هدوء تام ، ولكن صوته وجلبة الصبي في حركته على الكرسي الذي يصر ، واحتكاك أقدام جدتي بالأرض ، كانت كلها لتقطع السكون الغريب لذلك المطبخ المعتم ، تحت السقف الواطىء المسودّ .

وقف ساشا وفك سرواله فتدلى إلى ركبتيه ، ثم انحنى يرفعه بيديه ، فعثر بالمقعد . كان النظر إليه مؤلماً ، وقد بدأت رجلاي أيضاً ترتعدان .

وتلا ذلك ماهو أشنع حين رقد على المقعد خاضعاً ووجهه إلى أسفل وراح فانكا يقيده إليه بفوطة كبيرة وضعها تحت ذارعية وحول رقبته ، وانحنى تحته وقبض بيدين سمروا ين على رجليه من الكعبين . صاح جدي :

— لكسي . اقترب تعال . ألا تسمعني أخاطبك ؟ انظر وأبصر مايعنيه الجَلْد . . واحد . . .

ولوح بالعود في قصد وأهوى به على اللحم العريان ، فندت عن ساشا صرخة . قال جدي :

— هراء . . ليس هذا شيئاً ! . . إليك ما يؤلمك .

وراح يكيل الضربات حتى إن اللحم ما لبث أن التهب وظهرت عليه آثار حمراء كبيرة ، وابن خالي يعوي . سأل جدي ويده تعلو وتهوى :

— أليس هذا لطيفاً ؟ ألا تحبه ؟ . . هذه للكشتبان .

كان يرفع يده ملوحا فإخال قلبي يصعد أيضا ، وكان يهوي بها فأحس في حشاي شيئا يغوص .

وصرخ ساشا صرخة مدوية بصوت مخيف ناحل ضعيف متكسر :

ـــ لن أفعلها ثانية . ألم أخبرك ؟.. ألم أخبرك بغطاء المائدة ؟

فأجابه جدى فى هدوء ، كأنما كان يقرأ كتاب المزامير :

ـــ النميمة لاتبرر شيئا والنمام أول من يضرب وإذن نخذ هذه عن غطاء المائدة .

ألقت جدتى بنفسها على وأمسكت بيدى صائحة :

ـــ لن أسمح بأن يمس لكسى ! لن أسمح بذلك ياوحش !

وبدأت تدق الباب منادية :

ـــ فاريا ! فارفارا !

فاندفع جدى نحوها ، وألقاها على الأرض وأمسك بى وحملنى إلى المقعد ، فأخذت أضربه بقبضتى وأجذب لحيته الصهباء ، وأعض أصابعه . وهو يخور قابضاً على بقبضة من حديد وأخيرا ضربنى على وجهى ورمانى على المقعد .

ولن أنسى صيحته الوحشية : أوثقوه ! سأقتله ! ولن أنسى وجه أمى الأبيض وعينيها الواسعتين وهى تهرول هنا وهناك بجوار المقعد صارخة :

ـــ أبى . لا تفعل . دعه لى !

* * *

ضربنى جدى حتى فقدت الوعى . واعتللت أياما ، وأنا أتململ ووجهى إلى أسفل على فراش رحب عفن ، فى غرفة صغيرة ذات نافذة وحيدة ، ومصباح كان دائم الاشتعال أمام خزانة الأيقونات فى ركن الغرفة . كانت تلك الأيام السود أعظم أيام حياتى . فقد تطورت خلالها تطوراً واقعاً ، وشعرت بتبدل غريب فى نفسى . بدأت أبلو نوعا جديداً من الاهتمام بالناس ، وأصبحت مرهف الحس بآلامهم وبألمى ، حتى كأن قلبى قد تمزق مزقاً جعله ذلك سريع التأثر .

ومن أجل هذا هبط النزاع بين أمى وجدتى علىّ كالصدمة ـ حين هاج الغضب بجدتى وبدت أشد سمرة وأكبر حجما فى الغرفة الضيقة ، ووقفت أمى إلى الركن حيث الأيقونات ، ودمدمت قائلة :

ـــ لم لم تبعديه ؟

ـــ كنت خائفة .

ـــ امرأة مثلك قوية سليمة ! ينبغى أن تخجلى من نفسك يا فارفارا ! إنى امرأة عجوز ، ولـكنى لا أخاف . عار عليك !

ـــ كفى يا أماه ؟ لقد أمضنى الأمر كله .

ـــ كلا . أنت لا تحبينه ، أنت لا ترحمين اليتيم المسكين .

فقالت أمى رافعة الصوت حزينة :

ـــ لقد عشت يتيمة طول حياتى .

وبكتا بعد ذلك وقتاً طويلا وقد جلستا على صندوق فى ركن ، ثم قالت أمى :

ـــ لولا ألـكسى لتركت هذا المكان ـ ورحلت من فورى . أنا لا أستطيع أن أظل فى الجحيم يا أماه ـ لا أستطيع . لست أقوى على ذلك .

فهمست جدتى :

ـــ أوه . يا لحمى ودمى ! .

اختزنت هذا كله فى ذهنى . إن أمى ضعيفة وهى مثل الآخرين تخشى جدى ، وأنا أمنعها من مغادرة المنزل الذى لا تطيق الحياة فيه . كان هذا شقاء أى شقاء . وقد اختفت أمى حقا من المنزل بعد قليل ، وذهبت فى زيارة بمكان ما .

لم يكن هذا يمضى حتى ظهر جدى كأنما هبط من السقف ، وجلس على سريرى ، وهو يضع على رأسى يديه الباردتين كالثلج . قال .

ـ كيف أنت أيها السيد الصغير ؟ تكلم . أجبنى . لا تعبس ! حسنا ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

فـكرت أن أركل رجليه ـ ولـكن الحركة كانت تؤلمنى . وكان رأسه وقد زادت صهبته عن ذى قبل ، يهتز من جانب إلى جانب فى قلق ، وبدت عيناه اللامعتان كأنما تبحثان عن شىء فى الحائط . وهو يخرج من جيبه عددا من خبز الجنزبيل وقرنا من السكر ، وتفاحة وعنقودا من العنب الأحمر ، ووضعها على الوسادة تحت أنفى . قال :

ـــ هاك ! تلك هدية لك .

وانحنى وقبلنى على جبينى ، ثم بدأ يقول وهو يمسح رأسى بتينك اليدين الصغيرتين القاسيتين اللتين أصفر ما حول أظافرهما الشبيهة بالمخالب :

ـــ وإذن فقد تركت عليك سمتى ، ياصديقى . لقد كنت شديد الغضب ، فضربتنى وخدشتنى ، فاهتجت أنا أيضا . على أية حال لن يضرك أن تعاقب بأشد مما تستحق . سأترفق بك فى المرة القادمة . ويجب ألا يسوءك أن يضربك واحد من أسرتك ؛ فإن هذا جزء من

تربيتك . والأمر يختلف إذا أتاه الغرباء ، ولكن لا بأس ، من واحد منا . ينبغي ألا تدع الغرباء يضربونك ، ولكن إذا ضربك واحد من أسرتك فليس هذا شيئا . إخالك تحسبني لم أجلد قط ؟ لقد جلدت يا إليوشا جلدا أشد مما يمكن أن تتصوره في حلم مخيف . لقد جلدت حتى أن الله نفسه كان خليقا بأن يذرف الدمع لو رآني . وماذا كانت النتيجة ؟ صعدت — أنا اليتيم ابن المرأة الفقيرة — إلى منزلتي الحاضرة ، شيخ حرفة ورئيس عمال .

وبدأ يحدثني — وقد مال نحوي بجسمه الذاوي المفتول — عن أيام طفولته في لغة فياضة قوية أحسن اختيار ألفاظها ، واشتد بريق عينيه الخضراوين وتشعث شعره الذهبي ، وغص صوته العالي ، وراح يتنفس في وجهي . قال :

— لقد رحلت إلى هنا في سفينة بخارية ... إن البخار ليذهب بك اليوم حيث تشاء ، ولكني في شبابي ، كنت أسحب وحدي زورقا صاعداً في الفولجا . كان الزورق في الماء ، وكنت أجري حافيا على الضفة التي انتثرت عليها حجارة حادة ... وهكذا كنت أقضي يومي من الصباح الباكر حتى الغروب ، والشمس تلسع قفاي ، ورأسي يخفق كأنه ملىء بالحديد المصهور . وكانت تبهظني أحيانا أنواع من العذاب ... فتؤلمني عظامي الصغيرة المسكينة ، ولكني كنت مضطراً إلى أن أمضي قدما ، ولا أستطيع أن أتبين الطريق ، فتمتلىء عيناي بالدموع ، وأذرف قلبي مع العبرات المنسكبة . آه يا إليوشا — إن الحديث عنها شاق . كنت أمشي وأمشي حتى يفلت مني الحبل . وأقع على وجهي — ولم يكن ذلك يسوءني فقد كنت أنهض بعدها متجدد القوى ، ولو أني لم أسترح دقيقة لمت .

كذلك كنا نعيش إذ ذاك على مشهد من الله ومن سيدنا المبارك يسوع المسيح . وعلى هذا النحو خبرت أمنا الفولجا ثلاث مرات ، من سمر مسك إلى ريبنسك ، ومن هناك إلى ساراتوف ، ومن استراخان وماركاريف إلى السوق — أكثر من ثلاثة آلاف ميل . وفي السنة الرابعة أصبحت نوتيا حراً . لقد أريت سيدي أي رجل أنا » .

وبدأ وهو يتكلم كأنما يضخم كالسحابة أمام عيني . ويتحول من شيخ ضئيل يابس إلى رجل ذي قوة خيالية : ألم يسحب وحده زوقا كبيرا أغبر في النهر ؟ كان يثب بين الفينة والفينة من السرير ، ويريني كيف يسير النوتية وقد تمنطقوا بالحبال ، وكيف يضخون الماء وهم يغنون بصوت جهير شذرات من أغنية . ثم يطفر ثانية إلى السرير في فتوة ، ويمضي في الحديث بصوت أجش مؤثر ، وأنا في دهشة متزايدة .

— وأحيانا كنا يا إليوشا حين نصل إلى جيجولاك أو ما يشبهها من الأماكن التي تقع على سفح الآكام الخضراء ، نجلس في بعض أمسيات الصيف ، نطهو عشاءنا في كسل

فى حين يغنى نوتية الجبال الأغانى العاطفية ، وما يبدءون حتى يشاركهم النوتية جميعا ، فيبعث الغناء فى المرء رعدة ، ويبدو الفولجا كأنما يخب كالفرس ، ويعلو فى السماء كالسحاب ، وتلوح المصاعب كلها كأنها غبار تذروه الرياح . كانوا يغنون حتى يفور الحساء ، فنضرب الطاهى لذلك بحرقة . وتقول « العب كما تشاء ، ولكن لا تنسى عملك » .

وقد أطل بعض الناس غير مرة يدعون جدى ، ولكنى فى كل مرة كنت أرجوه ألا يذهب فيصرفهم ضاحكا ويقول :

— انتظروا قليلا .

ولبث إلى جانبى يقص على الأقاصيص ، حتى كاد الظلام يحل ، وحين ودعنى وداعا رقيقا ومضى ، أدركت أنه لم يكن حقودا ولا رهيبا . وعبرت عيناى إذ ذكرت أنه هو الذى ضربنى بقسوة ، ولكننى لم أستطع ان أنسى ذلك .

وتعاقبت على الزيارات بعد زيارة جدى هذه ، فكان يجلس إلى جانبى من الصباح إلى المساء زائر يحاول أن يدخل السرور على نفسى . وأذكر أن ذلك لم يكن يبعث فى المرح أو السرور دائما .

وكانت جدتى ـ وهى شريكتى فى الفراش ـ أكثر العائدين ترددا على ، ولكن تسيجانوك كان هو الذى أثر فى أوضح التأثير فى تلك الأيام . كان يظهر فى الأماسى ربعة عريض الصدر ، جعد الشعر . قد ارتدى أنخر ملابسه : قميصا موشى كالذهب ، وسروالا من المخمل ، وحذاء يصر كالأرغن . وكان شعره مصقولا ، وعيناه الحولاوان المرحتان تلمعان تحت حاجبيه الكثيفين ، وأسنانه البيض تلمع ظل شاربه الطرير ، وقميصه يتوهج توهجا رخيا كأنما يعكس ضوء شمعة الأيقونة الأحمر . قال وهو يشمر كمه ويكشف ذراعه العارية إلى المرفق ؛ وكانت عليها ندوب حمراء :

— أنظر . تأمل انتفاخها ، وقد كانت أمس أسوأ حالا ـ كانت مؤلمة حقاً . حين اهتاج جدك ورأيت أنه مقدم على جلدك ؛ حلت دونه بذراعى ، وأنا أظن أن العود ينكسر عليها ، فتذهب بك جدتك أو أمك — حين يبحث عن غيره — وتخبؤك . أنا خبير بهذه اللعبة ياصغيرى .

وضحك فى رقة وحنان ومضى يقول وهو يلحظ الذراع المنتفخة :

— لقد أسفت لك حتى خلتنى أختنق . كان الأمر مخجلا . . ولكنه ظل يجلدك !

وراح يقص القصة وهو ينخر ويهز رأسه كالفرس ، وكأنما قربته سذاجة الأطفال هذه منى ، فقلت له إنى أحبه كثيراً ، فاجابنى بسذاجة لا تفارق مخيلتى :

— وأنا أيضا أحبك . ولذلك آذيت نفسي — لأنى أحبك . أتظن أنى كنت أفعلها لغيرك ؟ إذن لكنت أحمق .

ثم راح يمدنى بعد ذلك بنصائح مهموسة وهو ينظر إلى الباب بين الفينة والفينة . قال :

— حين يضربك مرة أخرى لا تحاول أن تفلت منه ، ولا تقاوم . ! إن مقاومتك تضاعف الأذى فإذا أسلمت نفسك تخفف فى ضربك . كن رقيقاً دمثاً ، ولا تتجهم له . حاول أن تذكر هذا — تلك نصيحة طيبة .

صرخت :

— لا شك أنه لن يضربنى مرة أخرى .

فأجاب تسيجانوك فى هدوء :

— طبعا ! طبعا سيجلدك مرة أخرى ، ومراراً .

— ولكن لم ؟

— لأن جدك يراقبك .

وعاد ينصحنى حذرا :

— إنه حين يجلدك يهوى بالعود على خط مستقيم ، وإذن فإذا رقدت فى هدوء فقد يدنى يده بالعود حتى لا يشق جلدك . والآن ، أتفهم إرفع جسدك نحوه ونحو العود ، يكن ذلك أصلح لك ..

ثم غمز لى بعينيه الحولاوين السوداوين وقال :

— إنى لاعرف عن هذه الأمور أكثر مما يعرفه الشرطى نفسه . لقد كنت أضرب على كتفى العاريتين حتى ينسلخ جلدى ، ياولدى .

فنظرت فى وجهه الطلق ، وذكرت قصة جدتى عن إيفان كزاريفتش ، وإيفانوشكا دوراشكا .

الفصل الثالث

حين أبللت أدركت أن تسيجانوك يشغل بين أهل البيت مكانا ممتازاً ، فلم يكن جدى يعنف به كما كان يعنف بأبنائه ، وكان يقول عنه فى غيبته وهو يهز رأسه ويغمض عينيه نصف إغماضة :

ـــ إن تسيجانوك عامل ماهر . أذكروا قولى . إنه سيوفق ، ويقتنى ثروة .

وكان خالاى أيضاً يتأدبان مع تسيجانوك ويتوددان له . ولم يكونا يمزحان معه شأنهما مع جريجورى رئيس العمال ، الذى كان يتعرض كل مساء تقريبا لمزحة شائنة لئيمة فكانوا أحيانا يحمون مقبض مقصه ، أو يضعون على كرسيه مسمار رأسه إلى أعلى ، أو يجعلون فى متناوله قطعا من القماش ذات لون را حاء فإذ خاطها ، بعمشه ، قطعة واحدة ، عنفه جدى لذلك .

وذات يوم نام فى المطبخ بعد الغداء فطلوا وجهه وبقى منظره برهة طويلة مضحكا مخيفا بعدسق منظاره المستديرتين الملطختين ، تشرفان ببلادة فوق لحيته الشمطاء ، وقد تدلى أنفه الطويل الأزرق رخوا كاللسان .

كانت حيلهم هذه لا تفرغ ، ولكن رئيس العمال كان يحتملها كلها فى صمت ، لا يعدو أن يبطبط بهــــدوء ، ويحرص على أن يبلل أصابعه بلعابه قبل أن يمس الحديد أو المقص أو الخياطة أو الكشتبان . واعتاد هذا حتى إنه كان إذا جلس للغداء ، بلل أصابعه قبل أن يتناول السكين أو الشوكة ، فيطرب لذلك الأطفال طربا شديداً . وكان إذا تألم سرت على وجهه الكبير موجات من التجاعيد وإنسابت بطريقة غريبة إلى جبهته ، فرفعت حاجبيه ، واستخفت فى غموض على رأسه الأصلع .

ولست أذكر كيف كان جدى يلقى معــــابثات أبنائه ، ولكن جدتى كانت تلوح بقبضتها صائحة :

ـــ أيها الشريرون الوقحاء !

ولكن خالى كانا يغتابان تسجانوك أيضا ، ويضحكان منه ويعيبان عمله ، ويقولان إنه لص خامل .

وقد سألت جدتى لم يفعلان ذلك ، فبادرت تشرحه لى وجعلته ـــ شأنها دائما ـــ واضحاً أمامى . قالت :

-- إسمع . إن كلا منهما يريد أن يصحب فانيوشكا حين يستقل بعمل ، ولذلك يسقطه كل منهما فى عين الآخر . يقولان « إنه عامل خامل » ولكنهما لا يعنيان ذلك بل هو مكر منهما . ثم انهما يخشيان أن لا يصحب فانيوشكا واحداً منهما ، بل يبقى مع جدك الذى يركب رأسه دائماً ، وقد يجعل لايفانـكا مصبغة ثالثة فلا يعود ذلك على خاليك بخير . أفهمت الآن ؟ . ثم ضحكت ضحكة رقيقة وقالت : إنهما يمكران فى كل شىء ، لا يرعيان الله ، وإذ يرى جدك مكرهما يحاول أن يغيظهما بقوله « سابتاع لايفان شهادة إعفاء حتى لا يأخذوه فى الجندية أنا لا أستغنى عنه » فيغضبهما ذلك ، لأنه الأمر الذى لا يريدان وقوعه ، ثم إن انفاق المال يسوءهما والاعفاء يقتضى مالا .

عدت أعيش مع جدتى كما عشت معها على السفينة ، فكانت كل مساء قبل أن أنام تقص على الحكايات الخرافية ، أو تروى لى شيئاً عن حياتها ، لا يختلف عن القصة . ولكن حديثها عن أمور الأسرة ، كتقسيم الميراث بين الأبناء ، وشراء جدى لبيت جديد ، كان حديثاً عابراً كحديث شخص غريب ينظر إلى الأمر من بعيد ، أو هو فى أقرب صورة حديث جار ، لا حديث من يلى رب البيت فى المكانة .

وقد علمت منها ، أن تسيجانوك كان لقيطاً ، وجد على مقعد عند مدخل البيت فى ليلة ممطرة من ليالى الربيع الباكر . قالت جدتى وقد استغرقها تفكير وغموض :

— هناك كان يرقد وهو لا يكاد يقوى على الصياح ، فقد أوشك البرد أن يسلبه الحس .
— ولكن لم ينبذ الناس الأطفال ؟
— لان الأم لا تملك لبناً أو شيئاً تطعمه لطفلها . ثم تسمع أن طفلا حديث الولادة قد مات فى مكان ما ، فتذهب هناك وتترك طفلها .

وسكتت جدتى وحكت رأسها ، ثم زفرت ونظرت إلى السقف ومضت تقول :
— الفقر هو السبب دائماً ياإليوشا . فقد لا ينبغى الحديث عنه ، لأن الفتاة غير المتزوجة لا تستطيع أن تصرح بأنها أم طفل — إذن لوصمها الناس بالعار . وقد أراد جدك أن يسلم فانيوشكا للشرطة ، ولكنى قلت : « لا ، سنحتفظ به فى مكان الأموات من أطفالنا . أنت تعلم إنى ولدت ثمانية عشر طفلا ، ولو أنهم عاشوا جميعاً لملأوا شارعاً — ثمانى عشرة أسرة جديدة ! وقد تزوجت فى الثامنة عشرة وكنت ولدت حتى ذلك الحين خمسة عشر طفلا ولكن الله أحب جسمى ودمى فأخذهم جميعاً — رفع أطفالى الصغار إلى الملائكة ، فأحزننى ذلك ، وسرنى فى آن » .

كانت جدتى جالسة على حافة السرير ، وعليها قميص النوم ، فبدت بضخامتها وشعثها وشعرها المتساقط حولها ، كذلك الدب الذى قاده إلى فنائنا منذ قريب ، صياد ملتح من سرجاتش .

ورسمت الصليب على صدرها الأبيض الناصع كالثلج ، وضحكت مهونة الأمر كعادتها . قالت :

ــ كان أخذهم خيراً لهم . ولكننى شقيت بوحشتى ، فسرنى أن أحتفظ بإيفانكا ، ولكن حبى لكم مازال يؤلمنى حتى اليوم يا صغارى الأعزاء . . حسنا ، فقد أبقيناه وعمدناه ، وما فتىء يعيش سعيداً بيننا . وكنت أسميه أول الأمر « الخنفس » لأنه كان فى الواقع يطن أحيانا ، ويروح يحبو ويطن بين العزف مثل الخنفس حقاً . يجب أن تحبه إنه روح طيب .

وكنت أحب إيفان ، وأعجب به إعجابا لا يوصف ، وحين كان جدى يوم السبت يذهب لصلاة المساء بعد أن يعاقب الأطفال على هفوات الأسبوع ، كنا نقضى معاً فى المطبخ وقتاً يفيض سعادة أعجز عن بيانها .

كان تسيجانوك يأتى من الموقدة ببعض الصراصير . ويصطنع لها فى سرعة فائقة لجاما من الخيط ويقص من الورق زلاقة ، وسرعان ما يركض على المائدة الصفراء النظيفة اللامعة ، زوجان من الخيل الدهماء ، وكان إيفان يسوقهما خبباً ، ويحثهما على السير بشظية رقيقة من الخشب كأنها السوط ، ويصيح :

ــ إنها الآن فى طريقها إلى بيت الأسقف .

ثم يلصق قطعة صغيرة من الورق على ظهر أحد الصراصير ويجعله يجرى وراء الزلاقة ، ويفسر ذلك بقوله :

ــ لقد نسينا الحقيبة . إن الراهب يجرها معه وهو يعدو . والآن ، هيا ! .

ويقيد قدمى صرصور آخر يخبط ، ويصيح والحشرة تعرج ورأسها ممدود أمامها ، ويصفق بيديه قائلا :

ــ هذا هو الشماس خارجا من الحانة ، ليرتل صلاة المساء .

ثم يرينا بعد ذلك فأرا يشب حين يؤمر ، ويمشى على رجليه الخلفيتين ، وهو يجر ذيله الطويل وراءه ، ويطرف طرفا مضحكا بعينيه الحادتين وكأنهما خرزتان من زجاج .

كان يألف الفيران ، وقد اعتاد أن يحملها فى صدره ، ويطعمها السكر ويقبلها . وكان يقول فى نبرة الواثق :

— الفيران حيوانات ذكية . وعفريت البيت يكلف بها كلفا شديداً ، فمن أطعمها أجاب له العفريت العجوز رغباته كلها .

وكان يلعب أيضا ألعابا سحرية بالورق والنقود ، وكان صياحه يعلو على صياح الأطفال ؛ والواقع أنه لم يكد يفترق عنهم ، وذات يوم كانوا يلعبون الورق ، فجعلوه « المغفل » مرات متتابعة ، فساءه ذلك كثيراً ، وزم شفتيه عابسا وأبى أن يمضي فى اللعب ، وشكا لى فيما بعد وأنفه يختلج فى كلامه :

— كان الأمر مدبراً ، فقد كانوا يشيرون بعضهم لبعض ، ويتبادلون الأوراق تحت المائدة . أتسمى ذلك لعبا ؟ إذا كان الأمر غشا فأنا أيضا لا أقصر فيه .

وكان مع ذلك فى التاسعة عشرة ، وكان أضخم من أربعتنا مجتمعين .

وعندى عنه ذكريات خاصة أذكرها عن أمسيات الأعياد ، حين كان جدى وخالى ميخائيل يذهبان لزيارة أصدقائهما ، فيبدو خالى ياكوف الأشعث ذو الشعر الجعد ، وفى يده القيثارة ، بينما تعد جدتى الشاى مع كثير من الألطاف والفودكا فى زجاجة مربعة على أسفلها أزهار حمراء منقوشة فى الزجاج بمهارة . وكان تسيجا نوك يتألق فى تلك المناسبات فى ملابس العيد ، ويأتى جريجورى يزحف بجنبه فى هدوء ومنظاره الملون يلمع ، وتحضر نيانايوجنيا — بثرة محمرة الوجه ، سمينة تخابية الجعه ، ماكرة العينين صافرة الصوت ، ويجيء شماس خشن من أوسبنسكى ، ويأتى قوم آخرون سمر مطينون ، يشبهون سمك السكراكى والشلك . وكانوا جميعا يأكلون ويشربون كثيراً حتى تحتبس أنفاسهم ، وكان الأطفال ينفحون بكئوس من شراب حلو ، ولا يلبث أن يشيع فى المكان مرح عنيف ، ولكنه غريب .

ويوقع خالى ياكوف على القيثار توقيعا يثير الهوى ، وكان يردد دائما هذه الكلمات حين يفعل ذلك

— والآن لنبدأ !

وينحنى على القيثار وهو يهز رأسه الجعد ، ويمد رقبته كالإوزة ، ويغدو تعبير وجهه المستدير اللاهى حالما ، وتغيم عيناه الحادتان الرائعتان بغمامة من الزيت ، ويضرب الأوتار بخفة ويوقع لحنا لاتناسق فيه ، وهو ينهض على قدميه فى توقعيه دون وعى . كانت موسيقاه تتطلب صمتا عميقا . كانت تتدفق كالسيل الجارف من مكان بعيد ، تثير قلب المرء ، وتغمره بإحساس غامض من الحزن والقلق . وأثرت فينا تلك الموسيقى فران علينا الأسى ، وأحس أكبر الحاضرين أنهم ليسوا إلا أطفالا . وجلسنا فى هدوء تام — ضائعين فى سكون حالم . ساشا ميخائيلوف بخاصة يصغى بكل قوته وهو منتصب فى جلسته إلى جانب خالنا ، يرنو إلى القيثار فاغرا فاه ولعابه يتحلب طربا . ويظل باقى الجماعة كأنهم جمدوا أو أصيبوا بسحر .

ولم يكن يسمع من بعد سوى نشيش السماور اللطيف الذى لم يكن يعوق شكاية القيثار .

وكانت هناك نافذتان صغيرتان مربعتان ، ترسلان الضوء فى ظلام الليلة الخريفية ، وكان يدقهما بعض الطارقين دقا خفيفا بين حين وآخر . وكان يضطرب على المائدة لهب أصفر لشمعتين من الشحم دقيقتين كالحراب .

واستولى الجمود على خالى ياكوف شيئا فشيئاً . كأنما كان فى سبات عميق مطبق الأسنان ، وبدا كأن يديه تعيشان فى وجود منعزل . كان لأصابع يمناه رجفة ضعيفة على المفاتيح القائمة ، كأنها عصافير ترف وتتنازع ، فى حين راحت يسراه تمر بعنق القيثار صاعدة هابطة فى سرعة لا يدركها البصر .

وكان حين يشرب يغنى فى أغلب الأحيان من بين أسنانه ، وبصوت ناشز : أغنية لا تنتهى :

— لو كان ياكوف كلبا

لنبح من الصباح إلى المساء

أواه . كم أنا متعب .

أواه . من وحشة الحياة

فى الشوارع تمشى الراهبات

وعلى السور تنعب

أواه كم أنا متعب

ووراء الموقدة يغنى الصرصور

فتهرب منه الخنافس

أواه كم أنا متعب

ينشر الشحاذ جوربه ليجف

فيأتى آخر ويسرقه خفية

أواه كم أنا متعب

نعم . إن الحياة موحشة .

* * *

لم أكن أطيق تلك الأغنية ، وحين كان خالى يصل إلى موضع الحديث عن الشحاذين كنت أبكى فى عاصفة جامحة من التعاسة .

وكان للموسيقى مثل هذا التأثير على تسيجانوك وعلى الجماعة . فكان يصغى إليها ، وهو يجرى أصابعه فى خصله الكثة الفاحمة ، ويرنو ناعسا إلى أحد الأركان .

وكان يصيح أحيانا على غير توقع فى نبرة شاكية :

ـــ آه . لو كان لى صوت . رباه ! إذن لأبدعت فى الغناء . وتقول جدتى متنهدة :

ـــ أتريد أن تكسر قلوبنا يا باشا . . . هلا رقصت لنا رقصة يا فانياتكا !

ولم يكن رجاؤها يجاب دائما فى حينه ، ولكن كان يحدث أحيانا أن يمسح الموسيقى الأوتار بيديه فجأة ، ثم يجمع قبضتيه بإشارة من يريد أن يلقى فى هدوء شيئاً خفيا من يديه إلى الأرض ، ويصيح فى حدة :

ـــ أذهب يا أسى ! والآن يافانكا ، قف ! . . .

فيتقدم تسيجانوك إلى وسط المطبخ بادى النشاط يسوى صداره الأصفر ، ويخطو حاذراً كأنما يمشى على المسامير ، ويحمر وجهه الأسمر ، ويبتسم خجلا ويقول فى ضراعة :

ـــ أرجو أن تسرع يا يا كوف فاسيليتش !

فيرق القيثار بعنف ، وتدق الأعقاب على الأرض فى تشنج ، وتجلجل الصحاف والأطباق على الخوان ، وفى الصوان ، على حين يضطرم تسيجانوك بين أضواء المطبخ ، منقضا كالحدأة ، ملوحا بيديه كأجنحة الطاحونة محركا رجليه بسرعة حتى لتبدوان ثابتتين ، ثم ينحنى إلى الأرض ، ويدق ويدور كالخطاف الذهبى ، فتشع حوله الأضواء من صداره الحريرى الباهر وهو يرتجف ويتثنى كأنما يضىء ويسبح فى الهواء . كان يرقص ولا يتعب ، ناسيا كل شىء ويبدا كأنما لو فتح الباب لخرج منه يرقص فى الشارع وفى المدينة . . . إلى حيث لا نعلم .

وصاح خالى يا كوف وهو يدق الأرض بقدميه ، ويصفر صفيراً حاداً :

ـــ عد !

ورفع عقيرته الناشزة بتلك القولة القديمة الغريبة :

ـــ آه لولا أسفى لتركت مسحاتى

إذن لهجرت زوجتى وأبنائى

وكان الجالسون حول المائدة يحكون الأرض بأقدامهم ، ويصيحون ويزعقون بين حين وآخر كأنهم يشوون أحياء . وكان رئيس العمال الملتحى يضرب على صلعته ويشارك فى الجلبة.

انحنى على مرة وهو يمسح كتفى بلحيته الناعمة ، وهمس فى أذنى كأنه يحدث شخصا راشدا :

ـــ لو كان أبوك هنا يا ألكسى ما كسيمتش لأتم المسرة . لقد كان فتى مرحا ، ضاحك السن أبدا . أنت تذكره ، أليس كذلك !

ـــ كلا .

ـــ لا تذكر ؛ حسنا . لقد رقص مرة هو وجدتك ، ولكن انتظر لحظة .

ووقف فكان طويلا ضامرا قريب الشبه من الأيقونة التقليدية ، وانحنى لجدتى ورجاها بصوت شديد الخشونة قائلا :

ـــ أتتفضلين يا أكولينا إيفانوفنا فترقصين لنا كما رقصت مرة مع مكسيم سافا تيفش ؟ إن ذلك سيطربنا .

فصاحت جدتى مبتسمة تياهة :

ـــ عم تتكلم يا رجلى العزيز ؟ ماذا تعنى يا جريجورى إيفانوفتش ؟ تصورنى أرقص فى هذه السن ! إذن لما عدوت أن أضحك الناس .

ولكنها وثبت فجأة ؛ وقد عاودها الشباب ، فسوت أطراف ثوبها ونفضت رأسها الثقيل ، واندفعت وسط المطبخ صائحه :

ـــ حسنا . اضحكوا إذا شئتم ! ولتفيدوا من الضحك كثيراً . والآن وقع يا ياشا .

فبدأ خالى يوقع ببطء شديد وقد أغمض عينيه . ووقف تسيجانوك هادئا لحظة ، ثم طفر إلى حيث كانت جدتى ، فدار حولها معتمدا على نخذيه وهى تلمس الأرض فى غير نأمة كأنما تسبح فى الهواء ، وقد مدت يديها ورفعت حاجبيها ، وراحت تحدق بعينيها السوداوين فى الفضاء . بدت لى مضحكة جدا ، فسخرت منها ، ولكن جريجوري رفع إصبعه بصرامة ، ونظر الكبار جميعا فى استهجان إلى موضعى من الغرفة .

وقال جريجورى :

ـــ لا تصخب يا إيفان .

فأطاع تسيجانوك ووثب جانبا وجلس عند الباب ، على حين أبرزت نيانيا يوجينيا تفاحة آدم ، وبدأت تغنى بصوتها الضعيف العذب :

ـــ تظل طوال الأسبوع حتى يوم السبت ،

تكسب كل ما تستطيع .

تصنع الوشي من الصباح إلى المساء ،

حتى لقد كادت تفقد بصرها .

بدت جدتى كأنها تقص قصة ولا ترقص رقصة . كانت تتحرك وادعة حالمة ، وتمايل تمايلا خفيفا ، وتنظر أحيانا من تحت ذراعيها ، ويترجرج جسمها الضخم كله ، وتتلمس مواطىء قدميها محاذرة . ثم توقفت فجأة كأنما أفزعها شىء ، واختلج وجهها وأظلم . . . ولكن سرعان ما تألق ثانية بابتسامتها الظريفة الصافية وترجحت كأنها كانت تفسح الطريق لأحد ، وكأنما تأبى أن تعطى يدها ؛ ثم نكست رأسها كأنها ميتة ، ثم بدت كأنها تصغى لامرىء وتبسم فى مرح . . . وفجأة هبت من مكانها وراحت تدور وتدور كالخذروف ، وبدا قدها أرشق ، ولاحت أطول مما هى ، ولم نعد نستطيع أن نحول أعيننا عنها — لقد بدت فى تلك اللحظة الرائعة من رجعة الشباب قاهرة الجمال ساحرة الفتنة .

وغنت يوجينيا :

— وفى يوم الأحد بعد الصلاة

ترقص الشابة فى منتصف الليل

وترحل متأخرة ما استطاعت

فأيام عطلتها قلائل .

وحين انتهت جدتى من الرقص عادت إلى مكانها قرب السماور . وقد صفقوا لها جميعا ، وقالت وهى تسوى شعرها :

— كفى . أنتم لم تروا رقصا حقيقيا قط . لقد كانت فى بيتنا ببلاكيا فتاة ـ نسيت اسمها كما نسيت كثيرا غيره ـ لو رأيتم رقصها لصحتم فرحا . كان النظر إليها متعة لا تريدون بعدها شيئا . كم كنت أحسدها، أنا الخاطئة !

قالت نيانيا يوجينيا بوقار :

— إن المغنين والراقصين وأعظم من فى الوجود .

وبدأت تغنى شيئا عن الملك داود ، فى حين قال خالى ياكوف وهو يعانق تسيجانوك :

— خليق بك أن ترقص فى الحانات. إذن لأدرت رءوس الناس . فقال تسيجانوك شاكيا:

— وددت لو أستطيع الغناء ! لو أن الله منحنى صوتا ، لكنت أغنى منذ عشر سنين ، ولظللت أغنى ولا غناء الرهبان .

وقد شربوا الفودكا جميعا ، وأسرف جريجوري فى الشراب ، وكانت جدتى تحذره وهى تصب له كأسا بعد كأس :

— حاذر يا جريشا ، وإلا عميت تماما .

فيجيب بثبات :

— لا بأس ! أنا لا أبالى ببصرى .

وراح يشرب ولكنه لم يسكر وإنما زاد ثرثرة ، وحدثنى طوال الوقت تقريبا عن أبى:
— كان صديقى مكسيم سافاتيفتش رجلا ذا قلب كبير ... فتنهدت جدتى وهى تؤكد قوله :

— نعم لقد كان كذلك حقا ، كان ابنا صادقا من أبناء الله .

شاقنى ذلك كله غاية الشوق ، وسحرنى وملأ قلبى بحزن رخى حبيب . والحزن والسرور يتجاوران فى قلوبنا ، ولا يكادان يفترقان ، بل يتلو الواحد منهما الآخر فى سرعة خاطفة فائقة .

وبدأ خالى ياكوف مرة وقد مسه السكر ، يمزق قميصه ، ويقبض بعنف على شعره الجعد ، وشاربه الأغبر ، وأنفه وشفته الهدلاء . أعول وهو غارق فى الدموع :

— من أنا ؟ لماذا أنا هنا ؟ وأخذ ينتحب وهو يضرب نفسه على خده وجبهته وصدره . كائن تافه منحط !. نفس ضائعة ! فهدر جريجورى :

— آه . آه . أنت على حق !

ولكن جدتى ، ولم تكن هى أيضاً مفيقة تماما ، قالت لابنها وهى تمسك بيده :

— كفى ياياشا . إن الله يدرى كيف يعلمنا .

وكانت حين تشرب تزيد خلابة ، وتزيد عيناها سوادا وتبسمان فتشيعان حرارة قلبها فى كل من عداها . كانت تنحى منديلها الذى يحر وجهها ، وتقول فى صوت مخمور :

- رباه ! رباه ! يالحسن كل شىء ! ألا ترى الحسن فى كل شىء ؟ كان هذا صيحة من قلبها كان شعار حياتها كلها .

وقد اشتد تأثرى بدموع خالى اللاهى وصيحاته ، وسألت جدتى لم كان يبكى ويعنف نفسه ويضربها ، فقالت مترددة على غير عادتها :

— أنت تريد أن تعرف كل شىء ! ولكن انتظر قليلا ، فستعلم نبأ هذا عن قريب .

زاد ذلك من فضولى ، فذهبت إلى المصبغة وبدهت إيفانوف بالسؤال عنه ، ولكنه لم يجبنى بل ضحك فى هدوء وهو يلحظ جريجورى وصرفنى عن المكان صائحا :

— دع هذا الآن واذهب وإلا وضعتك فى الحوض وصبغتك .

وكان جريجورى واقفا أمام الفرن العريض الواطىء الذى ركبت عليه الأحواض وهو يحركها بمحراك طويل أسود ، يرفعه بين حين وآخر ليرى القطرات المصبوغة التى تقطر منه . وكان ضوء اللهب المشتعل يتراقص على مئزره الجلدى الذى كثرت عليه الألوان فصار مثل وشاح القسيس ، وكانت الأصباغ تنشق فى الأحواض ، والبخار الحريف ينتشر نحو الباب فى سحابة كثيفه . ونظر إلى جريجورى من تحت منظاره بعينيه الغسقاتمتين الحمراوين وقال لإيفان بحدة :

— ثم يطلبونك فى الحوش ، ألا ترى ؟

ولكن حين ذهب تسيجانوك إلى الحوش ، دعانى جريجورى إليه وقد جلس على ركبيه وقال : تعال .

وقال فى نبرة من يتذكر الماضى ، وهو يضعنى على ركبتيــه ، ويحك خدى بلحيته الدافئة الناعمة :

— لقد ضرب خالك زوجته وعذبها حتى ماتت ، وهو الآن يعانى وخز الضمير . أتفهم؟ أنت تريد أن تعلم كل شيء ، وهكذا تتلوث .

كان جريجورى ساذجا مثل جدتى ، ولكن كلماته كانت مقلقة ، وكان يبدو أنه ينفذ ببصره خلال الناس جميعا . مضى يقول فى لهجة عابرة :

— كيف قتلها ؟ كذلك . كان راقدا معها على السرير . ثم ألقى عليها اللحاف وظل قابضا عليه وهو يضربها . لماذا ؟ إنه هو نفسه لا يدرى لماذا فعلها .

ثم قال غير ملق بالا إلى إيفان الذى عاد من الحوش ، يحتضن حملا من الأشياء ، ويجلس القرفصاء أمام النار يدفىء يديه :

— لعل ذلك لأنها كانت خيراً منه ، فكان يحسدها . إن آل كاشيرين يا بنى لا يحبون أخيـار الناس بل يغارون منهم . إنهم يضيقون بهم ويحاولون تنحيتهم عن الطريق . سل جدتك كيف تخلصوا من أبيك ، فستخبرك بكل شيء . فهى تكره الخداع لأنها لا تفهمه . لعلها أن تعد فى القديسين وإن كانت تشرب النبيذ وتنشق السعوط . إنها امرأة رائعة ، فالزمها ولا تدعها أبدا .

ودفعنى إلى الأرض ، فذهبت إلى الحوش حزينا مروعا . ولحق بى فانيوشكا وهمس عند مدخل البيت وهمس بلطف :

ـــ لا يساورك الخوف منه . إنه رجل طيب ، وسدد النظر إليه ، فهو يحب ذلك .

كان الأمر غريبا مؤلما . وكنت لا أكاد أعرف حياة غير حياة بيتنا ، ولكنى تذكرت تذكرا مبهما أن أبى وأمى لم تكن حياتهما على هذا النحو ، فقد كانت لهما طريقة أخرى فى الكلام ، وفكرة أخرى عن السعادة . لقد كانا يسيران معاً ، ويجلسان متلاصقين . وكانا فى الأماسى يضحكان معاً كثيرا ولفترة طويلة ، وهما جالسان عند النافذة ، يغنيان بأعلى صوت ، وكان الناس يجتمعون فى الشارع وينظرون إليهما . وكانت وجوه هؤلاء الناس وقد رفعوا أبصارهم إلى أعلى ، تذكرنى تذكيرا مضحكا بالأطباق القذرة بعد الغداء . أما هنا ، فقلما يضحك الناس ، وهم حين يضحكون لا يصعب على المرء أن يحزر ما يضحكهم وكثيرا ما يحتدم بينهم الغضب ، ويتهدد الواحد منهم الآخر خفية فى الأركان ، والأطفال مقهورون مهملون . وقد شعرت بنفسى غريبا فى البيت ، ولم تكن ظروف وجودى فيه غير سلسلة من الطعنات تدفعنى إلى الشك وتفرض على أن أفحص ما يدور حولى بعناية فائقة .

خطت صداقتى لتسيجانوك خطوات واسعة . كانت جدتى تشغل بأمور المنزل من الشروق إلى وقت متأخر من الليل ، وكنت أظل قرب تسيجانوك النهار كله تقريبا ، وظل يضع يده تحت العود حين يضربنى جدى ، ثم يشكو إلى فى اليوم التالى وهـــو يكشف عن أصابعه المنتفخة :

ـــ لا معنى لهذا ! إنه لا يخفف عنك شيئا ، وانظر ما يصيبنى منه . أنا لن أطيق ذلك مرة أخرى .

ولكنه فى المرة التالية يعود فيؤذى نفسه دون حاجة كما فعل فى المرة الأولى ، فأقول :

ـــ ولكنى ظننت أنك تنوى ألا تفعلها ثانية .

ـــ أنا لم أقصد إلى ذلك ، ولكنه حدث على نحو ما . لقد فعلتها دون تفكير .

ولقد علمت بعد هذا شيئا عن تسيجانوك ، زاد شغفى به وحبى له .

كان يوم الجمعة يسرج فى الزلاقة حصان جدتى الكميت الخصى المدلل ، وهو حيوان ماكر شكس جميل . ثم يرتدى سترة الفراء التى تصل إلى ركبتيه ، وقبعته الثقيلة ، ويضيق حزامه الأخضر ، ويذهب إلى السوق لشراء المئونة . وكانت غيبته تطول أحيانا حتى ليقلق عليه أهل البيت جميعا . ولا تمر دقيقة حتى يندفع واحد إلى النافذة ، وينفخ فى الزجاج بأنفاسه حتى يذيب الثلج ، ويصعد نظره فى الطريق :

ـــ ألم يبد النظر بعد ؟

ـــ كلا .

وكانت جدتى دائما أكثر من غيرها اهتماما ، فتصيح فى ابنها وفى جدى :

— وا أسفا ! لقد قضيتم على الرجل والحصان معا . عجبا ، كيف لا تخجلون من أنفسكم أيتها المخلوقات التى لا ضمير لها . آخ . يا أسرة الحمقى ، يا سكيرون ، سيعاقبكم الله على هذا .

فيصرخ جدى عابسا :

— كفى . هذه آخر مرة .

وتأخر تسيجانوك مرة حتى الظهيرة ، فخف خالاى وجدى للقائه ، وهرولت جدتى وراءهم كالدب ، وهى تصر على أنشق السعوط إذ كان الوقت وقت تناوله . . . وهرع الأطفال ، ثم بدأ تفريغ الزلاقة فى سرور . وكانت مليئة بلحم الخنزير والطيور المذبوحة وقطع كبيرة من أنواع اللحم المختلفة . وسأل جدى وهو يسبر الحمل بنظرة شزراء من عينيه الحادتين :

— هل اشتريت كل ما طلبناه إليك ؟

فأجاب إيفان فى مرح وهو يتواثب فى الحوش ويضرب قفازيه كفا بكف ليدفأ :

— أجل كل شيء حسن .

قال جدى فى حزم :

— لا تبل قفازيك ، إنهما ثمينان ، أبقيت نقود ؟

— كلا .

فدار جدى حول العجلة وقال فى صوت خفيض :

— لقد أسرفت فى الشراء هذه المرة أيضا . على أنك لا تستطيع ذلك بغير نقود . أتستطيع ؟ لن أسمح بهذا بعد الآن . وابتعد مزمجرا .

وأخذ خالاى يفرغان الحمل فى مرح ، ويصفران وهما يزنان على أيديهما الطيور والأسماك وأحشاء الأوز ، وأطراف العجول . وقطع اللحم المختلفة .

وصاحوا بارتياح :

— حسنا . لقد انتهى التفريغ سريعاً .

واستبد جنون الفرح بخالى ميخائيل بخاصة ، فكان يثب حول الحمل ، ويتشمم الطيور ويلعق شفتيه متلذذاً ، ويغمض عينيه منتشياً . وكان يشبه أباه ، فقده أعجف مثله ، ولكنه كان أطول ، وكان شعره فاحما سأل تسيجانوك وهو يمسح يديه المثلوجتين فى أكمامه :

— كم أعطاك أبى ؟

ـــ خمسة روبلات .

ـــ أن ما هنا يساوى خمسة عشر روبلا ! كم أنفقت ؟

ـــ أربعة روبلات وعشرة كوبكات .

ـــ لعل التسعين كوبكا الباقية فى جيبك. أما لحظت يا ياكوف كيف تعم النقود المكان .

وكان خالى يا كوف واقفا فى الصقيع بالقميص فضحك بهدوء وهو يطرف فى الضوء الأزرق البارد .

سأل متكاسلا :

ـــ معك نبيذ لنا يافانكا ، أليس كذلك ؟

وكانت جدتى إذ ذاك تفك سرج الحصان قائلة :

ـــ ياصغيرى ! ياطفلى المدلل ! ياألعوبتى !

وكان سارايا الكبير يهز معرفته ، ويعض كتفها بأسنانه البيضاء ، ويدس أنفه الناعم فى شعرها ويحدق فى وجهها بعينين قانعتين ، ويُحَمْحِم وهو يزيح الصقيع عن أهدابه .

ـــ آه ، تريد خبزاً .

ودفعت فى حلقه كسرة كبيرة مملحة وأمسكت بمئزرها كأنه مخلاة تحت أنفه ، وراحت تتأمله باهتمام وهو يأكل .

ووثب تسيجانوك إلى جانبها وكان هو نفسه كالمهر فى ميله إلى اللعب وقال :

ـــ ياله من جواد أصيل ياجدة ! وياالذكائه !

فصاحت جدتى وهى تدق الأرض بقدمها :

ـــ إذهب ! لا تحاول أن تخدعنى ! أنت تعلم أنك لا تروقنى اليوم .

وقد بينت لى فيما بعد أن تسيجانوك لم يشتر من السوق بقدر ما سرق قالت فى حزن :

ـــ إذا أعطاه جدك خمسة روبلات ، أنفق ثلاثة وسرق ما قيمته ثلاثة روبلات . إنه يجد لذة فى السرقة . إنه كالطفل المدلل . وقد حاول مرة وأفلح ، وقوبل عمله بالضحك ، وأثنى عليه لنجاحه ، وهكذا اعتاد السرقة . إن جدك الذى ذاق خبز الفاقة فى شبابه حتى سئمه ، قد غدا فى شيخوخته شرها ، وأصبح المال أحب إليه من دم أبنائه ، إنه ليسر حتى بهدية ! أما ميخائيل وياكوف ...

وأشارت بازدراء ، وصمتت لحظة ، ثم مضت تقول شاكية وهى تحدق فى غطاء علبة النشوق المغلقة :

— ولكن هناك يا لينيا امرأة عمياء تعمل عملها . . . اسمها الحظ . . . وهى تغزل لنا ولا تسمح لنا حتى باختيار النقوش . . . لا فائدة ! إذا قبضوا على إيفــان وهو يسرق فسيضربونه حتى يموت .

ثم عادت تقول بعد لحظة أخرى من الصمت :

— آه . إن لدينا مبادىء كثيرة ، ولكننا لا نطبقها .

وفى اليوم التالى رجوت فانكا ألا يعاود السرقة . قلت :

— فإذا فعلت ضربوك حتى الموت .

فقال ضاحكا :

— إنهم لن يؤذونى . . فسرعان ما أتخلص من قبضتهم . إن لى قوة الفرس الحرون .

ولكن وجهه لم يلبث أن تجهم قال :

— لا شك أنى أعتقد أن السرقة خطأ وخطر . وأنا أرتكبها . . حتى أدخل السرور على نفسى لأنى ضجر . وأنا لا أدخر شيئا من النقود ، فإن خاليك يستوليان عليها جميعا قبل أن ينقضى الأسبوع . ولكن ذلك لا يهمنى ! ليأخذاها . فإن لدى أكثر من الكفاية .

وفجأة أخذنى فى ذراعيه وهزنى فى رفق قائلا :

— ستصبح رجلا قويا ، فإننى خفيف ضامر الخلق . لم لا تتعلم الضرب على القيثار ؟ سل خالك ياكوف ذلك ! ولكنك لم تزل صغيرا ، وا أسفاه . أنت صغير ولكن لك سجيتك الخاصة .. أنت لا تحب جدتك كثيرا ، أتحبها ؟

— لا أدرى .

— أنا لا أحب من آل كاشيرين أحدا غير جدتك . فليحبهم الشيطان !

— وأنا ؟

— أنت ؟ لست من آل كاشيرين بل من آل بيشكوف . . . وذاك دم آخر . . . نسب مختلف تماما .

وفجأة شد على بعنف وهو يكاد ينوح :

— آه . لو أن لى صوتا يصلح للغناء ! رباه إذن لهززت العالم ! . . . اجر الآن يا فتى . . . يجب أن أمضى فى عملى . . .

ووضعنى على الأرض ، وملأ فمه بحفنة من المسامير وبدأ يفرش ويدق قطعا رطبة من قماش أسود على لوحة كبيرة .

وسرعان ما حلت نهايته بعد هذا بقليل . وتلك هي :

كان في الفناء صليب كبير من البلوط ذو ذراعين ضخمين معقدين ، يستند على حاجز قرب الباب . وقد مر عليه في مكانه وقت طويل ، وكنت لاحظته منذ أوائل أيامي بالمنزل، حين كان أصفر جديدا ، ولكنه أسود الآن من أثر أمطار الخريف ، وأصبحت له رائحة البلوط الذي نزع لحاؤه ، وكان يعترض الطريق في الفناء المزدحم القذر .

اشتراه خالي ياكوف ليضعه على قبر زوجته ، ونذر أن يحمله على ذراعيه إلى المقبرة يوم ذكرى وفاتها ، وهو أحد السبوت من أوائل الشتاء .

وكان اليوم يوم صقيع وريح وقد تساقط فيه الجليد أيضا . وكان جدي وجدتي قد ذهبا مع أحفادهما الثلاثة إلى المقبرة مبكرين ليسمعوا القداس ، وتركت في المنزل عقابا لي على بعض الذنوب .

ورفع خالاي ـ وكان كلاهما يرتدي سترة فراء سوداء قصيرة ـ رفعا الصليب عن الأرض ، ووقفا تحت ذراعيه ، ورفع جريجوري وبعض الرجال الغرباء الكتل الضخمة جاهدين ، ووضعوا الصليب على كتفي تسيجانوك العريضتين فترنح وبدا أن رجليه تخونانه . سأل جريجوري :

ـ أتقوى على حمله ؟

ـ لا أدري . إنه يبدو ثقيلا .

فصاح خالي ميخائيل غاضبا :

ـ أفتح الباب أيها الشيطان الأعمى !

وقال خالي ياكوف :

ـ يجب أن تخجل من نفسك يافانكا ، فأنت أقوى منا نحن الاثنين مجتمعين .

ولكن جريجوري راح ينصح إيفان وهو يفتح الباب قائلا :

ـ حاذر أن تتداعى ! اذهب وليكن الله في عونك .

وصاح خالي ميخائيل من الشارع :

ـ أيها الأحمق الأصلع !

وفي ذلك الحين أخذ من في الفناء جميعاً يضجون بالضحك ويرفعون أصواتهم في الكلام كأنما سرهم أن يتخلصوا من الصليب .

وأخذ جريجورى أفانوفتش يدى وقادنى إلى المصبغة وهو يقول برفق :
— قد لا يجلدك جدك اليوم والحالة هذه .

وأجلسنى على كومة من الصوف معدة للصباغة ، وهو يلفها حولى بعناية حتى كتفى ثم قال باهتمام وهو ينشق البخار المتصاعد من الأحواض :

— لقد عرفت جدك ياعزيزى سبعة وثلاثين عاما ، ورأيت عمله فى بدئه وسأرى خاتمته . كنا إذ ذاك صديقين ، الواقع أننا بدأنا العمل ورسمنا خطته معا ، إن جدك رجل ذكى ، وقد بيت النية على أن يكون السيد ، ولكننى لم أكن أعرف ذلك على أية حال الله أعلم منا جميعاً . والبسمة منه تجعل أحكم الناس يطرف كالأبله . أنت لا تستطيع الآن أن تفهم كل ما يقال ولكن ينبغى أن تحاول فهم كل شىء إن حياة اليتيم شاقة وقد كان أبوك مكسيم سافا تيفتش صديقا وفيا . وكان على حظ كبير من العلم أيضاً . ولذلك كرهه جدك ، وقطع صلته به .

شاقنى أن أصغى إلى هذه الكلمات الرقيقة ، وأن أرقب ألسنة اللهب الحمراء والذهبية تتراقص فى الموقدة ، والسحابة البيضاء التى تصعد من الأحواض ، وتنعقد كفرجة رزقاء قاتمة ، على ألواح السقف المائلة التى تظهر السماء من بين شقوقها المفرجة كقطع من شريط أزرق . وكانت الريح قد سكنت ، وبدا الفناء كأنما فرش بنثار الزجاج ، وكان الزلاجات صرير حاد وهى تمر فى الشارع ، وتصاعد من مداخن البيت دخان ازرق ، وتراءت على الجليد ظلال هائمة . . . تقص هى أيضا قصة .

كان جريجورى الناحل الطويل الساقين الملتحى الحاسر الرأس ، الكبير الأذنين ، كأنه ساحر ساذج وهو يقلب الصبغ المغلى ، ويعلمنى أثناء ذلك :
— سدد النظر فى عينى من تخاطبه . وإذا هاجمك كلب ، فافعل ذلك أيضا ، ينصرف عنك .

وكان منظاره يثقل قنطرة أنفه الذى أزرقت أرنبته مثل جدتى ، والسبب عينه . صاح فجأة وهو ينصت :

— ما هذا ؟

ثم أغلق باب الموقدة بقدمه ، وجرى ، أو لعله حجل ، عبر الحوش واندفعت وراءه . كان تسيجانوك راقدا وسط المطبخ ، ووجهه إلى أعلى ، وشعاعات الضوء تسقط من النافذة تلتقى على رأسه وصدره وقدميه . كانت جبهته تلمع لمعانا غريبا ، وقد ارتفع حاجباه

وحدقت عيناه الحولاوان بشدة فى السقف المسود ، وكان الزبد الدامى يرغى من شفتيه الباهتين ، اللتين كان الدم ينساب من زاويتيهما على خديه ورقبته ويسيل إلى الأرض وكان يجرى من تحت ظهره أيضاً نهر غليظ من الدم . وتمددت ساقاه فى أعوجاج ، وكان واضحا أن سرواله مبلل ، إذ لزج بالألواح التى كانت قد صقلت بالرمل ولمعت كالشمس. وتقاطعت غدران الدم مع حزم الأشعة فتوهجت وهى تنحدر صوب العتبة .

وكان تسيجانوك بلا حراك ، غير خدش أصابعه للأرض . وهو ملقى ويداه إلى جانبه وكانت أظافره الملوثة تتألق فى ضوء الشمس .

وكانت نيانيا بوجينيا جاثية بجواره تضع فى يده شمعة ، ولكنه لم يستطع أن يقبض عليها ، فسقطت على الأرض ، وانطمات الذبالة فى الدم . فالتقطتها نيانيا بوجينيا ومسحتها وحاولت من جديد أن تضعها فى تلك الأصابع المضطربة . وسمع فى المطبخ همس ضعيف وبدا لى أنه يعصف بى بعيداً عن الباب كأنه الريح . ولكنى تشبثت بقائمته .

كان خالى ياكوف يشرح الأمر بصوت لا لون له . وهو يرتعد ويتلفت :

— لقد عثر .

وكان وجهه ممتقعا شاحبا . وقد زاغ بصره ، وظل يطرف :

— وقع وسقط الصليب فوقه ... فأصابه فى ظهره . ولو لم نخل الصليب فى أوانه لأوذينا نحن أيضاً .

فقال جريجورى بجفاء :

— هذه فعلتك .

— ولكن كيف ؟

— أنت فعلتها .

وكان الدم يسيل فى هذه الأثناء . وقد أجتمع قرب الباب فى بركة تزيد قتاما وعمقا ونزف الزبد الدامى ثانية ، وندت عن تسيجانوك حشرجة كانما كان يحلم ؛ ثم تداعى وبدأ كانه ينبسط وينبسط فيلصق بالأرض . أو يغوص فيها .

وهمس خالى ياكوف :

— لقد ذهب ميخائيل إلى الكنيسة راكبا ليحضر الأب . وقد أحضرته هنا فى عربة

باسرع ما استطعت . من حظى أن لم أكن واقفا تحت ذراعى الصليب . وإلا لرقدت الآن مثله .

ووضعت نيانيا يوجينيا الشمعة مرة أخـــرى فى يد تسيجانوك . والشمع والدمع يقطران فى راحته .

فقال جريجورى فى غلظة وعنف :

ـــ هذا حسن ! ألصق رأسه بالأرض أيتها المهملة .

ـــ ماذا تعنى ! .

ـــ لم لا تنزعين قبعته ؟ .

فنزعت نيانيا يوجينيا القبعة عن رأسه فصدم الأرض بصوت أصم . ثم مال جانبا واندفق الدم من أحد شدقيه وحده ، ولبث هذا فترة رهيبة الطول . توقعت أول الأمر أن يجلس تسيجانوك على الأرض متنهدا ويقول ناعسا : أ ف . ما أشد الحر . كما اعتاد أن يفعل أيام الآحاد بعد الغداء .

ولكنه لم ينهض بل بدا ، على العكس ، يسوخ فى الأرض . وكان ضوء الشمس قد انحسر عنه الآن ، وقصرت أشعته الضاحية ، ولم تعد تسقط إلا على أسكفة النافذة . واقتم جسمه ، وكفت أصابعه عن الحركة ، واختفى الزبد من شفتيه . وبرزت حول رأسه فى الظلام شموع ثلاث تحقق لهبها الذهبى ، وتنير شعره الأشعث الفاحم ، وتلقى على خده الأسمر ومضات صفراء راجفة ، وتضىء طرف أنفه الأشم ، وأسنانه المظللة بالدم .

وكانت نيانيا يوجينيا جاثية بجانبه تذرف الدمع وتلثغ قائلة :

ـــ يا حمامتى الصغيرة ! يا طير سلواى !

وكان البرد مؤلما ، فزحفت تحت المائدة ، واختفيت هناك ثم جاء جدى إلى المطبخ مندفعا وعليه سترة فراء الرقون ، وجاءت معه جدتى وعليها عباءة ياقتها من الفراء ، وخالى والأطفال ، وناس كثيرون لا ينتمون إلى المنزل .

صاح جدى وهو يلق سترته على الأرض :

ـــ يا أوغاد انظروا ماجنيتم على بإهمالكم . إنه ليساوى وزنه ذهباً بعد خمسة أعوام ؛ لا شك فى ذلك .

وعاقتنى السترات الملقاة على الأرض من أن أرى إيفان ، فزحفت واصطدمت بساق جدى ، فدفعنى جانبا ، وهو يلوح بقبضته الحمراء الصغيرة مهددا خالى :

— يا ذئبان .

وجلس على مقعد ، وأراح عليه يديه ، وأجهش بالبكاء ، وقال فى صوت حاد :

— أنا أعلم كل ما هناك . . . لقد كان شجاً فى حلقكما . هذا ما هناك .

آه يا فانيوشكا أيها الأحمق المسكين . ماذا فعلا بك ! « إن اللجام البالى يصلح لحصان الغريب » يا أماه ! إن الله لم يحبنا هذه السنة . هل فعل يا أماه ؟ !

وكانت جدتى متربعة فى جلستها تتحسس يدى إيفان وصدره ، وتداعب أنفاسها عينيه ، وقد أمسكت بيديه وراحت تفركهما . ثم ألقت الشموع جميعا على الأرض ، وانتصبت على قدميها جاهدة ، وقالت فى صوت خفيض ، وقد زادها ثوبها الأسود اللامع كآبة ، واتسعت حدقتاها اتساعا مخيفا :

— اذهبوا أيها اللعناء .

فدلف الجميع خارج المطبخ إلا جدى .

ودفن تسيجانوك فى غير جلبة ، وسرعان ما نسى .

الفصل الرابع

كنت راقدا فى فراش عريض ، وعلى ملحفة سميكة طويت أربع مرات ، وكنت أصغى إلى جدتى وهى تصلى . كانت جاثية على ركبتيها ، تضغط بإحدى يديها على صدرها ، وترسم بالأخرى الصليب خاشعة بين حين وحين . وقد اشتد الصقيع فى الحوش ، وراح نور القمر المخضر يطل من بين زخارف الثلج على زجاج النوافذ ، ويداعب وجه جدتى الرفيق وأنفها الكبير ، ويشب فى عينيها السوداوين ضوءا فسفوريا . وكان لخصلها الحريرية الكثة وهج كأنه من تنور ، ولثوبها الأسود حفيف وهو ينساب أمواجا من كتفيها ، وينتشر حولها على الأرض .

وحين أتمت جدتى صلاتها ، خلعت ملابسها فى صمت ، وطوتها بعناية ووضعتها فى صندوق بالركن . ثم أتت إلى السرير فتناومت . قالت برفق :

ــ لست نائما ، يا مكار ، وإنما تتناوم . هيا يا بطتى ، أعطنى طرفا من الغطاء !

تخيلت ما سيحدث ، ولم أستطع أن أكتم البسمة ، فلما رأت بسمتى صاحت :

ــ وإذن فكذلك تحتال على جدتك ؟

وقبضت على الملحفة ، وجذبتها نحوها بشدة وبراعة ، حتى وثبت فى الهواء ، وظللت أدور وأدور ثم هويت فصدمت فراش الريش اللين ، وقالت مستضحكة :

ــ ما بك يا قزم ؟ ألسعتك بعوضة ؟

ولكنها كانت تقضى أحيانا وقتا طويلا فى الصـــلاة ، فأنام حقا ، ولا أسمعها وهى تأتى إلى الفراش .

وكانت الصلوات الطويلة عادة خاتمة يوم عناء ، أو يوم نزاع وتضارب ، وكان يشوقنى أن أصغى إليها . كانت جدتى تحدث الله بوصف مفصل لما حدث فى المنزل . فتنحنى كأنها ربوة كبيرة ، وتجثو هامسة أول الأمر فى سرعة وفى غير وضوح ثم تدمدم بصوت أبح :

ــ رباه ! أنت تعلم أننا جميعا نريد أن نفعل ماهو خير . كان ينبغى أن يشتغل ميخائيل ، الأكبر ، فى المدينة فإن عمله فى النهر يؤذيه . أما المدينة فبيئة جديدة والعمل فيها لا يرهق . لست أدرى ما ينجم عن هذا كله ؟ ثم هناك الأب ، أنه يصطفى ياكوف . أمن الحق أن يحب أحد الأبناء أكثر من غيره ؟ إن الأب شيخ عنيد ، فأهده أيها الرب .

وتشير على الله وهى تحدق فى الأيقونة القاتمة القسمات بعينيها البراقتين ، قائلة :

— رباه ! إنزل عليه حلما طيبا يفهمه كيف ينبغى أن يعامل أبناءه .

ثم تنهض ثانية بعد أن تسجد وتلصق جبهتها العريضة بالأرض ، وتقول ضارعة :

— وأبعث لفارفارا شيئاً من السعادة . كيف أغضبتك ؟ أهى أفظع خطيئة من غيرها ؟ لم تذل هكذا امرأة شابه صحيحة ؟ رباه ، واذكر جريجورى ! إن عينيه لتسوءان يوما بعد يوم إنه إذا عمى تشرد . ما أفظع ذلك ! لقد استنفد قواه فى سبيل الجد ، ولكن أتظن الجد يساعده رباه . رباه .

وتصمت برهة طويلة ، منكسة رأسها حالمة ، ويداها إلى جانبها ، وهى ساكنة كأنها نامت أو جمدت فجأة . ثم تسأل نفسها بصوت عال وهى تقطب حاجبيها :

— وماذا هناك بعد ؟ رباه . أنقذ المؤمنين جميعا . اغفر لى ـ أنا الحمقاء الملعونة . أنت تدرى أنى لا أخطىء عن خبث ولكن عن غباء .

ثم تقول مترددة قانعة وهى تتنفس تنفسا عميقا :

— أيها الابن أنت تعلم كل شىء ! أيها الأب أنت ترى كل شىء !

وكنت شديد الولع بإله جدتى هذا الذى يبدو قريبا منها ذلك القرب ، وكثيرا ماقلت :

— حدثينى بشىء عن الله .

وقد اعتادت أن تتحدث عنه بطريقة خاصة ـ فى هدوء تام ، وتمط الكلمات مطا غريبا . وتغمض عينيها ، وتعنى دائما قبل أن تبدأ الحديث بأن تجلس وتسوى منديل رأسها باعتناء :

— إن عرش الله على الجبال ، بين مروج الفردوس . إنه نوع من الياقوت الأزرق تحت أشجار التيليا الفضيه التى تزهر طول العام ، إذ ليس فى الفردوس شتاء ولا خريف ، والأزهار لا تذوى أبدا لأن الحبور هو الهبة الإلهيه . وتطير حول الله ملائكة كثيرة كأنها شظايا الجليد ، بل ربما طنت النحل هناك . وتسبح الحمائم البيض بين السماء والأرض فتحدث الله بخبرنا وبأخبار غيرنا . وهنا على الأرض قد أعطى كل منا ـ أنا وأنت وحدك ـ ملاكا . والله يسوى بيننا جميعا فى المعاملة ، فمثلا : يذهب ملاكك فيقول لله : « إن ألكسى أخرج لسانه لجده » . فيقول الله : « حسنا ، دع الشيخ يجلده . » وكذلك الأمر معنا جميعا . إن الله يعطى الجميع ما يستحقون ـ الحزن لقوم ، والسرور لآخرين . وهكذا فكل ما يفعله حق ، وتفرح الملائكة ، وتنشر أجنحتها وتغنى له دائما : « المجد لك . رباه . المجد لك . » ولا يعدو أن يبسم لهم والبسمة تكفيهم ـ وتزيد . »

ثم تبسم هى أيضا وهى تهز رأسها يمنه ويسرة . وتقول :

ـــ أرأيت ذلك ؟

ـــ كلا ، لم أره ، ولكنى أعلم .

كان يبدو كأنها تنكمش حين تتحدث عن الله أو عن السماء ، ويعرو الشباب وجهها ، وينبعث من عينيها الصافيتين ألق دافىء غريب . وكنت أقبض على ضفيرتها بيدى ، وألفها حول رقبتى ، وأنا صامت أصغى إلى قصتها التى لا تنتهى ولكنها لا تسئم .

ـــ ما كان للناس أن يروا الله ـ إنهم ضعاف البصر ! وليس يراه وجها لوجه غير القديسين ، ولكنى رأيت الملائكة بنفسى ، فإنها تتكشف أحيانا للنفوس المشرقة ، ولقد كنت واقفة فى الكنيسة فى صلاة باكرة . ورأيت اثنين فيها يحومان حول المذبح كالسحاب . وكان كل شىء يبدو بفضلهما أوضح وأوضح ، وقد مست أجنحتهما العنكبوتية الأرض . كانا يطوفان بالمذبح ، يساعدان الأب إيليا الشيخ ، ويسندان مرفقيه حتى يرفع ذراعيه الواهنتين للصلاة . كان طاعن السن ، وكان لإشرافه على العمى كثيرا ما يعثر ، ولكنه فى ذلك اليوم أدى الصلاة بسرعة ، وانتهى مبكرا . حين رأيتهما كدت أموت فرحا . وكاد قلبى ينفجر ، وسالت دموعى . آه . ما كان أجمل ذلك ! أوه يالينكا ياقلبى العزيز ، الخير حيث يكون الله فى السماء أو فى الأرض .

ـــ ولكن أتراك تقولين إن كل شىء بخير هنا ـــ فى منزلنا ؟

فأجابت جدتى وهى ترسم الصليب :

ـــ حمداً للعذراء ، كل شىء بخير .

فغاظنى هذا ، إذ لم أكن أستطيع أن أقر أن كل شىء بخير فى أسرتنا ، بل كنت أرى أن حياتنا يصعب احتمالها على الأيام .

وذات يوم كنت أمر بباب غرفة خالى ميخائل ، فرأيت خالتى ناتاليا ، غير مستكملة لباسها ، ويداها معقودتان على صدرها ، وهى تذرع الغرفة كحيوان محرج ، وتئن بصوت غير عال ولكن فيه نبرة عذاب :

ـــ رباه . اشملنى برعايتك . أبعدنى عن هذا المكان .

وكنت أستطيع أن أعطف على دعائها ، كما كنت أستطيع أن أفهم جريجورى حين يدمدم :

ـــ سرعان مايقذفون بى إلى الشحاذة حين يتم عماى . ولكن ذلك خير لى على أية حال .

وكنت أريد أن يسرع بالعمى ، فقد انتويت أن أنتهز الفرصة وأرحل وإياه ، ونبدأ

في الشحاذة معا . وقد حدثت جريجورى بالأمر ، فأجابنى وهو يبتسم فى لحيته :

ـــ حسنا . سنذهب معاً . ولكنى سأقصد إلى المدينة فلفاسيلى كاشيرين حفيد هناك ، ابن ابنته ، وقد يجد لى عملا .

وقد لحظت غير مرة ورماً أزرق تحت عينى خالتى ناتاليا ، وكانت تبرز أحيانا فى وجهها الأصفر شفة متورمة . سألت جدتى :

ـــ أيضربها خالى ميخائيل إذن ؟

فكانت تجيبنى بزفرة :

ـــ أجل ، إنه يضربها ولكنه لا يقسو فى ذلك ـــ الشيطان ! والجد لا يعترض مادام يفعل ذلك فى الليل . إنه سيىء الخلق ، أماهى ، كالمرق .

وتمضى قائلة فى صوت أكثر انشراحاً :

ـــ ولكنه لم يعد يكثر من ضربها كما كان يفعل ، فهو لا يزيد أن يلطمها لطمة على فمها ، أو يلكمها لكمتين على أذنيها ، أو يجرها من شعرها على الأرض ، دقيقة أو نحوها . ولكن قد مر حين كان يضربها فيه ساعات بطولها . وقد ضربنى جدك فى أحد أعياد الفصح من وقت الغداء حتى وقت النوم . وظل يضربنى ولا يكف إلا ليستريح أحيانا ، ثم يعود من جديد . وكان يضرب بسير من الجلد أيضاً .

ـــ ولكن لم فعل ذلك ؟

ـــ نسيت السبب الآن ، وقد ضربنى مرة أخرى حتى كدت أموت . ثم تركنى بلا طعام خمس ساعات ، ولم يبق لى غير رمق حين كف عنى .

صعقت لذلك ، فقد كانت جدتى أضخم من جدى مرتين ، وكان من العسير على المرء أن يصدق أنه يستطيع قهرها على هذا النحو . سألت :

ـــ أهو أقوى منك إذن ؟

ـــ ليس أقوى بل أكبر سنا . ثم أنه زوجى ، وهو مسئول عنى أمام الله ولكن يجب على أن أتألم صابرة .

وكان منظرها شائقا سارا وهى تزيل الغبار عن الأيقونة ، وتنظف حلاها ، فقد كانت ثمة رأسها مزخرفة بالجواهر والفضة والدرر الملونة ، وكانت حين تأخذها فى يدها ، تحدق فيها باسمة ، وتقول فى نبرة جياشة :

ـــ أنظر يا لجمال وجهها !

وتمضى قائلة وهى ترسم الصليب وتقبلها :

— أنت مغبرة وسخه يا أماه ، يا عون المسيحيين ، يا فرحة المصطفين . انظر يا لينيا ، يا حبيبى ، كيف صغرت الكتابة ودقت الأحرف ، وهى مع ذلك واضحة ، إنها تسمى « الأيام المقدسة الاثنا عشر » وفى الوسط ترى الأم العظيمة البتول وهنا قد كتب : « لا تحزنى على يا أماه ، لأنى أوشك أن أوضع فى القبر » .

وكان يبدو لى أحيانا أنها تلعب بالأيقونة فى اهتمام وجد كما تلعب ابنة خالى ايكا ترينا بدميتها .

وكانت كثيرا ما ترى العفاريت ، فحيناً ترى جماعة منها ، وحينا ترى واحدا .

— فى ليلة قمراء صافية أثناء الصيام الكبير ، كنت مارة ببيت رودلفوف . وحين نظرت إلى أعلى رأيت عفريتا يجلس بجوار المدخنة ! كان أسود فاحما ، قد أسند رأسه الأقرن إلى قمة المدخنة ، وراح ينشق بقوة . هناك جلس ذلك الكائن الضخم ينشق وينخر وذيله على السقف ، وهو لا يفتأ يحك الأرض بقدمه . رسمت الصليب أمامه وقلت « لقد بعث المسيح من بين الموتى ، وتشتت أعداؤه . » فصرخ لذلك صرخة ضعيفة ، وانحدر رأسا على عقب من فوق السقف إلى الفناء — وكذلك تشتت هو ! لابد أنهم كانوا يطهون لحما فى بيت رودلفوف ذلك اليوم ، وكان هو يستمتع برائحته .

فضحكت لصورة العفريت يقع من السقف رأسا على عقب ، وضحكت هى أيضا قائلة:

— إنهم ليغرمون بالمزاح كالأطفال ، كنت أغسل مرة فى المغسل وتأخر على الوقت ، وبغتة إنفتح باب الغرفة الصغيرة ، وإندفعت إلى الداخل جماعات من كائنات حمراء وخضراء وسوداء مثل الخنافس ذات أحجام مختلفة ، وإنتشرت فى المكان كله . فاندفعت نحو الباب ولكنى لم أستطع أن أجده فوقفت هناك لا أستطيع أن أستدير ، وزحفت على قدمى ، وراحت تجذب ثوبى واحتشدت حولى حتى لم أعد أستطيع أن أرسم الصليب ، وأخذت تطيف بى شعثاء ملساء دافئة كأنها القطط ، وإن كانت تمشى على رجليها الخلفيتين ، وأخذت توصوص فى كل شىء وتكشف عن أسنانها كالفيران وتطرف بأعينها الصغيرة الخضراء ، وتكاد تخترقنى بقرونها ، وتبصبص بأذنابها الصغيرة التى كانت كأذناب الخنازير . أوه ياعزيزى لقد خيل لى أنى أجن ! ثم ألم تكن تدفعنى ؟ وقد كادت الشمعة تخبو وفتر الماء ونثر الغسيل كله على الأرض . آه ، لقد كنت أتنفس الضيق والحزن .

كنت أستطيع أن أرى — وأنا مغمضة العينين — عتبة الغرفة الصغيرة بأحجارها الكبيرة الشهباء ، والسيل القذر من الكائنات الشعثاء المختلفة الألوان التى راحت تملأ المغسل.

كنت أستطيع أن أراها تطفيء الشمعة ، وتخرج ألسنتها الحمراء الوقحة؛ كانت صورة مضحكة مخيفة فى آن .

وصمتت جدتى لحظة وهزت رأسها قبل أن تفيض من جديد :

— وقد رأيت أيضاً بعض الشياطين فى ليلة شاتية يتساقط فيها الجليد . كنت أعبر سد ديوتوف — وهو إن كنت تذكر — المكان الذى حاول فيه خالك ميخائيل وخالك ياكوف أن يغرقا أباك فى حفرة ثلجية وكدت أنتقل إلى الطريق السفلى فسمعت لحيحا ونعيباً ، ورفعت بصرى فرأيت ثلاثة خيول دهماء تنهب الأرض نحوى ، وكان يقف فى مكان الحوذى شيطان ضخم سمين ، على رأسه قلنسوة حمراء ، وأسنانه بارزة . وكان يقبض على أعنة من سلاسل حديدية ، وذراعاه ممدودتان أمامه وإذ لم تكن هناك طريق حول البركة فقد إندفعت الخيل عبرها ، واختفت فى سحابة من الجليد . وكان الجالسون فى مؤخر الزلاقة شياطين كذلك وكانوا يصفرون ويصرخون ويلوحون بقلانسهم . ومرت بى سبع عجلات كهذه ، كأنها عربات الحريق تجرها كلها خيول دهماء ، وتحمل كل منها حملا من الشياطين الأصيلة ، إنها تتزاور فيما بينها ، كما تعلم ، وتقصد فى الليل إلى حفلاتها المختلفة وإخال ماوأينا ، كان عرسا لأحد الشياطين .

كان المرء يضطر إلى تصديق جدتى . فقد كان كلامها رائع البساطة والإقناع .

ولكن خير قصصها كانت تلك التى تصف طواف العذراء بالأرض المعذبة ، وكيف أمرت أنجا ليشيف قاطعة الطريق أو زعيمة الفارسات بألا تقتل أو تسلب الشعب الروسى .

ويلى هذه قصص عن أليكس المبارك ، وإيفان المحارب وفاسيلى الحكيم والعتسيس كوزليا وإبن الله المحبوب والأقاصيص المفزعة عن مارتا يوزادننش ، وبابا استويه شيخ اللصوص ومارية الخاطئة المصرية والأمهات الحزانى على أبنائهن السراق . كان ماتعرفه من الحكايات الخرافية وروايات الأزمان الخاليه والأشعار ، شيئاً لا يعد .

ولم تكن تخشى أحداً لا جدى ولا العفاريت ولا أية قوة من قوى الشر ؛ ولكنها كانت تفزع فزعاً شديداً من الخنافس السوداء وتحس وجودها وإن كانت بعيدة عنها توقظنى فى الليل أحياناً قائلة:

— أوليشا يا عزيزى ، هناك خنفس يدب . تخلص منه بالله .

فأوقد الشمعة — نصف نائم — وأزحف على الأرض باحثا عن العدو ، بحثا لم أكن أوفق فيه دائما على الفور . كنت أقول :

— كلا ، لا أثر لخنفس .

ولكنها تتوسل إلى بصوت ضعيف ، وقد رقدت هامدة ، ولفت رأسها بالأغطية .

— أوه . بل هناك واحد! عاود النظر، أرجوك . أنا واثقة من وجود واحد في مكان ما.

ولم تكن تخطيء قط ؛ فما ألبث بعد وقت يطول أو يقصر حتى أجد الخنفس على مسافة من السرير ، فتتنفس الصعداء ملقية عنها الغطاء ، وتبتسم قائلة :

— أقتلته ؟ شكرا لله . شكرا لك .

فإذا لم أوفق في الكشف عن الحشرة ، لم يعاودها النوم ثانية بل كنت أحس بها وهي ترتجف في سكون الليل ، وأسمعها تهمس لاهثة :

— إنه عند الباب . إنه زحف الآن تحت الصندوق .

— لم تفزعين من الخنافس هذا الفزع ؟

فترد على هذا الرد المعقول :

— أنا نفسي لا أدري . أنها طريقة دبيب هذه الحشرات السوداء الفظيعة . لقد جعل الله معنى لكل حشرة أخرى ، فقمل الخشب يدل على أن البيت رطب ، والبق معناه قذارة الجدران ، والقمل ينذر بالمرض كما يعلم كل أحد ، ولكن هذه الحشرات ! من يدري أية قوة لها ، وعلى أي شيء تعيش ؟ .

* * *

وذات يوم بينما كانت جاثية تحادث الله في حرارة . فتح جدي الباب على مصراعيه وصاح بصوت أجش :

— حسنا يا أماه ، إن الله يبتلينا من جديد . البيت يحترق .

فصرخت جدتي وهي تثب عن الأرض :

— ماذا تقول ؟

واندفعا كلاهما إلى القاعة الكبيرة ، وكان لأقدامها وقع صاخب . قالت :

— أنزلي الأيقونات يا يوجينيا . ألبسي الطفل يا ناتاليا .

وكانت جدتي تلقي الأوامر بصوت فيه صرامة السلطان ، أما جدي فلم يزد على أن يدمدم : أغ . . .

جريت إلى المطبخ . كانت النافذة المطلة على الفناء تتوهج كالذهب ، وقد ظهرت على الأرض رقع صفراء من الضوء وكان خالي ياكوف ـ وهو يرتدي ملابسه ـ يدوسها بقدميه الحافيتين ويتواثب كأنها تحرقه ، ويصرخ :

ـــ هذه فعلة ميشكا . لقد أشعل النار ثم ذهب .

قالت جدتى وهى تدفعه نحو الباب بعنف حتى كاد يسقط :

ـــ أسكت يا كلب .

كان سقف المصبغة المشتعل يبدو من خلال الصقيع على زجاج النوافذ ، واللهب المتلوى يتدفع عن الباب المفتوح . كانت ليلة هادئة ، ولم يكن يفسد لون اللهب دخان يخالطه ، على أنه قد حومت فوقه سحابة داكنة ، وإن لم تحجب عن نظرنا طريق ملتشنا الفضى . كان الجليد يلمع ببريق أزرق ، وكانت جدران المنزل ترتج وتهتز من جانب إلى جانب ، كأنها توشك أن تلقى بنفسها فى ذلك الركن المستقل من الفناء ، حيث تتراقص ألسنة اللهب فى مرح وهى تندفع من الشقوق الحمراء العريضة فى جدران المصبغة ، وتدفع معها المسامير الملوية الملتهبة . وأخذت ألسنة النار الذهبية الحمراء تلتف بعروق السقف ، وسرعان ما غطته كله ، وانتصبت وسط هذا كله المدخنة الضيقة تقذف سحائب الدخان .

وكانت تطرق نوافذنا قرقعة رقيقة كأنها حفيف الحرير ، وكانت الألسنة تنتشر حتى بدت المصبغة فى ذلك الزخرف ، كأنها جدار الأيقونات فى الكنيسة ، فشاقنى ذلك كثيرا .

هرعت إلى المدخل ، وقد ألقيت على رأسى سترة فراء ثقيلة ، ودسست قدمى فى أول حذاء لقيته ، ووقفت على الدرج ، فخبلنى وأعمانى تلاعب الضوء البديع ، وبهرتنى صيحات جدى وخالى وجريجورى وأزعجنى مسلك جدتى إذ لفت حول رأسها زكيبة فارغة ، وتدثرت بغطاء حصان ، واندفعت نحو اللهب ، واختفت صائحة :

ـــ الزاج أيها الحمقى ! سينفجر .

فزأر جدى :

ـــ امنعها يا جريجورى . آه . قضى عليها . . .

ولكن جدتى ظهرت من جديد فى تلك اللحظة ، مسودة بالدخان ، شبه خائرة ، مكبة على زجاجة زيت الزاج التى كانت تحملها فى يديها الممدودتين .

صاحت بصوت أبح وهى تسعل وتتفل :

ـــ أخرج الحصان يا أبتاه ! ارفع هذا الشىء عن كتفى . ألا ترى أنه يحترق !

فنزع جريجورى عن كتفيها الغطاء الداخن ، ثم راح بجهد رجلين ، يسحو أكوام الجليد داخل باب المصبغة . وكان خالى يثب حوله ، وفى يده فأس ، على حين دار جدى حول جدتى

يلقى عليها الجليد . ثم وضعت جدتى الزجاجة فى كومة ثلج ، وهرعت إلى البوابة حيث اجتمع أناس كثيرون ، وبعد أن حيتهم قالت :

ـــ أنقذوا المخزن يا جيرتنا . سنحترق إذا علقت النار بالمخزن والمتبنة ، وستمتد إلى دوركم . اذهبوا واقتلعوا السقف واسحبوا التبن إلى الفناء ! لم لا تقذف يا جريجورى بعض الجليد على السقف بدلا من إلقائه كله على الأرض ؟ والآن يا يا كوف لا تضع الوقت كله فى الكلام . أعط لهؤلاء الأخيار بعض الفئوس والمساحى . كونوا يا جيرتنا الأعزاء أصدقاء مخلصين أثابكم الله .

كانت تشوقنى بقدر ما شاقتنى النار . وأضاءها ذلك اللهيب الذى كاد يلتهمها وهى تطوف بالحوش ـــ سوداء تبذل العون كله ، وتدبر الأمر كله ، ولا يفوتها شىء .

وجرى شارابا إلى الحوش وهو يشب وينحى جدتى ويكاد يلقيها على الأرض. وقد سقط الضوء على عينيه الكبيرتين اللامعتين الناطقتين ، وثقلت أنفاسه وهو يرفع رجليه فى الهواء فخلى جدى العنان ووثب جانبا يصيح :

ـــ أقبضى عليه يا أماه .

فكادت جدتى تلقى بنفسها تحت أرجل الحصان الذى يشب ، ووقفت أمامه . وقد مدت يديها وخالفت بينهما كأنهما صليب ، فحمحم الحصان فى ذلة ، ودنا منها وهو يحيد عن ألسنة اللهب . قالت جدتى فى صوت خفيض وهى تربت على رقبته وتمسك بالعنان :

ـــ أنت الآن غير خائف . أتظن أنى أتركك وأنت فى مثل هذه الحالة ؟ أوه . أيها الفأر الصغير الأحمق !

وسار معها « الفأر » الصغير الذى كان يكبرها مرتين إلى البوابة خاضعا ، وهو ينشق ويحدق فى وجهها الأحمر .

وكانت ثيانيا يوجينيا قد أتت ببعض الشبان المقنعين فكانوا يصيحون من المنزل بأصوات مختنقة . صاحت :

ـــ إننا لا نجد أليكسى ، يافا سيلى فاسيليتش .

فأجابت جدى ملوحا بيديه :

ـــ اذهبى . اذهبى .

وأخفيت نفسى تحت الدرج حتى لا تذهب بى ثيانيا .

وفى ذلك الوقت كان سقف المصبغة قد سقط ، وشخصت العمد فى الفضاء واضحة متوهجة كأنها الفحم الذهبى . وهب إلى داخل البناء إعصار أخضر أزرق أحمر فى ولولة وصخب ، فاشتد هبوب اللهيب على الحوش وعلى الناس الذين احتشدوا وراحوا يسحون الجليد على الحريق الهائل .

وقد جعلت الحرارة الأمواج تغلى بشدة ، وصعدت سحابة كثيفة من البخار والدخان وانتشرت إلى الحوش رائحة غريبة تدمع لها الأعين ، وانسللت من تحت الدرج وصرت تحت قدمى جدتى ، صرخت :

ـــ ابتعد . ستداس . ابتعد .

وفى هذه اللحظة اندفع إلى الحوش رجل يركب جوادا ، وعلى رأسه خوذة من النحاس . وكان الزبد يغطى فرسه الكميت ، وكان يلوح فوق رأسه بسوط ، ويصيح مهددا :

ـــ افسحوا الطريق .

ودقت الأجراس سريعة مرحة ، فكان ذلك جميلا كيوم عيد . دفعتنى جدتى نحو الدرج :

ـــ ماذا قلت لك ؟ ابتعد .

ولم أكن أستطيع أن أعصيها فى مثل ذلك الوقت فعدت إلى المطبخ ، ولزمت النافذة من جديد ، ولكنى ما كنت أستطيع أن ألمح النار بين ذلك الحشد الكثيف من الناس — بل لم أر شيئاً سوى لمعان الخوذ النحاسية بين قبعات الفرو الشتائية .

وبعد وقت قصير أحيط بالنار ، وأخمدت تماما وأغرق البناء بالماء . ونحى رجال الشرطة المتفرجين ، وجاءت جدتى إلى المطبخ . قالت :

ـــ من هذا ؟ أوه . أنت . لم لم تذهب إلى الفراش ؟ خائف . هه ؟ لا شىء هناك يخيف لقد انتهى كل شىء .

وجلست بجانبى صامتة تهتز قليلا . وكان فى عودة الليل الهادىء وظلامه راحة . وبعد قليل أتى جدى وقال وهو واقف بالعتبة :

ـــ أماه ؟

ـــ نعم ؟

ـــ هل تحرقت ؟

ـــ قليلا ـ شيئا لا يذكر .

وأشعل ثقابا ، أضاء وجهه الملوث بالنئور ، وبحث عن الشمعة فوجدها على المائدة ، ثم أسرع وجلس بجانب جدتى ، قالت :

— خير ما نستطيع أن نفعله هو أن نغتسل .

فقد كانت هى أيضا مغطاة بالنئور ، ، تنبعث منها رائحة الدخان الحريف .

قال جدى مصعدا أنفاسه :

— يشارك الله أحيانا أن يحبوك برجاحة العقل — ثم مسح على كتفها وأضاف وهو يبسم عن نواجذه — أحيانا فقط ، لساعة أو نحوها ، ولكنه يفعل ذلك على أية حال .

فابتسمت جدتى أيضا ، وبدأت تقول شيئاً ، ولكن جدى قطع كلامها عابسا . قال :

— ينبغى أن نتخلص من جريجورى ، فهذا العناء كله نتيجة إهماله . إنه لم يعد يصلح للعمل . لقد بلى إن ذلك الأحمق ياشكا جالس على الدرج يبكى ، خير لك أن تذهبى إليه .

فوقفت وخرجت وقد رفعت يدها إلى وجهها ، وراحت تنفخ أصابعها ، وسألنى جدى بلطف دون أن ينظر إلى :

— لقد رأيت كل شىء منذ بداية الحريق ، أليس كذلك ؟ إذن فقد رأيت ما فعلته جدتك . أليس كذلك ؟ ولا تنس أنها امرأة عجوز محطمة متداعية ، ومع ذلك . . أ غ ، أنت !

وبعد فترة صمت طويلة جلس فى خلالها محتبيا ، نهض وأطفأ الشمعة ، وسألنى :

— أكنت فزعا ؟

— كان .

— حسن جدا ! لم يكن هناك ما يفزع .

وذهب إلى المغسل فى الركن ، وهو ينزع القميص عن كتفه جاهدا ، وكنت أستطيع أن أسمعه يقول فى الظلام وهو يدق الأرض بقدميه :

— الحريق عمل أحمق ، والشخص الذى يشعله خليق بأن يجلد فى السوق . فهو إما مجنون أو لص . وإذا حدث ذلك انتفت الحرائق . اذهب الآن ، وآو إلى فراشك . ماذا يبقيك جالسا هناك ؟

فصدعت بالأمر ، ولكنى حرمت النوم تلك الليلة . فما استلقيت حتى استقبلتنى صيحة غير أرضية ، بدالى أنها صادرة من السرير . فهرولت راجعا إلى المطبخ حيث كان جدى واقفا فى وسطه بغير قميص ، قابضا على شمعة يرتجف لهبها بشدة ، وهو يدق الأرض بقدمه ويصيح :

ـ أماه ! يا كوف! ما هذا ؟ . . .

فوثبت على الموقدة ، واختفيت فى ركن ، واضطرب كل من فى البيت اضطرابا شديداً مرة أخرى ، وصاحت السقف والجدران صرخة شاكية : تزداد علوا كل لحظة .

كان كل شىء كما عهدأثناء الحريق . فكان جدى وخالى يهرولان دون غاية . وجدتى تصيح وهى تدفعهما من مكان إلى مكان ، وأحدث جريجورى ضجة وهو يلقى كتل الخشب فى الموقدة ، ويملأ الغلاية الحديدية بالماء . وكان يدور بالغرفة وهو يهز رأسه كأنه حمل استراخانى . قالت جدتى فى نبرة آمرة :

ـــ أشعل الموقدة أولا .

فاندفع ينفذ أمرها ، ووقع على رجلى . صاح منزعجا :

ـــ من هناك ؟ أف ! لقد أفزعتنى . إنك دائما حيث لاينبغى أن تكون .

ـــ ماذا حدث ؟

فأجاب فى هدوء وهو يثب إلى الأرض :

ـ ولد لخالتك ناتاليا طفل صغير .

فخطر لى أن أمى لم تصرخ هذا الصراخ حين ولد طفلها .

وحين وضع جريجورى الغلاية على النار . صعد إلى على الموقدة ، وسحب من جيبه غليونا طويلا ، وأرانى إياه مفسرا :

ـــ أنا أدخن الغليون حرصا على عينى . وقد نصحتنى الجدة أن أنشق السعوط ، ولكنى أظن التدخين أجدى على .

وتربع فى جلسته على حافة الموقدة ، وهو ينظر إلى ضوء الشمعة الضعيف وقد لوث النشور أذنيه وخديه ، وكان أحد جانبى قميصه ممزقا ، فكنت أستطيع أن أرى ضلوعه ـــ عريضة مثل ألواح البرميل . وكانت إحدى زجاجتى منظاره مكسورة ، قد سقط نصفها تقريبا من الإطار ، وأطلت من الموضع الفارغ عين حمراء دامعة كانت تشبه الجرح .

وأخذ يصغى إلى أنات المرأة الماخض ، وهو يملأ غليونه بطباقه الخشن ، ويهمس بكلمات متقطعة مثل رجل سكران :

ـــ لقد حرقت جدتك نفسها تحريقا فما أدرى كيف نستطيع رعاية تلك المسكينة . أسمع كيف تئن خالتك . لقد غفلوا عن أمرها ، وأفزعها اشتعال النار ، وهذا من أثر الفزع

أترى الألم فى ولادة الأطفال ، ومع ذلك فلا أحد يهتم بالنساء ! ولكن - واذكر قولى - ينبغى أن نهتم كثيرا بالنساء ، لأنهن الأمهات . . .

وهنا نعست ثم صحوت على جلبة ! أبواب تغلق بعنف ، وصيحات مخمورة لخالى ميخائيل وهفت إلى مسمعى هذه الكلمات الغريبة : يجب أن تفتح الأبواب الملكية .

ـــ أعطوها الزيت المقدس مع الروم ، نصف كوب من الزيت ، ونصف كوب من الروم ، وملعقة من النشور . . .

ثم ظل خالى ميخائيل يسأل كالطفل المتعب :

ـــ دعونى أنظر إليها نظرة .

وكان جالسا على الأرض ورجلاه منفرجتان ، وهو يبصق أمامه ، ويدق بيديه ـــ ولم أعد أحتمل حرارة الموقدة فانزلقت ، ولكنى صرت إزاء خالى ، قبض على برجليه وأمسكنى فوقعت على مؤخر رأسى . صحت :

ـــ أحمق !

فانتصب واقفا ، وأمسك بى ثانية ، وهدر :

ـــ سأحطمك على الموقدة .

فهرهت إلى ركن من القاعة تحت الأيقونة وتشبثت بركبتى جدى ، فنحانى جانبا ، وحدق إلى أعلى ومضى يقول فى صوت خفيض :

ـــ لا عذر لأحد منا .

كان قنديل الأيقونة يتوهج فوق رأسه ، وكان على المائدة التى فى وسط الغرفة شمعة ، وكان يطل من النافذة ضوء صباح شتائى مضب .

وبعد برهة ، انحنى جدى على وسأل :

ـــ ماذا بك ؟

كان بى كل شىء - كان رأسى مصدوعا ، وجسمى ينهكه التعب ، ولكنى لم أشأ أن أقول ذلك لأن كل شىء حولى كان شديد الغرابة . فقد كان هناك أناس غرباء يشغلون جل ما فى الغرفة من كراسى ، وكان هناك قسيس يرتدى ثوبا بنفسجيا ، ورجل أشيب ذو منظار ، يلبس كسوة عسكرية ، وأناس كثيرون كلهم صامت كأنهم تماثيل من الخشب ، أو أجسام تجمدت وهى تتوقع شيئا ، وتنصت إلى رشاش الماء فى مكان قريب . وكان خالى ياكوف واقفا بجانب الباب منتصب القامة ، ويداه وراء ظهره . قال له جدى :

— أسمع . اذهب بهذا الصبي إلى الفراش .

فأشار إلى خالى أن أتبعه ، وصار أمامى على أطراف أصابعه إلى باب غرفة جدتى ، وحين رقدت فى الفراش همس :

— لقد ماتت خالتك ناتاليا .

فلم يدهشنى أن أسمع ذلك ، فقد مر وقت طويل وهى لا ترى فى المطبخ أو فى أوقات الطعام . سألت :

— أين جدتى ؟

فأجابنى ملوحاً بيده :

— هناك .

وخرج من الغرفة وهو لا يزال يمشى برفق على قدميه الحافيتين .

استلقيت على السرير أنظر حولى ، فخيل إلى أنى أبصر أمام زجاج النافذة وجوها شعرة شمطاء عمياء ، وبدا لى — وإن كنت أعلم جيداً أنها ملابس جدتى المعلقة على الصندوق فى الركن — أن فيها كائنا حيا يختبئ وينتظر . فوضعت رأسى تحت الوسادة ، وتركت إحدى عينى مكشوفة حتى أستطيع أن أنظر إلى الباب ، ووددت لو أجسر على الوثوب من الفراش والهرب من الغرفة . وكان الحر شديدا ، وفى الجو رائحة خانقة ثقيلة ، ذكرتنى بالليلة التى مات فيها تسجانوك وبنهر الدم الجارى على الأرض .

بدا لى أن فى رأسى أو قلبى شيئا ينتفخ ، وأن كل ما رأيت فى ذلك المنزل مشخص أمام باصرتى ، كقطار من زلاقات الشتاء فى الطريق ، وانه يرتفع ويسحقنى .

وفتح الباب ببطء شديد ، ودلفت جدتى إلى الغرفة ، فأغلقت الباب بكتفها وتقدمت متأنية ، ورفعت يدها إلى ضوء قنديل الأيقونة الأزرق وهى تنتحب مثل الطفل فى ضعف وذلة:

— أوه ، يا يدى الصغيرة المسكينة . كم تؤلمنى يدى المسكينة !

الفصل الخامس

ولم يمض وقت طويل حتى بدأ كابوس آخر . فذات مساء حين أنتهينا من الشاى ، وجلست أنا وجدى نقرأ المزامير ، ورواحت جدتى تغسل الأكواب والصحون ، اقتحم خالى ياكوف الغرفة ، أشعث كعهده دائما ، وفيه شبه غريب بمكنسة منزلية . وألقى قبعته فى ركن دون أن يحيينا ، وبدأ يقول بسرعة ويشير إشارات مضطربة :

— إن ميشكا يحدث ضجة لا دعى لها ، فقد تغدى معى ، وأسرف فى الشراب ، وظهرت عليه علائم بينة للجنون ، فكسر الآنية ، ومزق ثوبا أتممناه منذ لحظة — وكان ثوبا صوفيا — وحطم النوافذ ، وسبنى أنا وجريجورى ، وهو الآن قادم إلى هنا يتوعدك إنه لا يزال يردد :

— سأنتف لحية أبى ! سأقتله ! وإذن فحذار .

فنهض جدى مستأنيا وهو يستند بيديه على المائدة ، وكان شديد القطوب ، وقد بدا أن وجهه يجف ويضيق ويقسو مثل الفأس . صرخ :

— أتسمعين هذا يا أماه ؟ رأيك . هه ؟ أبننا قادم ليقتل أباه ! ولكن هذا هو الأوان ، هذا هو الأوان يا أولادى !

وعبر الغرفة إلى الباب ، وقد أقام كتفيه ، وعلق بحدة مشبك الباب الحديدى الثقيل فى عروته ، والتفت إلى خالى ياكوف ثانية ، وقال :

— وهذا كله لأنكما تريدان الحصول على بائنة فارفارا . هذا كل شىء .

وضحك فى وجه خالى ياكوف ساخرا ، فسأل هذا مستاء :

— ماذا أريد أنا منها ؟

— أنت ؟ أنا أعرفك .

وكانت جدتى صامتة وهى تسرع بوضع الأكواب والصحون فى الصوان . صاح جدى وهو يضحك بمرارة :

— حسن . جميل . أشكرك يا بنى . أماه أعطى هذا الثعلب عصا أو حديدة إذا شئت . والآن ياياكوف فاسيليييف ، حين يقتحم أخوك الباب ، اقتله أمام عينى .

فوضع خالى ياكوف يديه فى جيبيه ، وانحاز إلى ركن .

ــ طبعا . إذا لم تصدقنى ...

فصاح جدى وهو يدق الأرض بقدميه :

ــ أصدقك ؟ كلا إنى لأصدق حيوانا ـ كلبا ، بل قنفذا ، ولكنى لا أثق بك . أنا أعرفك جيدا . لقد أسكرته ، وألقيت إليه أوامرك . حسن جــدا . ماذا تنتظر ؟ اقتلنى الآن ، اقتلنى أو اقتله ولك الخيار !

فهمست جدتى برفق فى أذنى :

ــ اجر إلى فوق ، وانظر من النافذة ، وحين ترى خالك ميخائيل قادما فى الشارع أسرع وأخبرنا . أذهب الآن ! أسرع !

كنت فزعا بعض الشىء من الهجوم المرهوب لخالى الصاخبين ، وإن داخلتنى الكبرياء للثقة التى وضعت فى ـ وأنا أطل من النافذة المشرفة على الطريق اللاحب الذى تغطيه طبقة كثيفة من الغبار لا تكاد تظهر من بينها أحجاره الكبيرة الخشنة . وكان الطريق يمتد إلى اليسار مسافة طويلة ويقطع الجسر ويجوزه إلى ميدان أوسترجينى ، حيث يشمخ على التربة الجيرية بناء رمادى ، يعلو كل ركن من أركانه الأربعة برج ـ ذاك هو السجن القديم الذى كان يوحى بجمال كئيب . وعلى اليمين بعد منازل ثلاثة تقريبا كان هناك منفذ إلى ميدان ـ يناء الذى أنشىء حول بيت موظفى السجن الأصفر . وثم برج الحريق الرمادى ، تدرر حول مرقبه شخوص الحراس كأنها كلاب مقيدة . وكان الميدان كله منقطعا عن الجسر ـ ففى نهايته دغل أخضر ، وإلى أقصى اليمين منه بركة ديوكا الراكدة التى ألقى فيها خالاى ـ على ماروته جدتى ـ بأبى ـ ات شتاء قصد إغراقه . وكان إزاء نوافذنا تقريبا ، زقاق ضيق به منازل صغيرة مختلطة الألوان يؤدى إلى كنيسة « الرسل الثلاثة » المرطوبة القميئة . وكنت إذا سددت إليها النظر بدا لك سقفها كزورق قلب رأسا على عقب ، فوق أمواج حديقتها الخضراء . وكان الغبار يغطي بيوت شارعنا الحائلة التى شوهتها العواصف الثلجية فى شتاء طويل . وكان يبدو أنها تتلاحظ بأعين ناعسة ، كالشحاذين فى رواق الكنيسة ، وكانت مثلى تتوقع شخصا ، وقد علقت الريبة بنوافذها المفتوحة .

وكان فى الطريق أناس قليلون يمشون فى تراخ ، مثل الخنافس الجادة على وجاق حار . وكان يلفحنى حر خانق ، وتبهظنى رائحة الفطير والجزر والبصل المطهوة الكريهة ـ رائحة طالما أشعرتنى بالكآبة .

كنت شقيا شقاء مضحكا لا يحتمل ! كأن صدري ملىء برصاص ساخن يضغطه من داخل ويتخلل ضلوعي . خلتني أنتفخ بالهواء كالأنبوب ولكن هأنذا أضغط في تلك الغرفة الصغيرة ، تحت سقف له شكل التابوت .

وكان هناك خالي ميخائيل يبص من الزقاق عند منعطف البيوت الرماديه ، ويحاول أن يغطي بقبعته أذنيه ، ولكنهما تنفران كل مرة . كان يرتدي سترة بنية وحذاء طويلا تراكم عليه الغبار ، وقد وضع إحدى يديه في سرواله المربع ، وراح يجذب لحيته بالأخرى . ولم أكن أستطيع أن أرى وجهه ، ولكنه كان يقف وكأنه يتأهب ليندفع عبر الشارع فيقبض بيديه الخشنتين السوداوين على بيت جدي . كان ينبغي أن أهبط فأنبئ بمجيئه ، ولكني لم أستطع أن أنتزع نفسي من النافذة ، فانتظرت حتى رأيت خالي ينفض الغبار عن حذائه الرمادي كما لو كان خائفا ، ثم يعبر الطريق . وقد سمعت باب الحانة يصر وهو يفتحه ، وألواح زجاجه تخشخش ، قبل أن أجري إلى أسفل وأدق باب جدتي . سألني جدي بخشونة ، ولم يحاول أن يفتح لي :

— من هذا ؟ أوه ، أنت ! حسنا ، ماذا هناك ؟

— لقد دخل الحانة .

— حسن . اذهب .

— ولكني خائف فوق .

— لا حيلة لي في ذلك .

فركنت إلى النافذة مرة أخرى . وكان الظلام يهبط ، والغبار يتكاثف على الجادة . ويميل إلى السواد ؛ وكان يئز من النوافذ المجاورة أقباس من الضوء الأصفر ، ويأتي من البيت المقابل نغمات من الموسيقى تلعب على أدوات كثيرة الأوتار . . . نغمات حزينة لكنها مطربة وكان في الحانه غناء أيضا ، فإذا انفتح الباب رف في الشارع رجع صوت ضعيف محطوم . عرفت فيه صوت الشحاذ الكسيح نيكتيو شكا ، وهو شيخ ملتح ، إحدى عينيه من زجاج والأخرى مطبقة دائما . كان يبدو حين يصطفق الباب أن أغنيته قطعت بنخاس .

وكثيرا ما كانت جدتي تحسد هذا الشحاذ ، وكانت بعد أن تصغي إلى أغانيه ، تقول متنهده :

— إن له لموهبة ! كم يحفظ من الأشعار إنها موهبة . تلك هي !

وكانت تدعوه أحيانا إلى الحوش ، فيجلس على الدرج ويغني ، أو يروي الحكايات ، وتجلس جدتي بجانبه وتصغي ، وتصيح مثل هذه الصيحة :

— أتمم . أتريد أن تقول إن العذراء زارت ريازين يوما ؟

فيجيبها بصوت خفيض مقنع :

— لقد حلت بكل مكان ، فى كل مقاطعة .

وكأن خمولا حالما خاتلا كان يصعد إلى من الشارع ، ويبهظ قلبى وعينى بثقله . وددت لو جاءت إلى جدتى ، أو حتى جدى . وتساءلت أى رجل كان أبى ، ليكرهه جدى وخالاى ذاك الكره ، وتذكره جدتى وجريجورى ونيانا يوجينيا هذا الذكر الطيب . وأين كانت أمى ؟ لقد زاد تفكيرى فيها على الأيام ، وأنى لأجعلها مركزا لكل الحكايات الخرافية والأساطير القديمة التى ترويها لى جدتى . وقد ضاعف احترامى لها أنها لم تشأ أن تعيش مع أسرتها ، وتخيلتها تعيش فى فندق على الجادة مع اللصوص الذين يترصدون المسافرين ، الأغنياء ، ويقتسمون الغنائم مع الشحاذين . أو لعلها تعيش فى غابة ، فى كهف طبعا ، مع اللصوص الأخيار ، تقوم لهم بشئون البيت ، وتعنى بذهبهم المسروق . أو لعلها تضرب فى الأرض تحصى كنوزها ، وتذهب مع أمنا العذراء كما ذهبت انجاليتشيت شيخة اللصوص فتقول لها كما قالت لشيخة اللصوص :

أيتها الأمة الراشدة ، لا تسرقى .
الذهب والفضة من كل كهف .
ولا تسلبى الأرض كنوزها جميعا .
ارضاء للذة جسمك الشره .

فتجيبها أمى بكلمات شيخة اللصوص .

غفرانك أيتها العذراء المباركة .
أنزلى السكينة على نفسى الخاطئة .
أنا لم آخذ الذهب لنفسى .
بل أسرق من أجل ولدى الصغير .

فتصفح عنها أمنا العذراء ، وهى سمحة كجدتى ، وتقول :

يا مايوشكا ، يا ماريوشكا ذات الدم التترى .
لقد وقفت من أجلك ، أيتها التعسة ، تحت الصليب .
أمضى فى رحلتك ، واحملى حملك .
وانثرى دموعك على الطريق الشاق .

ولكن لا تعرضى للشعب الروسى ـ رجاء .
ترصدى المغول فى الغابات .
أو اسلبى الكلموك سلعهم .

وحين ذكرت هذه القصة ، عشت فيها كأنها حلم . ثم صحوت على وقع عنيف وجلبة وصراخ فى أسفل ـ فى الأكواخ وفى الحوش ، فنظرت من النافذة ورأيت جدى وخالى ياكوف ، ومستخدما بالحانة هو مليان المضحك فتى البار ـ وكانوا يدفعون خالى ميخائيل من الباب الصغير إلى الشارع ، وهو يدفعهم بيديه ولكنهم كانوا يضربونه بأيديهم على ذراعيه وظهره ورقبته ، ثم أخذوا يركلونه ، وأخيرا مرق خلال الباب وارتمى على الشارع الترب وأغلق الباب ، وصر الزلاج والسقاطة ، ولم يبق من المعركة سوى قبعة مهينة ملقاة على العتبة ، وران السكون .

وبعد أن رقد خالى برهة ، تحامل على قدميه ، ممزقا مشعثا ، وتناول حجرا من الحجارة الكبيرة ، وقذفه على الباب فكان له صوت رنان كالذى تحدثه ضربة على قعر برميل . فتسلل من الحانة أشخاص يصيحون ويلعنون ويلوحون بعنف ، وأطلت الرءوس من نوافذ البيوت المجاورة ، وحفل الطريق بأناس يضحكون ويتحادثون بصوت عال . كان كل شىء كقصة تثير تطلع المرء ولكنها كانت فى الوقت عينه كريهة مليئة بالفظائع . وبغتة امحى كل شىء ، وخفتت الأصوات واختفى الجميع عن ناظرى .

* * *

جلست جدتى على صندوق بجوار الباب قابعة لا تند عنها حركة ، ولا تكاد تتنفس . فذهبت ووقفت بجانبها ، وربت على خديها الدافئين الناعمين ، ولكن لم يبد أنها أحست لمستى إذ راحت تغمغم مرة بعد أخرى فى صوت أجش :

ــ رباه ! هل نضب حنانك على وعلى أولادى ؟ إلهى ، رحماك .

* * *

لم يقم جدى ـ فيما يبدو ـ بذلك المنزل فى الشارع بوليفوى إلا منذ عام ـ من الربيع إلى الربيع ـ ولكن المنزل أصبحت له خلال تلك الفترة شهرة بغيضة . ففى كل أحد تقريبا يتراكض الصبيان أمام بابنا ويغنون مسرورين :

هناك نزاع جديد فى بيت آل كاشيرين !

كان خالى ميخائيل يظهر فى المساء عادة ، فيجعل البيت فى حالة حصار طوال الليل ، ويبث فى أهله جنون الرعب . وكان يصحبه أحيانا مساعدان او ثلاثة ـ متبطلون بغيضون من الطبقة

السفلى . كانوا ينسلون فى خفية من الجسر إلى الحديقة ، فإذا بلغوها أطلقوا العنان لنزوات السكارى ، فقطعوا شجيرات الخداش والكشمش وربما غزوا المغسل أحيانا ، فكسروا فيه كل ما يمكن أن يكسر - كراسى الغسيل ، والمقاعد ، والغلايات - وحطموا الموقدة ، وشقوا الأرضية ، وأسقطوا إطار الباب .

وكان جدى يقف بجوار النافذة عابسا أخرس ، ينصت إلى الضجة التى يحدثها أولئك الذين يحطمون ما يملك ، وتروح جدتى ، وكان شخصها لا يبين فى الظلام ، تدور فى الحوش وتصيح متوسلة :

— ميشكا ! ماذا يدور برأسك . ميشكا !

فكان يأتيها الجواب سيلا من الشتائم الروسية ، فظيعا كهذيان مجنون ، يقذفه ذلك الوحش الذى كان واضحا أنه لا يدرى معنى الكلمات التى يلقيها ، أولا يحس لها أثرا .

وكنت أعلم أنه لا ينبغى أن أجرى وراء جدتى فى مثل ذلك الوقت ، وكنت خائفا من البقاء وحدى ، ولذا هبطت إلى غرفة جدى ، ولكنه ما كاد يرانى حتى صاح :

— أخرج ! عليك اللعنة !

فصعدت إلى العلية ونظرت من نافذة السقف إلى الحوش والحديقة محاولا ألا تغيب جدتى عن نظرى . كنت أخشى أن يقتلوها ، فصرخت وناديتها ، فلم تأت إلى ، ولكن خالى السكران حين سمع صوتى ، سب أمى بلغة عنيفة بذيئة .

وفى إحدى هذه الأماسى كانت بجدى وعكة ، فأعول بحدة وهو يحرك جاهدا رأسه المعصوب بفوطة :

— ألهذا عشت ، وأثمت ، وكدست المال ؟ لولا العار والشنار لدعوت الشرطة وجعلتهم يأخذونهم أمام الحاكم غدا . ولكن يا للفضيحة ! أى آباء أولئك الذين يستعدون القانون على أبنائهم ؟ حسنا ، ليس أمامك أيها الرجل الشيخ ، إلا الإذعان !

وبغتة وثب من الفراش ، وذهب إلى النافذة يترنح . فأمسكت جدتى بذراعه سائلة :

— إلى أين أنت ذاهب ؟

قال وهو يلقف أنفاسه :

— أوقدى !

وحين أشعلت جدتى الشمعة ، أخذمنها الحامل ، وأدناه منه كما يقبض الجندى على بندقيته وصاح بصوت ساخر عال :

ـــ هيا ،ميشكا ! يالص الليل ! أيها الـكلب الأجرب الـكلب !

وفى هـذه اللحظة تهشم لوح الزجاج العلوى ، وسقط نصف آجرة على المائدة بجوار جدتى . فصرخ جدى فى هستيرية :

ـــ لم لا تحسن التصويب ؟

فأخذته جدتى فى ذراعيها ، كأنها تأخذنى ، وأعادته إلى الفراش ، وهى تردد فى ذعر مرة بعد أخرى :

ـــ ماذا يجول بخاطرك ؟ ماذا يجول بخاطرك ؟ سامحك الله ! أرى أنه سيختم هـذا بسيبريا ، ولـكنه فى جنونه لا يستطيع أن يدرك ما تعنيه سيبريا .

فحرك جدى رجليه غاضبا ، وقال فى صوت مختنق وهو يشهق :

ـــ دعوه يقتلنى .

وترامت من الخارج ولولة ووقع أقدام وصوت تشقيق جدران . فخطفت الآجرة من المائدة وجريت بها إلى النافذة ، ولـكن جدتى أمسكت بى ، ودفعتنى إلى ركن زاجرة :

ـــ أيها الشيطان الصغير !

وفى مرة أخرى جاء خالى مسلحا بهراوة ، وانسل إلى الدهليز بأن كسر الباب وهو واقف على قمة الدرج المظلم ، على أن جدى كان ينتظره والعصا فى يده ، ومعه اثنان من مستأجريه يحملان هراوتين ، وامرأة الفندقى متأهبة بنشابة فى يدها . وأتت جدتى فى رفق وراءهم ، وغمغمت فى رجاء حار :

ـــ دعونى أذهب إليه ! دعونى أكلمه كلمة !

وكان جدى واقفا ، وإحدى قدميه إلى الأمام ، مثل الرجل حامل الحربة فى الصورة المسماة « صيد الدب » وحين جرت جدتى إليه لم يقل شيئا ، بل نحاها بعيدا بحركة من مرفقه وقدمه . كان الأربعة جميعا على أهبة عظيمة ، وكان يضىء فوقهم على الحائط مصباح يلقى على وجوههم ضوءاً ناصعا راجفا . رأيت هذا كله من قمة الدرج ، وكنت أود طول الوقت لو أصعد بجدتى فتكون معى هناك .

وأنجز خالى كسر الباب بقوة ونجاح ، فانخلع من مكانه وكاد يند عن الرزة العليا ، وكانت السفلى قد انقصمت بصرير ناشز .

قال جدى لرفاقه بصوت يعيد ذاك الصرير :

ـــ عليكم بذراعيه وجليه ، ولـكن أرجو ألا تمسوا رأسه الأحمق .

وكان فى الحائط إلى جانب الباب نافذة صغيرة لا يستطيع أن ينفذ منها غير رأسك . وقد حطم خالى زجاجها فبدت والشظايا عالقة من حولها كأنها عين سوداء لإنسان . إلى هـذه النافذة ركضت جدتى ومدت يدها إلى الحوش ولوحت بها منذرة وهى تصيح :

ــ يا ميشكا ! اذهب بحق المسيح . سيقطعونك إربا إربا ، لتذهب ! فرماها بالوتد الذى كان فى يده ، ورأيت بوضوح شىء عريض يمر بالنافذة ويقع على يدها ، فسقطت جدتى عقب ذلك ولكنها ظلت تنادى وهى راقدة على ظهرها :

ــ ميشكا ! ميش . . . كا . اجر !

فصرخ جدى بصوت رهيب :

ــ أماه ، أين أنت ؟

تداعى الباب وفى إطاره الأسود ، وقف خالى ، ولكن ما مرت لحظة حتى كان قد ألقى السلالم مثل قطعة طين ضخمة تقذف من مسحاة .

وحملت زوجة الفندقى جدتى إلى غرفة جدى ، حيث تبعها بعد قليل وهو يسأل عابساً :

ــ هل رض لك عظم ؟

فأجابت جدتى دون أن تفتح عينيها :

ــ آه إنى لأخال كل عظم من عظامى مرضوضا . ماذا فعلتم ؟ ؟ ماذا فعلتم ؟ ؟

فصاح جدى بصرامة :

ــ تعقلى قليلا ! أتظنيننى حيوانا متوحشا ؟ إنه راقد فى العلية مقيد اليدين والقدمين ، وقد أمطرته بوابل من الماء . أنا أعترف بسوء ما فعلت ، ولكن من سبب العناء كله ؟

فأنت جدتى . وقال جدى وهو يجلس إلى جانبها على الفراش :

ــ لقد أرسلت فى طلب المجبر . فتجلدى حتى يحضر . إنهما يحطماننا يا أماه ، وفى أقصر وقت مستطاع .

ــ إذن اعطهما ما يطلبان .

ــ وماذا عن فارفارا ؟

وتناقشا فى الأمر وقتا طويلا ، تحدثت جدتى فى هــدوء وذلة ، وكان صوت جدى عاليا غاضبا .

ثم أتت امرأة عجوز ضئيلة الجسم حدباء ، ذات فم أهرت يمتد من أذن إلى أذن ، وكان فكها الأسفل يرتعش ، وفمها مفغورا كأنه فم سمكة ، وقد أطل على شفتها العليا أنف دقيق ولم يكن يرى لها عينان . كانت لا تكاد تنقل قدميها إذ تحتك عكازتاها بالأرض ، وكانت تحمل فى يدها صرة ترن ، بدا لى أنها تجلب الموت لجدتى ، فاندفعت نحوها وصرخت بكل قوتى :

ــ اذهبى .

فأمسك بى جدى فى غير تلطف ، وحملنى إلى العلية وقد بدا عليه غيظ شديد .

الفصل السادس

حين أتى الربيع افترق خالاى ، فبقى ياكوف فى المدينة ، واستقر ميخائيل عند النهر ، واشترى جدى منزلا كبيرا شائقا فى شارع بوليفوى ،فيه حانة بالطابق الأرضى ، وبه غرف مريحة تحت السقف ، وحديقة تنحدر إلى الجسر ليس فيها غير أشجار الصفصاف ذات لأغصان العارية النائتة كالشوك .

قال جدى وهو يغمز لى فى مرح حين صحبته بعد مشاهدة الحديقه على الطريق الزلق الأملس :

ــ تلك أعوادلك . سأبدأ بعد قليل أعلمك القراءة والكتابة ، فتكون الأعواد فى متناولى .

كان المنزل يغص بالسكان ، إلا الطابق العلوى حيث اتخذ جدى غرفة له ، ولاستقبال الزوار وحيث العلية التى نزلتها أنا وجدتى . وكانت نافذتها تطل على الطريق ، ويستطيع المرء أن يرى فى الأماسى والأعياد ـ إذا انحنى على الأسكفة ــ السكارى ينسلون من الحانة ويترنحون فى الطريق ، صائحين متعثرين ، وكانوا أحيانا يلقون فى الطريق كأنهم زكائب ، فيحاولون أن يرجعوا إلى الحانة ثانية ، ويغلق الباب ويصرف ، وتصر الرزات ، ثم يبدأ قتال . كم شاقنى أن أشرف على هذا كله .

وكان جدى يذهب كل صباح إلى مصبغتى ابنيه ، ويعود فى المساء متعبا محزونا مغيظا .

وكانت جدتى تطهو وتحيك وتدور فى المطبخ وحدائق الزهر ،مشغولة بهذا الشىء أوذاك طول النهار ، مثل نحلة ، هائلة يديرها سوط خفى ، وهى لا تنفك تنشق وتعطس وتمسح العرق عن وجهها قائلة :

ــ سعد حظك أيها العالم القديم الخير ! إحسنا ياحبيبى أوليشا ، أليست هذه حياة جميلة هادئة الآن ؟ هذا عملك يامليكة السماء ــ أن كل شىء تم بخير !

ولكنى لم أشاركها فكرتها عن الحياة الهادئة ، فقد كان سكان المنزل الآخرون لايزالون من الصباح إلى المساء يدخلون ويخرجون ويصعدون ويهبطون فى جلبة ، فيدلون بذلك على

حسن جيرتهم — لا يزالون معجلين ولكنهم يتأخرون ، ولا تنقطع لهم شكاة ، ولا يفتئون يصيحون : أكولينا إيفا نوفنا !

فتنشق أكولينا إيفا نوفنا ، اللطيفة دائما ، المهتمة بالجميع على السواء ، وتمسح بعناية أنفها وأصابعها فى منديل أحمر مربع قبل أن تجيب قائلة :

— لتتخلصى من القمل ياصديقتى ، يجب أن تكثرى من الاغتسال ، وتستحمى ببخار النعناع ، وإذا كان القمل تحت الجلد ، وجب أن تأخذى قدر ملعقة كبيرة من زيت الكزبرة النقى ، وملعقة صغيرة من الكبريت ، وثلاث نقاط من الزئبق — وتحركى هذه الأشياء سبع مرات بشقفة فى إناء من الفخار ، ثم استعملى المخلوط مرهما . ولكن اذكرى أنك إذا حركتها بملعقة من الخشب أو العظم فسيفسد الزئبق ، وإذا وضعت فيها ملعقة من الفضة أو النحاس فسيضرك استعمالها . .

وكانت تقول أحيانا بعد تأمل :

— خير لك أيتها المرأة الطيبة ، أن تذهبى إلى أزاف الكيميائى فى تشيور ، لأنى لا أدرى بم أنصح لك .

كانت تولد النساء ، وتسعى بالصلح فى نزاع الأسر وخصامها ، وتعالج أمراض الأطفال وترتل « لنحلم بسيدتنا » حتى تستظهرها النساء « جلبا للحظ » . وكانت لا تنى قط عن تقديم النصيحة فيما يتصل بتدبير المنزل .

« إن الخيار ليخبرك وحده بوقت تمليحه ، وحين تسقط الواحدة منه إلى القاع وتنبعث منها رائحة خاصة ، فذلك أوان أكلها . وتجب العناية الشديدة بالكفاس ، وهى لا تميل إلى الحلاوة ، فأغذيها من الزبيب الذى يمكن أن تضيفى إليه زولوتنيكا إلى كل جالونين ونصف . . خاثر اللبن يصنع بطرق مختلفة ، وهناك تبلى دونسكى وتبل جميا نسكى وتبل القفقاز . . . »

كنت طوال النهار أحوم حولها فى الحديقة وفى الحوش ، وأصحبها إلى منازل الجيران حيث تجلس الساعات تحتسى الشاى وتقص أنواع الأقاصيص . فكأنى أصبحت جزءا منها ولست أذكر فى هذه الفترة من حياتى شيئا أوضح من هذه العجوز النشيطة التى لم يكن يجهدها قط أن تفعل الخير .

وكانت أمى تظهر أحيانا لوقت قصير ، قادمة من مكان ما ، فتنظر إلينا جميعا ، مترفعة صارمة ، بعينيها الباردتين الشهلاوين اللتين كانتا كشمس الشتاء ، ثم لا تلبث أن تختفى من

جديد غير تاركة لنا شيئا نذكرها به .

سألت جدتى مرة :

— أأنت ساحرة ؟

فضحكت قائلة :

— حسنا ؟ أى فكرة تخطر لك بعد هذه ؟ — ولكنها مضت تقول مفكرة — كيف يمكن أن أكون ساحرة ؟ إن السحر علم شاق . وأنا لا أستطيع حتى القراءة والكتابة ، لاأعرف حتى الأبجدية . إن جدك دائب الشغف بالعلم ، ولكن سيدتنا لم تؤهلنى قط للدراسة .

ثم عرضت لى مرحلة أخرى من حياتها حين عادت تقول :

— لقد كنت مثلك يتيمة صغيرة : وكانت أمى امرأة فلاحة فقيرة — وكانت بها عاهة . أغواها أحد السادة ولما يبعد عهدها بالطفولة ، فألقت بنفسها من النافذة ذات ليلة ، خشية ماقد ينجم عن ذلك ، فكسرت ضلوعها وآذت كتفها حتى لقد ذوت يمناها — وهى أحوج ما تحتاج . . . وذوت معها صانعة وشى شهيرة . لم يروها أصحاب العمل بعد ذلك طبعا ، فطردوها ـ تكسب قوتها كما تستطيع . ولكن كيف يكسب المرء القوت دون يدين ؟ وإذن فقد كان عليها أن تستجدى ، أن تعيش على إحسان الآخرين ، ولكن الناس فى تلك الأيام ، كانوا أرحم وأغنى . . . وكان لنجارى بالاقانا شهيرة صانعات الوشى ، وكان الناس جميعا يحبون المظاهر .

وكنت أحيانا أقضى أنا وأمى الخريف والشتاء فى المدينة ولكن ما أن يلوح كبير الملائكة جبرئيل بسيفه ، فيطرد الشتاء ، ويلبس الأرض حلة الربيع ، حتى تبدأ رحلاتنا من جديد ذاهبين حيث تهدينا الأعين . وقد ذهبنا إلى موروم وأوريفيتز ، وساير نا الفولجا الأعلى ، ونهر أوكا الهادىء . وكان جميلا أن نجول فى الربيع والصيف حين تبسم الأرض كلها ، ويكون العشب كالمخمل ، وقد نثرت أمنا العذراء الأزهار فى الحقول ، ويبدا كل شىء يحمل الفرح إلى المرء ويخاطب قلبه دون حجاب . وإذا كنا على الجبال أحيانا ، أغمضت أمى عينيها الزرقاوين ، وراحت تغنى بصوت إن لم يكن قويا ، فقد كان صافيا كالجرس وكنت حين أصغى إليها يبدولى كل ما حولنا كأنه ينام نوما عميقا . آه . يعلم الله كم كان جميلا أن يحيا المرء فى تلك الأيام !

وحين بلغت التاسعة ، بدأت أمى تحس أنها ملومة إن ظلت تأخذنى معها لتشحذ . والواقع أنها بدأت تخجل من حياتنا ، ولذلك استقرت فى بالاخانا وراحت تطوف بالشوارع ، تستجدى

بيتا بيتا ، — وتجلس أيام الآحاد والأعياد فى رواق الكنيسة ، وأبقى أنا فى المنزل أتعلم صناعة الوشى . كنت تلميذة ناجحة لأنى كنت أتوق إلى معاونة أمى ، ولكن كان يبدو أحيانا أنى لا أتقدم خطوة ، وإذ ذاك كنت أبكى . وفى مدى عامين تعلمت الصناعة ، ولا تنس صغر سنى ، وطارت شهرتى فى المدينة . وكان الناس إذا أرادوا وشيا متقنا حقا ، قصدوا إلينا لأول وهلة .

— والآن يا أكولينا ، أدير مغازلك !

وكنت سعيدة جداً ... كانت تلك أياما فذة ، ولكن ذاك كان عمل أمى لا عملى طبعا ، فقد كانت هى التى علمتنى ، وإن لم يكن لها غير يد واحـــدة لا تنفع . . . ومعلم نابه خير من عشرة عمال .

وداخلتنى الكبرياء ، قلت لأمى : والآن يا أميمة يجب أن تقلعى عن الشحاذة لأنى أستطيع أن أكسب ما يفى بحاجتنا كلينا .

أجابتنى : لا شىء من هذا ! إن ما تكسبين يدخر لبائنتك ـ ولم يمض بعد هـذا وقت طويل حتى ظهر جدك ـ وكان شابا رائعا ـ لا يعدو الثانية والعشرين ، وهو مع ذلك ملاح حر . وكانت أمه قد وضعت عينها على منذ حين ، ورأتنى ماهرة ، ولعلها ظنتنى سهلة القيادة لأنى بنت شحاذة . ولكن ـ ! حسنا . لقد كانت امرأة ماكرة شريرة ، ولكن ما لنا ننبش هـــذا كله . . . ثم لماذا نذكر الأشرار من الناس ؟ إن الله يراهم ، ويرى كل ما يفعلون ، والشياطين تحبهم . »

وضحكت من قلبها ، مجعدة أنفها تجعيدا مضحكا ، بدا لى أن عينيها اللامعتين الساهمتين تلاطفانى بأبلغ مما تنطق به الكلمات .

* * *

وأذكر أمسية هادئة تناولت فيها الشاى مع جدتى بغرفة جدى . وكان متوعكا يجلس على فراشه غير مرتد ملابسه ، وقد لفت حول كتفيه فوطة كبيرة ، وهو يتصبب عرقا ، وأنفاسه ثقيلة متلاحقة وكانت عيناه الخضراوان غائمتين ، وكان وجهه منتفخا أزرق ، وقد اشتدت حمرة أذنيه الصغيرتين الدقيقتين ، وارتجفت يده ارتجافا مؤلما ، وهو يمدها ليتناول كوب الشاى . وكان لطيفا أيضا على غير عادته . سأل فى شقاوة الطفل المدلل .

— لم لم تعطينى شيئا من السكر ؟

فأجابت جدتى متلطفة حازمة :

ــ لقد وضعت فيه عسلا ، وهذا خير لك .

فصب الشاى الحار وهو يمص الهواء ، ويحدث فى حلقه صوتا كبطبطة البط .

قال :

ــ سأموت هذه المرة . . . سترين .

ــ لا تجزع . سأعنى بك .

ــ هذا حسن جدا ؛ ولكنى إن مت الآن ، فكأنى ما عشت قط . سينهار كل شىء .

ــ حسنا . لا تتكلم . ارقد هادئا .

فرق لحظة صامتا ، وقد أغمض عينيه ، وراح يلف عثنونه حول أصابعه ويتمطق بشفتيه الحائلتين ، وبغتة ، أنتفض كأن أحدا شكه بدبوس ، وبدأ يصرح بأفكاره قائلا :

ــ ينبغى أن يتزوج ياشكا وميشكا ثانية بأسرع مايستطاع . فأغلب الظن أن العلائق الجديدة تجدد حياتهما . ما رأيك ؟

وأخذ ينبش فى ذاكرته عن أسماء العرائس اللائقة فى المدينة .

ولكن جدتى لزمت الصمت وهى تشرب الشاى قدحا إثر قدح . وجلست أنا عند النافذة أنظر إلى سماء المساء فوق المدينة ، وهى تميل إلى الاحمرار شيئا فشيئا وتعكس الحمرة القانية على نوافذ المنازل المقابلة . وكان جدى قد حرمنى من الخروج إلى الحديقة والحوش عقابا لى على بعض الهفوات . وكانت الخنافس تتجمع فى الحديقة حول أشجار البتولا ، وهى تطن بأجنحتها ، وكان هناك صانع أقفاص يعمل فى حوش مجاور ، وبعض الناس يشحذ السكاكين غير بعيد . وكانت أصوات الأطفال الذين اختفوا وراء الشجيرات الكثيفة ، تتصاعد من الحديقة ومن الجسر . بدا لى كأن كل شىء يجذبنى ويمسك بى فى حين تغمر قلبى كآبة المساء .

وبغتة أخرج جدى كتابا جـــديدا من مكان ما ، وصفقه على راحته بشدة ، وناداني بصوت طروب .

ــ والآن ، تعال هنا أيها الوغد الصغير ! أجلس ! أترى هذه الأحرف ؟ هذا « آز » . قل بعدى « آز » ، « بوكى » ، « فيدى » . ما هذا الحرف ؟

ــ بوكى .

ــ صح . وما هذا ؟

ـــ فيبدى .

ـــ خطأ . هذا آز

ـــ أنظر إلى هذه ـ « جلاجول » ، « دوبرو » ، « يست » . ما هذا الحرف ؟

ـــ دوبرو .

ـــ صح . وهذا ؟

ـــ جلاجول .

ـــ حسن . وهذا ؟

ـــ آز .

فقالت جدتى :

ـــ أبتاه . أنت ترى أنه ينبغى لك أن ترقد صامتا .

ـــ أوه . لا تنزعجى . هذا عين ما يجب لى ، فهو يذود عنى الأفكار . أتمم يا لكسى !

وطوق رقبتى بذراعه الحارة الندية ، ونقر الأحرف على كتفى بأصابعه وكانت تنبعث منه رائحة خل نفاذة ، تخالطها ريح بصل مشوى ، فأحسست أنى أكاد أختنق . ولكنه استشاط غضبا ، وراح يزمجر ويزأر فى أذنى :

ـــ « زمليا » . « لودى » .

وكانت لى بالكلمات ألفة ، ولكن الأحرف الصقلبية لم تكن تناسبها . فقد كانت الـ « زمليا » تشبه الدودة ، و « جلاجول » مثل جريجورى المقوس الظهر ، و « يا » تشبهنى أنا وجدتى إذا وقفنا معا ، وبدا لى أن جدى يدخل فى أحرف الأبجدية كلها .

وقد سمعها لى مرة بعد أخرى ، وكان يسألنى عن أسماء الأحرف مرتبة أحيانا ، مخلوطة أحيانا ، ولا بد أن طبعه العنيف كان معديا ، فقد بدأت أنا أيضا أعرق وأصيح بأعلى صوتى — وكان ذلك يطربه طربا شديداً . ثم قبض على صدره وهو يسعل بعنف ، وألقى الكتاب جانبا وقد ضاقت أنفاسه ، وقال :

ـــ أتسمعين يا أماه كيف يصرخ ؟ لم تحدث هذه الضجة أيها المجنون الاستراخانى الصغير ؟ هى ؟

ـــ أنت من أحدث الضجة .

كان يلذ لى أن أنظر إذ ذاك إليه وإلى جدتى التى اعتمدت بمرفقيها على المائدة وأراحت خدها على يدها ، وهى تلاحظنا ، فضحكت بلطف وقالت :

ـــ احذرا ، وإلا انفجرتما ضحكا !

فقال جدى موضحا فى نبرة حانية :

ـــ أنا مهتاج لأنى مريض . ولكن ماذا بك أنت ؟

وقال لجدتى وهو يهز رأسه الندىّ :

ـــ لقد أخطأت تاتاليا المسكينة حين قالت إنه ضعيف الذاكرة : فذاكرته قوية والحمد لله. إنها كذاكرة الحصان . أتمم يا أفطس الأنف ! وأخيراً دفعنى من السرير مداعبا . قال :

ـــ هذا يكفى . لك أن تأخذ الكتاب . وغدا تسمع لى الأبجدية كلها دون خطأ ، فأعطيك خمسة كوبكات .

وحين مددت يدى لآخذ الكتاب ، جذبنى إليه وقال لى عابسا :

ـــ إن أمك تلك لا يعنيها ما يكون من أمرك يا فتاى .

فبادرت جدتى قائلة :

ـــ أوه يا أبتاه ، لم تفوه بمثل هذه الأشياء ؟

ـــ كان ينبغى ألا أقولها ، ولكن مشاعرى غلبتنى . أوه ، أى فتاة هى ، لتسلك طريق الضلالة .

ودفعنى بعيدا عنه فى خشونة قائلا :

ـــ أذهب الآن ! تستطيع أن تخرج ولكن لا إلى الشارع ، لا تفعل ذلك أذهب إلى الحوش أو الحـــديقة .

وكانت الحديقة تستهوينى استهواء خاصا . فما كنت أظهر هناك على الربوة ، حتى يأخذ الأطفال على الجسر فى قذفى بالأحجار فارد العدوان بهمة ؛ كانوا حين يروننى يصرخون وهم يبادرون إلى التسلح :

ـــ لقد أتى الأبله ! لنسلخه !

ولم يكن النبز يسوءنى إذ لم أكن أدرى ما يعنون « بالأبله » ولكنى كنت أحب أن أشعر أنى واحد فرد يحارب زمرة منهم ، وبخاصة حين كان يسرع بأعدائى إلى الهروب بين الشجيرات ، حجر حسن التصويب . كنا نخوض هذه المعارك دون حقد ، وكانت غالبا ما تنتهى دون أن يجرح أحد .

وتعلمت القراءة والكتابة فى يسر ، وزاد ماتحبونى به جدتى من عناية ، وندر على الأيام أن أجلد . وإن كنت أرى أنى أصبحت خليقا بالجلد عن ذى قبل . فقد كان تجاوزى

لحدود جدي وعصياني لأوامره ، يزيدان بزيادة عمري وقوتي . ولكنه لم يكن يعدو أن يعنفني أو يهز قبضته في وجهي . وإذا شئت فقل إني بدأت أظن أنه كان يضربني فيما مضى دون سبب ، وقد ذكرت له ذلك ، فرفع ذقني قليلا ، ونص وجهي نحوه ، وتمتم وهو يطرف :

ـــ . . . ماذا ؟

وأضاف مفترا :

ـــ يا كافر ! أتدري كم مرة يلزم ضربك ؟ من يعرف ذلك سواي ؟ أذهب !

ولكنه ما قال ذلك حتى أمسك بي من كتفي ، وسألني :

ـــ عجبا ، أي الاثنين أنت ـ أماكر أم ساذج ؟

ـــ لا أدري .

ـــ أنت لا تدري ! حسنا ، كن ماكرا فذلك خير ! إنما السذاجة غفلة . لا تنس أن الخراف ساذجة . كن . أذهب .

* * *

ولم يمض وقت طويل حتى كنت أستطيع أن أتهجى المزامير . وكنا على ذلك بعد شاي المساء عادة ، فيكون على أن أقرأ أحـــد المزامير . قرأت وأنا أصوب المؤشر على الصفحة :

ـــ ت . . . ب . . . ا . . . ر . . . ك . تبارك الرجل ـ أيعني ذلك خالي يا كوف ؟

فأجاب جدي وهو ينخر غاضبا :

ـــ سألطم أذنيك ، فتعلم من المبارك .

ولكني شعرت أنه إنما يتكلف الغضب ، لأن المقام يقتضي ذلك .

ولم أكن مخطئا ، فلم تمض لحظة حتى ظهر أنه قد نسى كل شيء عني وهو يتمتم :

ـــ نعم . نعم لقد كان الملك داود شديد الحقد ـ في اللعب ، وفي أغانيه ، وفي أمر بسالوم . آه ، يا ناظم الأغاني ، يا إمام اللغة ، يا هازل . كذلك كنت !

فتركت القراءة وأخذت أنظر إلى وجهه العابس الذاهل . خلت عينيه تنظران في أعماق وهما تطرفان قليلا ، وكان يتألق فيهما بريق حزين دافيء . ولكني كنت أدري أن تعبيرهما القاسي لا يلبث أن يغاودهما . وكان ينقر على المائدة بأصابعه النحيلة في تشنج ، وكانت أظافره الملوثة تلمع ، وحاجباه الذهبيان يختلجان علوا وسفلا .

— يا جدى

— إى ؟

— قص على قصة .

فقال متذمرا وهو يفرك عينيه كأنما أوقظ من النوم :

— امض فى قراءتك أيها المهرج الكسلان ! أنت تحب الأقاصيص ، ولكنك لا تعنى بالمزامير !

وكنت أميل إلى الظن بأن القصص كانت أحب إليه هو أيضا من كتاب المزامير ، الذى كاد يستظهره لأنه نذر أن يقرأه كله قبل النوم فى كل ليلة . وكان يفعل ذلك فى نوع من الترتيل شبيه بترتيل الشمامسة لصلوات الفرائض فى الكنيسة .

نزل الشيخ عند توسلاتى الحارة وكان يزيد لطفا على الأيام . قال :

— حسنا إذن ! سيكون كتاب المزامير عندك دائما . ولكن الله سيدعونى إليه عن قريب .

واضطجع على الظهر المنجد من الكرسى الكبير القديم ، ومال برأسه إلى الخلف وهو يحدق فى السقف ، وبدأ يحدثنى فى هدوء وتفكير عن الأيام الغابرة وعن أبيه . فقد جاء اللصوص ذات مرة إلى باخانا ليسلبوا زاييف التاجر ، فاندفع والد جدى يدق ناقوس الخطر ولكنهم صعدوا وراءه بسيوفهم وألقوا به من البرج .

« ولكنى كنت إذ ذاك طفلا ، ولذلك ، فلست بالطبع أذكر شيئا عن الأمر . وأول من أذكر رجل فرنسى — وكنت إذ ذاك فى الثانية عشرة — تماما ، أقتيد إلى بالاخانا — ثلاث زمر من الأسرى — كلهم ضئيل نحيل ، وكان منهم من يرتدى ثيابا أحقر من ثياب الشحاذين ، ومنهم من كاد البرد يعجزه عن الوقوف . وكان الفلاحون يودون لو أهلكوهم ضربا ، ولكن الحراس منعوهم وأقصوهم ، واستقامت بعد ذلك الأمور . وقد ألفنا الفرنسيين الذين كانوا بارعين حكماء وعلى حظ من المرح أيضا . . . كانوا يغنون الأغانى أحيانا . وكان بعض السادة يأتون فى العجلات من نجنى ليستجوبوا الأسرى ، ومنهم من كان يسب الفرنسيين ويتوعدهم بقبضته ، بل قد يعدو ذلك إلى ضربهم ، ومنهم من يحادثهم بلغتهم متلطفا ، ويعطيهم النقود ، ويبدى لهم عظيم الود . غطى سيد شيخ وجهه بيديه وبكى ، وقال إن الوغد بونابرت قد قضى على الفرنسيين . أرأيت ؟ لقد كان رجلا روسيا سيدا طيب القلب — كان يشفق على أولئك الأجانب » .

وصمت لحظة، وهو مغمض العينين، يسوى شعره بيديه، ثم مضى يقول مسترجعا الماضى فى دقة بالغة :

ـــ كان الشتاء قد نفث فى الشوارع سحره، وأحيطت أكواخ الفلاحين بالصقيع، وقد اعتاد الفرنسيون أن يقصدوا بيت أمى ويقفوا تحت النوافذ ـ وكانت تصنع أرغفة صغيرة لتبيعها ـ وينقروا على الزجاج، وهم يتصايحون ويتواثبون طالبين خبزا حارا. ولم تكن أمى تسمح لهم بولوج كوخنا، ولكنها كانت تقذف لهم بالأرغفة من النافذة، فكانوا يلقفونها على حرارتها، ويضعونها فى صدورهم على جلدهم العارى. ولا أستطيع أن أتصور كيف كانوا يطيقون الحرارة! وقد مات كثير منهم بردا، لأنهم أتوا من بلاد دافئة ولم يعتادوا الصقيع. وكان إثنان منهم يعيشان فى مغسلنا بحديقة المطبخ ـ أحد الضباط وتابعه ميرون.

كان الضابط رجلا طويلا نحيلا قد نتأت عظامه من جلده، وإعتاد أن يروح ويغدو وعليه عباءة إمرأة تصل إلى ركبتيه. كان لطيفاً جداً ولكنه سكير، فكانت أمى تصنع الجعة خفية وتبيعها له. وكان يغنى وهو يشرب، وحين تعلم لغتنا راح يصرح بآرائه — إن بلادكم ليست بيضاء مطلقاً، إنها سوداء، وخيمة! . كان كلامه ركيكا جداً ولكننا إستطعنا فهمه، وكان ما يقوله حقاً فالضفاف العليا من الفولجا لاتسر، ولكنها إلى الجنوب أدفأ، وعلى بحر الخزر، لايرى الجليد أبداً. ويستطيع المرء أن يصدق ذلك إذ لم يرد فى الأناجيل أو «الأعمال» أو المزامير نبأ عن الجليد أو الشتاء فيما أذكر .. والمكان الذى عاش فيه المسيح. حسنا، سنقرأ الأناجيل معاً بعد أن نفرغ من المزامير.

وصمت مرة أخرى، كأنما ران عليه الكرى. وكانت أفكاره بعيدة وبدت عيناه صغيرتين حادتين وهما ينظران بمؤخرهما من النافذ. قلت أذكره بمحضرى تذكيراً لطيفاً :

ـــ حدثنى بشىء آخر.

فجفل، ثم عاد يقول :

ـــ حسنا لقد كنا نتكلم عن الفرنسيين. وهم على أية حال بشر مثلنا ليسوا أسوأ منا ولا آثم. كانوا ينادون أمى أحيانا بقولهم «مدام! مدام!»، وهـــذا معناه : «مولاتى، سيدتى، فكانت تضع فى أكياسهم الدقيق، خمسة بودات منه. وكانت قوية قوة خارقة فى النساء. كانت تستطيع فى يسر أن ترفعنى من شعرى حتى بلغت العشرين، ولم أكن حتى فى تلك السن، خفيف الوزن. كان التابع ميرون يحب الخيول. فكان يذهب إلى الفناء ويشير لهم أن يعطوه جوادا ينظفه. أحدث هذا فى أول الأمر حرجاً

وشب النزاع والعداء ، ولكن الفلاحين كانوا فى النهاية يصيحون به « هه ، ميرون ! » فيضحك ويومىء برأسه ، ويعدو إليهم . كان أشقر ، أصهب الشعر تقريباً ، ذا أنف كبير ، وشفتين غليظتين . وكان يعرف كل شىء عن الخيل : ويعالج أمراضها بنجاح باهر وقد أصبح فيما بعد بيطريا فى نجنى ، ولكنه جن ومات فى حريق . وقبيل الربيع ، لاحت على الضابط علائم العلة ، ثم قضى نحبه فى هدوء أول الربيع ، وهو جالس عند نافذة المغسل ، جالس يفكر مطرق الرأس .

كانت تلك خاتمته ، وقد أسفت لها أسفاً عميقاً . بل لقد بكيت قليلا فى هدوء . فقد كان لطيفاً جداً . يجذب أذنى ويخاطبنى بلغته فى حنان ، ولم أكن أستطيع فهمه ولكنى كنت أحب الاستماع له . إن الحنان البشرى لايشترى فى سوق ما . وقد بدأ يعلمنى لغته ولكن أمى حرمت ذلك ، بل جاوزته فأرسلتنى إلى القسيس الذى ارتأى أن أضرب ، وذهب بنفسه إلى الضابط شاكيا . لقد كنا نعامل فى تلك الأيام يا بنى بفظاظة شديدة ، وأنت لم تجرب بعد شيئا قريبا منها . . . وكل ما احتملته لا يعد شيئا بالقياس إليها ، أذكر هذا ! . . . خذ حالتى مثلا . . . فقد كان على أن أتحمل كثيراً . . . »

بدأ الظلام يهبط ، ولاح أن جدى يضخم ضخامة غريبة فى الغسق ، وأن عينيه تلمعان كعينى قط . وكان يتحدث عن أكثر الموضوعات فى هدوء وعناية وتفكير ، فاذا تحدث عن نفسه ، تدفقت كلماته ، وشاب نبرته حرارة وفخر ، فلم يرقنى أن أستمع إليه ، ولم استعذب طلبه الدائم الحازم :

ــ أذكر ما أحدثك به الآن ! إياك أن تنسى هذا !

وقد حدثنى بأشياء كثيرة لم أستشعر الرغبة فى تذكرها ، ولكنى اختزنتها فى حافظتى كارهاً دون طلب منه ، ليحز الألم فى قلبى .

لم يكن يروى قصصا خيالية قط ، بل كان يحكى دائما حوادث واقعة ، وقد لاحظت أيضا أنه كان يكره الأسئلة ، فأغرانى ذلك بأن ألح فى السؤال :

ــ أيهما أحسن . . . الفرنسيون أم الروس ؟

فزمجر غاضبا .

ــ من أين لى أن أحكم ؟ إنى لم أر فرنسيا قط فى وطنه . وأضاف ، إن القط البولندى لا بأس به فى جحره .

ــ ولكن هل الروس أخيار ؟

— هم كذلك فى نواح كثيرة، ولكنهم كانوا أسعد حالا فى ظل الأشراف لقد عمت الآن الفوضى ، وشق على الناس أن يجدوا القوت نفسه واللائمة فى ذلك تقع بالطبع على السادة لأن سندهم من الذكاء أقوى ، ولكن ذلك لا يمكن أن يقال عنهم جميعا بل عن فئة قليلة ثبت صلاحها ، أما عن الآخرين ، فأكثرهم حمقى كالفيران ، يستولون على كل ما تنزل لهم عنه . إن لدينا كثيراً من قشور البندق ولكن اللب يعوزنا - عندنا القشر وحده، أما اللب فقد التهم . إن فى هذا عبرة لك يا رجل ! كان علينا أن ندرك ذلك . وكان ينبغى أن تكون عقولنا الآن أحد ، ولكننا لم نبلغ هذا بعد .

— هل الروس أقوى من غيرهم ؟

— إن بيننا أناسا عارمى القوة ، ولكن المهم ، ليس القـــوة ، بل المهارة . والحصان يفضلنا من حيث القوة الغاشمة .

— ولكن لم حاربنا الفرنسيون ؟

— إن الحرب شأن الأمبراطور . وليس يسعنا أن نفهمه .

ولكن جدى أجاب عن سؤالى «أى رجل كان بونابرت ؟ » بنبرة من يسترجع الماضى قال :

— كان رجلا شريرا . كان يريد أن يحارب العالم أجمع ، ثم يسوى بيننا بعد ذلك - دون حكام أو سادة ، فيستوى الجميع دون امتياز طبقى ، ويخضعون لقانون واحد ، ويعتنقون دينا واحدا ، فلا يبقى من فارق بين شخص وآخر غير الإسم . كان ذلك كله هراء طبعا . فالسرطان هو وحده الذى لا يميز فيه فرد عن فرد . . . فتنقسم إلى طبقات : الأربيان لا يجتمع بالتونة ، والحفيش يأبى أن يصحب الرنجة . ولقد ظهر بيننا أمثال بونابرت . كان هناك رازين (ستيفان تيموثيف) وبيجاتش (اميليان إيفانوف) ولكنى سأحدثك عنهم فى وقت آخر .

كان يصمت أحيانا لفترة طويلة وهو يحدق فى بعينين زائغتين كأنه لم يرنى من قبل . ولم يكن ذلك يسرنى فى شىء . ولكنه لم يحدثنى قط عن أبى وأمى ؛ وكانت جدتى تدخل فى سكون بين الفينة والفينة أثناء هذه الأحاديث ، وتجلس فى الركن ، وتظل كذلك وقتا طويلا ، صامتة لا تلحظ . ثم تسأل فجأة بصوتها الحانى :

— أتذكر يا أبتاه ، كيف كانت حجتنا إلى مورون جميلة ؟ منذ متى كانت ؟ فيجيب جدى فى عناية بعد تأمل :

— لا أستطيع أن أذكر بالضبط ، ولكنها كانت قبل الكوليرا . سنة قبضنا فى الغابات على المجرمين الفارين .

— حقا . حقا . لقد كنا ما نزال نخشاهم .

— هذا صحيح !

فسألت من المجرمون الفارون ، ولم كانوا يهيمون فى الغابات ، ففسر لى جدى فى شىء من التردد ، قال :

— لقد كانوا رجالا هربوا من السجن ـ من العمل الذى فرض عليهم .

— وكيف قبضتم عليهم ؟

— كيف قبضنا عليهم ! عجبا ، كالأطفال الصغار يلعبون التغمية ، يختفى بعضهم ، ثم يبحث الآخرون عنهم ، ويقبضون عليهم. وحين اعتقلوا ، جلدوا ، وشرمت مناخرهم، ووسموا على الجباه علامة على أنهم مجرمون .

— ولكن لم ؟

— آه هذا هو السؤال . لا أستطيع له جوابا . أما أيهما على خطأ ، الهارب أم مطارده فذلك أيضا لغز !

قالت جدتى :

— أو تذكر يا أبتاه بعد الحريق الكبير كيف ...

فسأل جدى الذى كان يعنى بالدقة قبل كل شىء ، عابسا :

— أى حريق كبير ؟

كان إذا أطافا بالماضى ، نسيانى نسيانا تاما . واختلطت أصواتهما وكلماتهما رفيقة منسجمة حتى ليبدو أحيانا أنهما يغنيان أغانى حزينة عن الأمراض والحرائق ، عن المذابح والوفيات الباغتة ، وعن الأوغاد الماهرين ، ومجاذيب الدين ، وعن الأشراف القساة .

تمتم جدى بلطف :

— ما أكثر ما قاسينا ! ما أكثر ما رأينا !

قالت جدتى :

— إن حياتنا لم تكن سيئة ، أليس كذلك ؟ أتذكر روعة إقبال الربيع بعد عيد ميلاد فاريا ؟

— كان ذلك عام ٤٨ ـ أثناء الحملة الهنغارية،وقد اقتادوا غداة تعميدها أشبينها تيخون .

فزفرت جدتى :

— ثم اختفى .

— نعم ، ومنذ ذلك الحين نبت بركات الله عن بيتنا ، كما ينزلق الماء عن ظهر البطة . إليك فارفارا مثلا . . .

— كفى يا أبتاه كفى !

فسأل وهو يتجهم لها غاضبا :

— ماذا تعنين بقولك « كفى » . ؟ إن مسلك أبنائنا ، من حيثما نظرت إليهم ، قد انتهى إلى شر . ماذا حل بقوة شبابنا ؟ لقد خلنا أننا نكتنزه لأنفسنا فى أبنائنا ، كما يختزن المرء بعناية شيئا فى سلة ولكن انظرى ، إن الله يجعل الأمر فى يدنا لغزا لا حل له !

ودار فى الغرفة يصرخ كأنه حرق ويئن كأنه مريض ، ثم التفت إلى جدتى وبدأ يسب أبناءه ، ويهزفى وجهها قبضته الصغيرة متوعدا وهو يصيح :

— والذنب كله ذنبك ، إذ لنت لهم ، وآزرتهم أيتها العجوز الحيزبون !

وانتهى أسفه وهياجه بصرخة باكية وهو يلقى بنفسه على الأرض أمام الأيقونة ، ويصيح ضاربا صدره الذاوى الأجوف بكل ما لديه من قوة :

— رباه ، أأثمت أكثر من غيرى ؟ لم إذن ؟

وارتجف من فرعه إلى القدم ، ولمعت عيناه فى غل واشمئزاز وقد ندتها الدموع .

فرسمت جدتى الصليب صامتة وهى جالسة فى ركنها المظلم ،ثم قالت وهى تدنو منه فى حذر :

— ولم أنت مهتاج هكذا ؟ إن الله يعرف ماذا يصنع . أنت تقول إن أبناء غيرنا من الناس خير من أبنائنا ، ولكنى أؤكد لك يا أبتاه ، أنك تجد فى كل مكان عين الشىء ـ الشجار والخصام والفتنة . والآباء جميعا يكفرون عن سيئاتهم بالدموع ، فلست الأب الوحيد .

كانت تلك الكلمات تهدئه أحيانا ، فيتأهب للنوم ، وأنسل أنا وجدتى إلى العلية .

ولكن حدث ذات مرة حين دنت منه مهدئة روعه ، أن التفت إليها بسرعة ولطمها بجمع يده فى وجهها لطمة استجمع لها قوته كلها .

ترنحت جدتى وكادت تفقد توازنها ، ولكنها تحاملت على نفسها ، وقالت فى هدوء وهى تضع يدها على شفتيها : « أحمق » وتفلت عند قدمه دما ، ولكنه صرخ صرختين طويلتين ورفع يديه مهددا ، قال :

— أذهبى وإلا قتلتك !

فرددت جدتى وهى تغادر الغرفة :

— أحمق !

إندفع جدى وراءها ، ولكنها سارعت فجازت العتبة وصفقت الباب فى وجهه .

فهدر جدى وقد ازرق وجهه ، وهو متشبث بقائم الباب ، يخدشه بأظافره فى غل :

— عجوز حيزبون !

كنت جالسا على الأريكة أقرب إلى الموت منى إلى الحياة ، لا أكاد أصدق عينى . كانت تلك هى المرة الأولى التى ضرب فيها جدتى على مشهد منى ، وغلب على التقزز من هذا الجانب الجديد لشخصيته ـ من تكشف هذا المسلك الذى لا يغتفر ؛ وأحسست كأنى أختنق . ووقف حيث كان ، متعلقا بقائم الباب ووجهه يربد ويتقلص كأنه غطى بالرماد .

وبغتة توسط الغرفة ، وجثا وسجد معتمدا بيديه على الأرض ، ولكن سرعان ما انتصب وراح يضرب صدره :

— والآن ، يا إلهى . . .

فانزلقت عن بلاط المصطبة الدافىء ، وتسللت خارج الغرفة ، محاذرا كأنى أدوس على ثلج . وجدت جدتى فى الطابق العلوى تذرع الغرفة وتتمضمض بين حين وآخر .

— هل أوذيت ؟

فقصدت إلى الركن ، وتفلت بعض الماء فى الحوض ، وأجابت فى هدوء :

— لا شىء يشغل البال . ليس بأسنانى بأس ولكن شفتى مألومتان .

— لم فعل ذلك ؟

قالت وهى تنظر من النافذة :

— إنه يهتاج ، وقد شق عليه الأمر فى شيخوخته ، فكل شىء يبدو سيئا . اذهب الآن إلى الفراش ، واتل صلواتك ، ولا تعاود التفكير فى هذا .

ـ بدأت أسأل بعض أسئلة أخرى ، فصاحت جدتى فى قسوة غريبة عنها :

— ماذا قلت ؟ أذهب إلى الفراش حالا ! أنا لم أسمع قط بمثل هذا العصيان ! .

وجلست عند النافذة تمص شفتها ، وتتفل فى منديلها مرارا ، فنزعت ملابسى وأنا أنظر إليها . كنت أستطيع أن أرى النجوم تلمع فوق رأسها الأسود من النافذة الزرقاء المربعة . وقد ساد السكون على الطريق ، وكانت الغرفة مظلمة وحين استلقيت فى الفراش جاءت إلى وقالت وهى تمسح رأسى بلطف :

— نم هنيئا ! سأهبط إليه ، لا تقلق على ياحبيبى أنت تعلم أنى المخطئة ـ نم الآن !

قبلتنى ومضت ، ولكن حزنا غامرا ران على ، فوثبت من السرير العريض الناعم الدافىء وذهبت إلى النافذة ، ورحت أحدق فى الطريق الخالى وقد جمدت من الأسى .

الفصل السابع

لم أقض وقتا طويلا لأدرك أن جدى كان يدين بإله ، وأن جدتى تدين بآخر ، فلطالما لاحظت هذا الخلاف حتى استحال أن أتجاهله .

كانت جدتى تستيقظ فى الصباح أحيانا ، وتجلس فترة طويلة على السرير تسرح شعرها الرائع . كانت تنصب رأسها وتتخلل بمشطها المثلم الأسنان كل شعرة من ذلك الفرع الفاحم الحريرى ، وتتحدث همسا كى لا توقظنى :

ــ أف لك ! عليك اللعنة لتلبدك هكذا !

ثم إذا تخلصت من عقد شعرها على هذا النحو ، بادرت فضفرته ضفيرة كثيفة واغتسلت بسرعة وهى تهز رأسها هزات كثيرة مغضبة ، وجثت أمام الأيقونة دون أن تمحو سمات الغضب عن وجهها الكبير الذى غضنه النعاس ، وبدأت وضوءها الصباحى الحق الذى ينتعش به كيانها كله لأول وهلة .

كانت تقوم ظهرها المقوس ، وترفع رأسها ، وتحدق فى وجه سيدتنا القازانية المستدير وبعد أن ترسم الصليب فى خشوع تقول بهمسة عالية وحشية :

ــ أيتها العذراء المجيدة ! أبسطى على اليوم حمايتك يا أمى الحبيبة !

وتسجد ثم تقيم ظهرها جاهدة وتعود تهمس من جديد فى حرارة وبإحساس عميق :

ــ يا منبع فرحنا ! أيها الجمال النقى ! يا شجرة التفاح المزهرة !

كان يبدو أنها تجد كل صباح كلمات جـــديدة للثناء ولذلك كنت أصغى إلى صلواتها بانتباه شديد .

« أيها القلب العزيز النقى السماوى ! يا حصنى وملاذى ! أيتها الشمس الذهبية ! يا أم الله ! احمينى من الإغراء واكتبى لى ألا أوذى أحداً أو أستاء مما يقذفنى به الناس دون تفكير » .

وترسم الصليب مرة أخرى بتلك الحركة البطيئة المتثاقلة من يدها ، وقد بسمت عيناها السوداوان وشاع حولها جو من وجمة الشباب .

« يا يسوع المسيح ، يا ابن الله ، ارحمنى ـ أنا الخاطئة . محبة لأمك ! »

كانت صلواتها دائما غير كنسية ، مليئة بالثناء الصادق ، ساذجة جداً .

ولم تكن تطيل الصلاة فى الأصباح ، كان عليها أن تعد السماور لأن جدى لم يكن يستخدم أحدا وكان يطيل تعنيفها ويغضب إذا لم يعد الشاى فى موعده .

وكان أحيانا يصحو قبلها ويصعد إلى العليه فيقف بضع دقائق يصغى إليها وقد وجدها تصلى ، ويلوي شفتيه الدقيقتين السوداوين بازدراء ، ثم يزمجر وهو يشرب الشاى قائلا :

ـــ كم مرة علمتك كيف تصلين يا غبية ولكنك دائما تتمتمين بهراء يا كافرة ! لست أدرى كيف يحتملك الله .

فتجيب جدتى واثقة :

ـــ إنه يفهم مالا نقوله له . إنه يخترق بنظره كل شىء .

فلا يزيد على أن يقول :

ـــ أيتها الحمقاء اللعينة ! أغ . . . أنت !

وكان الهها معها طوال النهار ، بل أنها كانت تكلم الحيوانات عنه . ويظهر أن هذا الإله كان يخضع طوعا للكائنات كلها ـ للرجال والكلاب والنحل بل لعشب الحقل ، وكان رحيما قريبا لكل من على الأرض على السواء . ذات مرة ، صادت القطة المدللة لزوجة الفندقى ـ وهى قطة ماكرة جميلة ملقة رمادية اللون ذات عينين ذهبيتين ـ زرزورا فى الحديقة ، فاختطفت جدتى الطائر المنهوك وعاقبت القطة صائحة :

ـــ ألا تخشين الله أيتها التعسة الحقود .

فضحكت امرأة الفندقى والحمال لهذه الكلمات ولكنها قالت لهما غاضبة :

ـــ أتظنان أن الحيوانات لا تدرك معنى الله ؟ إن الكائنات جميعا لتدرى به خيراً منكما أيها القاسيان .

وكانت إذا أسرجت شارابا الذى كان يزيد على الأيام سمنا وكآبة ـ أدارت معه الحديث :

ـــ لم تبدو تعسا هكذا ، يا عبد الله ؟ أنت تهرم ياعزيزى ، هذا هو الأمر .

فيزفر الحصان ويهز رأسه .

على أنها لم تكن تكثر من النطق باسم الله كما يفعل جدى ، وكنت أفهم إلهها فهما تاما وكنت أعلم أنه لا ينبغى لى أن أفوه بالأكاذيب فى حضرته ، فإن ذلك يعود على بالخجل . إن التفكير فيه كان يولد فى نفسى إحساسا لا يقهر بالعار حتى أنى لم أكذب على جدتى قط . كان من المحال أن أخفى شيئا عن هذا الإله الطيب ، بل إن الرغبة فى ذلك لم تساورنى .

وذات يوم تشاجرت امرأة الفندقي مع جدي وسبته وسبت جدتي التي لم تشترك في الشجار ومع ذلك فقد سبتها سبا قبيحا ، بل رمتها بجزرة . قالت جدتي بهدوء :

ـــ أنت حمقاء ، أيتها المرأة الطيبة .

ولكن الإهانة حزت في نفسي ، وعزمت على أن أنتقم من المرأة الحقود .

بقيت وقتا طويلا لا أستطيع أن أجزم بالطريقة المثلى لمعاقبة تلك المرأة الشقراء البدينة الحوصاء ذات النونة . وقد علمت من تجربتي عن الاحقاد التي تنشأ بين الناس الذين يعيشون معا ؟ أنهم ينتقمون من بعضهم البعض بأن يقطعوا أذيال قطط عدوهم ، أو يطاردوا كلابه أو يقتلوا ديكته ودجاجه ، أو يتسللوا إلى قبوه ليلا ويصبوا النفط على الكرنب والخيار في الجرار ، ويسكبوا الكفاس من البراميل ؛ ولكن شيئا من ذلك لم يرقني . لقد كنت أريد شيئا أقل خشونة وأكثر إفزاعا .

خطرت لي آخر الأمر فكرة . كنت أنتظر زوجة الفندقي ، وما أن هبطت إلى القبو حتى أغلقت الباب وأحكمت أغلاقه ، ورقصت فوقه رقصة ، وقذفت المفتاح فوق السقف ، وهرعت إلى المطبخ حيث كانت جدتي مشغولة بالطهو . لم تدرك أول الأمر لم كنت في نشوة من المرح ، ولكنها حين فهمت السبب ، صفعتني على ذلك العضو الذي خص من جسمي بذلك ، وسحبتني إلى الحوش وأصعدتني إلى السقف أبحث عن المفتاح . وقد أعطيته لها في تردد وأدهشني أن تطلبه ، وجريت إلى ركن من الحوش رأيت منه كيف أطلقت سراح الأسيرة وكيف راحتا تضحكان متآخيتين وهما تعبران الحوش .

قالت امرأة الفندقي مهددة وهي تهز قبضتها البضة في وجهي

ـــ سأعاقبك على هذا !

ولكن بسمة سمحة كانت تضيء وجهها الذي لا تبدو فيه عينان . وسحبتني جدتي إلى المطبخ مرة أخرى من ياقتي وسألت :

ـــ لم فعلت ذلك ؟

ـــ لأنها قذفتك بجزرة .

ـــ أتعني إنك فعلتها من أجلي ؟ حسنا ، إليك ما سأفعله لك ـ سأضربك بالسوط وأضعك تحت الفرن بين الفيران . أي حام بديع أنت ! انظر إلى الفقاعة تنفجر تواً . لو أني أخبرت جدك لسلخك . أصعد إلى العلية واحفظ درسك .

ولم تخاطبنى فيما بقى من النهار ، ولكنها جلست على السرير تلك الليلة قبل أن ترتل صلواتها ، وفاهت بهذه الكلمات المذكورة فى نبرة شديدة التأثير :

— يا حبيبى لينكا ، يجب ألا تتدخل فى أعمال الراشدين من الناس ، عليهم مسئوليات يجيبون عنها أمام الله ، ولا كذلك الأمر معك ، فأنت تحيا بضمير طفل. انتظر حتى يستولى الله على قلبك ، ويدلك على العمل الذى خلقت له ، والطريق الذى تسلكه . أتفهم ؟ ليس من شأنك أن ترى من الملوم فى أمر ما . إن الله يحكم ويعاقب . هذا شأنه وليس شأننا .

وصمتت لحظة وهى تنشق نشقة ثم أردفت وهى تكسر عينها اليمنى :

— إن الله نفسه لا يعلم دائما موقع الخطأ .

سألت فى دهشة :

— ألا يعلم الله كل شىء ؟

— لو أنه علم كل شىء لما صنع كثيراً مما يصنع . لكأنه - الآب - ينظر وينظر من السماء إلى الأرض ، ويرى كثرة ما نبكى ، وكثرة ما ننتحب ، ويقول : شعبى . ياشعبى . كم آسف لك !

وكانت هى نفسها تبكى وهى تتكلم ثم ذهبت إلى الركن تصلى وهى تجفف خديها النديين .

ومنذ ذلك الحين زدت من إلهها قربا على قرب ، وله فهما على فهم .

وكان جدى فى تعليمه لى يقول أيضا إن الله موجود فى كل مكان ، عالم بكل شىء ، بصير بكل شىء ، معين رحيم للناس فى كل أمورهم ، ولكنه لم يكن يصلى مثل جدتى . كان فى الصباح قبل أن يقف أمام الأيقونة ، يقضى وقتا طويلا فى الاغتسال ، ثم إذا ما أتم ارتداء ملابسه ، مشط شعره الأشقر بعناية وسرح لحيته ، ونظر إلى نفسه فى المرآة . يسوى قميصه ويدس ربطته السوداء فى صداره - وهنا يتقدم حاذرا بل متسللا إلى الأيقونة . كان يقف دائما على لوح بعينه من الأرض الخشبية ، ويظل صامتا لحظة وقد أشبهت عيناه عينى حصان وأحنى رأسه ، وأرخى يديه إلى جانبيه كجندى ، ثم يبدأ يقول فى حرارة وهو منتصب ناحل كالمسمار :

— باسم الآب ، والابن ، والروح القدس .

وكان يبدو لى دائما من هذه الكلمات أن الغرفة قد هدأت هدوءاً غريبا ، أن الذباب نفسه أخذ يحاذر فى طنينه .

كان يقف هناك ، وقد ألقى رأسه إلى الوراء ، وارتفع حاجباه وانتفشا ، وبرزت لحيته الصهباء أفقية ، وهو يرتل صلواته بنبرة حازمة ، كأنه يعيد درسا ، وبصوت واضح صلف :

— لا شيء ينفع حين يجيء القاضي ويكشف الستر عن كل عمل .

ويصلي في حرارة وهو يضرب صدره بخفة :

— إليك وحدك يمكن أن يجيء الخطأة . أوه . أشح بوجهك عن خطاياي .

كان يرتل صلاة «أنا أعتقد» بالكلمات الموضوعة فقط ، وكانت رجله اليمنى ترتجف طوال الوقت كأنها توقت صلواته في هدوء ، وبدا قده كله — وقد توتر في اتجاه الأيقونة — أطول وأدق وأجف — كان شديد النظافة والأناقة والالحاح في طلباته .

— أيها الطبيب السماوي ، أشف روحي من شهواتها المزمنة . إليك أيتها العذراء المقدسة أصيح من قلبي ، ولك أهب نفسي في حرارة .

ويولول بصوت عال وقد امتلأت عيناه الخضراوان بالدموع :

— اجعل لي الإيمان بدلا من الأعمال ، ولا تذكر الأفعال التي تخزيني .

وهنا كان يرسم الصليب في فترات متلاحقة ، ويهز رأسه كأنه يوشك أن ينطح شيئا ، ويغدو صوته مصدوعا صارخا . وقد تبينت فيما بعد حين اتفق لي أن دخلت هيكلا ، أن جدي كان يصلي كاليهود .

وفي هذه الأثناء يكون السماور قد راح يئز على المائدة منذ دقائق ، وولت في الغرفة رائحة فطائر الشيلم الحارة وأخذت جدتي تذرع الغرفة معبسة وعيناها إلى الأرض ، والشمس تطل مرحة من الحديقة خلال النافذة ، والفل يلمع على الأشجار كاللآلىء ، ونسيم الصباح ينفح بعطر حلو من ريح الشمار وشجيرات الكشمش والتفاح الناضج ، ولكن جدي يمضي في صلواته — بصوته الراجف الصارف .

— أخمد في لهيب الشهوة ، لأني شقي لعين .

كنت أحفظ أدعية الصباح كلها عن ظهر قلب ، وكنت أستطيع حتى في أحلامي أن أذكر ما يتلو منها ، وكنت أتبعها بشغف عميق لأسمع إن كان قد أخطأ ، أو أسقط كلمة — وقلما حدث هذا ، فإذا حدث أثار في شعورا من السرور الخبيث .

كان جدي إذا انتهى من أدعيته يقول لي ولجدتي : «صباح الخير» فترد عليه التحية ، ونجلس إلى المائدة ، وكنت إذ ذاك أقول له :

— لقد أسقطت كلمة هذا الصباح .

فيقول جدى قلقا غير مصدق :

ــ حقا ؟

ــ أجل كان ينبغى أن تقول: هذا إيمانى يسود كل شىء . ولكنك لم تقل : (يسود) .

فيصيح منزعجا وهو يطرف متأثما :

ــ عجبا !

ثم ينتقم منى بعد ذلك انتقاما قاسيا لأنى بينت له خطأه ، ولكنى أستمتع بظفرى تلك اللحظة حين أرى الانزعاج الذى عراه .

قالت له جدتى ذات يوم مازحة :

ــ لابد أن يتعب الله من الاصغاء إلى أدعيتك يا أبتاه . فأنت لا تفعل شيئا إلا أن تكرر الأشياء نفسها مرة بعد أخرى .

فزمجر بصوت ينذر بالويل :

ــ ما هذا ؟ علام تلومنى الآن ؟

ــ أقول إنك لا تهب الله حتى كلمة واحدة صغيرة من قلبك ، فيما أسمع .

فاربد وجهه ، ووثب على مقعده وهو يرتجف غضبا ، وقذف رأسها بطبق ، وهو يعوى بصوت كصوت المنشار على قطعة من الخشب :

ــ خذى هذه أيتها العجوز الشمطاء !

وكان حين يتحدث عن قدرة الله الشاملة ، يؤكد دائما صفة القسوة فيها فوق كل صفة ، « لقد وقع الإنسان فى الخطيئة فبعث الطوفان . وأخطأ ثانية فخربت مدنه بالنار ، ثم عاقب الله الناس بالمجاعة والوباء ، بل إنه الآن يسلط دائما على الأرض سيفا ـ سوطا للخاطئين . وكل من خرجوا طوعا على وصايا الله سيعاقبون بالحزن والخراب » . وكان يؤكد هذا بنقر أصابعه على المائدة .

وقد شق على أن أومن بقسوة الله ، وداخلنى الريب فى أن يكون جدى قد اخترع ذلك كله عامدا ، لا ليوحى إلى خشية الله بل خشيته هو . ولذا سألته بصراحة :

ــ أتذكر هذا كله لتجعلنى أطيعك ؟

فأجابنى بصراحة مماثلة :

ــ حسنا ، ربما ، أتنوى مخالفتى ثانية ؟

ـــ وماذا عن الذى تقوله جدتى ؟

فحذرنى فى حزم قائلا :

ـــ لا تصدق العجوز الحمقاء ! لقد كانت منذ شبابها غبية أمية خرفة . سأطلب إليها ألا تعيد عليك الحديث عن هذا الأمر الهام . . . قل لى الآن ـ كم زمرة من الملائكة هناك ؟

فذكرت الجواب المطلوب ثم سألت :

ـــ أهى شركات محدودة ؟.

فضحك وهو يحجب عينيه ويعض شفتيه :

ـــ أوه . يا طائش ! ما علاقة الشركات بالله . . . إنها تتصل بالحياة على الأرض . . . إنها تؤلف لتعطل القوانين .

ـــ ما هى القوانين ؟

فقال الشيخ مفسرا فى انشراح وقد تألقت عيناه الذكيتان النافذتان :

ـــ القوانين ! إنها تستمد ـ فى الحق ـ من العرف . يتفق القوم فيما بينهم ـ إن كيت وكيت خير ما نعمل ، سنجعل منه عرفا ، قاعدة ؟ وأخيراً يصبح قانونا . فالأطفال مثلا قبل أن يبدأوا لعبة يقررون فيما بينهم كيف يكون اللعب ، ويضعون القواعد التى تجب رعايتها . والقوانين توضع بالطريقة عينها .

ـــ وما علاقة زمر الملائكة بالقوانين ؟

ـــ عجبا ! إنها كالرفيق الوقح ، تتدخل فلا تجعل للقوانين قيمة .

ـــ ولكن لم ؟

أجاب وهو يقطب حاجبيه :

ـــ آه . لن تفهم ذلك .

ولكنه قال فيما بعد كأنما يفسر الأمر .

ـــ إن أعمال الناس كلها تعين على تنفيذ خطط الله . يشتهى الناس شيئا ولكن الله يريد ما يخالفه تماما ، والنظم البشرية لا تستقر أبداً . يعصف بها الخالق ، فتتساقط غباراً ورماداً .

وكان عندى ما يشغفنى بزمر الملائكة ، فرحت أسأل مستقصيا :

ـــ ولكن ماذا يعنى خالى ياكوف حين يغنى :

« الملائكة الوضاء .

يحاربون فى سبيل الله .

ولكن عبيد الشيطان ، زمر »

فرفع جدى يده إلى لحيته يخفى بذلك فمه ، وأغمض عينيه وارتعش خداه ، فخلته يضحك فى نفسه . قال :

— ينبغى أن يقيد قدما يا كوف ويلقى فى الماء . لاضرورة تدفعه إلى غناء تلك الأغنية ، وليست بك حاجة إلى الاستماع إليها . إنها ليست سوى مزحة سخيفة شائعة فى كانونجا . هراء . انشقاق وزندقة .

وتمتم منكرا وهو ينظر كأنما يخترقنى بنظرة ويعدونى :

— أغ . . . أنت !

ولكنه وإن جعل الله فوق البشر ، كائنا يجب أن يخشى خشية عظيمة ، فإنه لم يكن أقل من جدتى تشفعا به فى كل أعماله .

لم تكن جدتى تعرف القديسين غير نيقولى ويورى وفرولا ولافا وكلهن مليئة بالرحمة والعطف على الطبيعة البشرية ، يجسن خلال المدن والقرى يقاسمن الناس حياتهم وينظمن كل ما يتصل بهم ؛ أما قديسو جدى فجلهم ذكور يحطمون الأوثان أو يتحدون أباطرة الروم ، ويعذبون ويحرقون أو يسلخون أحياء من جراء هذا .

كان جدى يقول أحيانا وقد استغرقه الفكر :

— لو أن الله أعانى على بيع هذا البيت الصغير ، وإن يكن ذلك بربح قليل ، إذن لأقمت للقديس نيقولا صلاة شكر عامة .

فتقول جدتى ضاحكة :

— هذا شبيه بالشيخ الأحمق ! أيظن القديس نيقولا يعنى نفسه ببيع منزل ؟ أليس لدى أبينا الصغير نيقولا شىء يعمله خير من هذا ؟

وقد أبقيت عندى سنوات طويلة تقويما كنسيا كان لجدى ، به كتابات كثيرة بخطه وقد سطر فيه فيما سطر ، بالمداد الأحمر ، وبأحرف قائمة جدا ، أرواء يوم جوشيم وآن :

— المنعمان اللذان جنبانى كارثة .

وأنا أذكر هذه الكارثة .

مارس جدي الربا حرصا منه على إعالة ولديه الخاسرين . واعتاد أن يتقبل خفية أشياء يرهنها . فوشى به بعض الناس ، وذات يوم جاءت الشرطة تفتش عن الرهون . وحدثت ضجة كبيرة ولكن الأمر انتهى بخير ؛ وصلى جدى حتى شروق الشمس فى اليوم التالى ، وقد كتب تلك الكلمات فى التقويم قبل الإفطار وعلى مشهد منى .

وقد اعتاد أن يقرأ معي قبل العشاء المزامير وصلوات الفروض وكتاب افرايم سيرين الضخم ، فإذا ما تناول العشاء بدأ يصلي ثانية ورنت كلمات التوبة الحزينة في سكون المساء .

— ماذا يمكن أن أهبك أو كيف أستغفرك ، يا إلهي الرحيم . ياملك الملوك ! . . احفظنا من كل الخيالات الشريرة . . . اللهم ارحمني من بعض الناس ! . . . إن دموعي تسقط كالمطر ، وذكرى خطاياي . . .

ولكن جدتي كثيرا ما قالت :

— أوه . أنا منهوكة القوى ، سأنام دون أن أصلي .

وكان جدي يأخذني إلى الكنيسة - إلى صلاة المساء يوم السبت ، وإلى القداس الكبير أيام الآحاد والأعياد - ولكنني كنت أميز - حتى في الكنيسة - الإله الذي يتجه إليه . فكل ما يرتله القسيس أو الشماس كان لإله جدي ، أما الجوقة فكانت تغني دائما لإله جدتي . ولست أستطيع بالطبع أن أعبر عن ذلك التمييز الغرير الذي انتهيت إليه بين الإلهين ، إلا تعبيرا لجا ولكنني أذكر كيف بدا كأنه يمزق قلبي في عنف رهيب ، وكيف كان إله جدي يثير في ذهني إحساسا من الرعب والبغض . إله لا يحب أحدا ، ويتبعنا جميعا بعينيه القاسيتين ، وينقب عن كل ما فينا من قبح وشر وخطأ ويجده . كان واضحا أنه لا يثق بالإنسان ثقة ما ، وكان يصر دائما على الكفارة . وكان يهوى العقاب .

في تلك الأيام كانت أفكاري وأحاسيسي عن الله اهم ما يغذو نفسي وأجمل ما في وجودي ، وكل ما عداها من المشاعر لم يكن يثير في غير الاشمئزاز من قسوته وقذره ، والشعور بالنفور والوحشية . كان الله يفضل كل من يعيشون حولي خيراً وألقا - إله جدتي ذلك الصديق العزيز للخليقة كلها ، ولم أكن أستطيع بداهة إلا أن أنزعج لهذا السؤال : . كيف لم يتأت لجدي أن يرى الإله الخير ؟

ولم يكن يسمح لي بأن أجول في الشوارع لأن ذلك كان يثيرني جداً ، فغدوت كأنما تسكرني الأحاسيس التي أتقبلها ، وكثيراً ما أدى ذلك إلى مواقف عنيفة فيما بعد .

لم يكن لي رفاق . وكان أبناء الجيران يعادونني ، وكنت أكره أن ينادوني : « الغلام الكاشيريني » فلما رأوا ذلك مني غالوا فيه فكان الواحد منهم يصيح بالآخر حين يرونني :

— انظر . قد قدم ذلك الولد ؟ حفيد كاشيرين . عليك به !

ثم يبدأ العراك . وكنت أقوى مما يعهد في سني ، أحسن استعمال قبضتي . وكان أعدائي يعلمون ذلك عني ، فكانوا يسطون علي جماعة ، وكانت العادة أن يقهرني أولاد الشارع فأعود

إلى منزلى وقـــد شجّ أنفى ، وجرحت شفتاى ، وملأت الرضوض وجهى ـ ممزق الثياب ممرغا فى التراب .

كانت جدتى تصيح حين تلقانى فى مزيج من الهلع والاشفاق :

ـــ ماذا ؟ أعدت للعراك ثانية أيها الوغد الصغير ؟ ما قصدك منه ؟

كانت تغسل وجهى وتضع على الرضوض قطع نقود نحاسية ، أو كادات الرصاص وهى تقول :

ـــ ما قصدك من هذا العراك كله ؟ أنت هادىء فى البيت كل الهدوء ولكنى لا أدرى بماذا أشبهك فى الخارج . ينبغى أن تخجل من نفسك . سأطلب من جدك ألا يدعك تخرج .

وكان جدى يرى رضوضى ولكنه لم يكن يزجرنى قط بل لا يعدو أن يزمجر ويهدر :

ـــ أوسمة جـــديدة ! ما دمت فى بيتى أيها المحارب الصغير فلا تنزعنّ بك نفسك إلى الجرى فى الشوارع . أتسمعنى ؟

لم يكن الشارع يخلبنى قط إذا كان هادئا ، ولكن ما كنت أسمع جلبة الأولاد المرحة حتى أخرج من الحوش ناسيا كل شىء عن تحريم جدى . لم تكن تؤذينى الرضوض أو المسبات ولكن وحشية ألعاب الشارع ـ وهى وحشية أعرفها جيدا ـ متعبة منهكة تهبط بالمرء إلى حالة من الخبل ـ كانت تزعجنى أيما إزعاج . لم أكن أستطيع أن أملك نفسى حين كان الأولاد يهيجون الكلاب والديكة ، ويعذبون القطط ، ويطاردون معيز اليهود ويسخرون من الأفاقين السكارى ومن السعيد ايجوشا الذى يحمل الموت فى جيبه .

وكان هذا رجلا طويلا ذاويا جافا يرتدى جلد شاة ثقيلا ، وعلى وجهه المعروق الصدئ شعر خشن . كان يضرب الطرقات مطأطأ الرأس يرتجف ارتجافا غريبا لا يتكلم أبدا ـ مثبتا بصره طوال الوقت على الأرض . وكان وجهه الحديدى بعينيه الصغيرتين الحزينتين يوحى باحترام أليم نحوه . قلت لنفسى ذاك رجل يئوده أمر ثقيل ، لقد كان يبحث عن شىء فمن الخطأ أن يعاق عن ذلك .

وقد اعتاد الأولاد أن يركضوا وراءه ، ويقذفوا الحجارة على ظهره العريض وبعد أن يسير فترة كأنه لا يلاحظهم ، وكأنه لا يشعر حتى بألم الضربات ، كان يقف ويرفع رأسه ، وينحى إلى الوراء قبعته الممزقة بحركة متشنجة من يديه ، وينظر حوله كأنه استيقظ لتوه . يصيح الأولاد :

— يا إيجوشا الذى يحمل الموت فى جيبه ! إلى أين أنت ذاهب يا ايجوشا ؟ أنظر . إن الموت فى جيبك .

فيدس يده فى جيبه ، ثم ينحني بسرعة ويلقف حجراً أو كتلة من الطين الجاف ، ويلوح بذراعيه الطويلتين ، وهو يتمتم بمسبة كانت تقتصر دائما على كلمات بعينها قليلة بذيئة . وكان معجم الأولاد فى هذه الناحيه أغنى منه إلى غير حد . وكان أحيانا يحجل وراءهم ولكن جلد الشاة الطويل كان يعوق جريه فيسقط على ركبتيه معتمدا بيديه السوداوين على الأرض ، ويبدو كأنه فرع ذاو من شجرة ، ويظل الأولاد يصوبون الحجارة إلى جانبيه وظهره ، ويجسر أكبرهم على أن يجرى قريبا منه ويشب حوله وهو يذرو على رأسه حفنات من التراب.

على أن أشد ما رأيت فى الشارع إيلاما ، كان منظر رئيس عمالنا السابق جريجورى إيفانوفتش الذى عمى تماما ، وأصبح الآن يطوف مستجديا ، وهو يبدو طويلا وسيما لا يتكلم أبداً . وكانت تمسك به من ذراعه عجوز ضئيلة شمطاء تولول بصوت صارف حين تقف تحت النوافذ دون أن تصعد فيها البصر :

— أرحموا الأعمى المسكين ، محبة للمسيح !

ولكن جريجورى ايفانوفتش لم يكن ينطق بكلمة قط ، كان زجاج منظاره يرمق جدران البيوت أو النوافذ أو وجوه المارة. ولحيته العريضة تمسح برفق يديه الملوثتين ، وقد أطبقت شفتاه إطباقا . وكنت كثيراً ما أراه ، غير أنى لم أسمع ذاك الفم المختوم ينبس بشيء قط ؛ وأصبح التفكير فى ذلك الشيخ الصامت يئودنى ويعذبنى . لم أستطع أن أذهب إليه ولم أقربه قط ، بل إنى على العكس ما كنت ألمحه يقاد فى الطريق حتى أجرى إلى المنزل وأقول لجدتى :

— جريجورى فى الخارج .

فتصيح فى نبرة قلقة مشفقة :

— كذا ؟ حسنا ، عد إليه وأعطه هذا .

ولكنى كنت أرفض فى جفاء وغضب ، فتذهب هى إلى الباب وتظل تكلمه وقتا طويلا. كان يضحك ويشد لحيته ، ولكنه كان قليل الكلام وكان ذاك القليل ، مقاطع. وكانت جدتى أحيانا تدخله إلى المطبخ ، وتقدم له الشاى وبعض الطعام ، وكان فى كل مرة تفعل به ذلك يسأل أين أنا ؛ فكانت جدتى تناديني ولكنى كنت أهرب وأختفى فى الحوش . لم أكن أستطيع أن أذهب إليه . كنت أحس فى حضرته إحساسا بالخجل لا يحتمل ، وكنت أعلم أن جدتى خجلة أيضا . ولم نتحدث معا عن جريجورى غير مرة واحدة . وكان ذلك ذات

يوم حين قادته إلى الباب وعادت عبر الحوش تبكى مطرقة الرأس . فذهبت إليها وأخذت يدها . سألتنى برفق :

ـــ لم تهرب منه ؟ إنه رجل طيب ، وأنت تعلم أنه يحبك غاية الحب .

سألت :

ـــ لم لا يبقيه جدى ؟

ـــ جدك ؟

وصمتت ثم أردفت فى صوت خفيض جداً هذه النبوءة :

ـــ أذكر ما أقوله لك الآن ـ إن الله سيعاقبنا شر عقاب على هذا . إنه سيعاقبنا .

ولم تخطىء ، فبعد سنوات عشر ـ وكانت قد قضت نحبها ـ كان جدى يضرب فى شوارع المدينة ، وقد أصبح هو نفسه شحاذا مخبولا ، يئن أنينا مؤلما تحت النوافذ .

ـــ أيها الطهاة الرحماء أعطونى قطعة صغيرة من الفطير ـ قطعة صغيرة فقط . أغ ... أنت !.

وفيما عدا ايجوشا وجريجرى ايفانوفتش كنت شديد الاهتمام بفورونكا ـ وهى امرأة سيئة السمعة ، كانت تطارد فى الشوارع . وقد اعتادت أن تظهر أيام الأعياد ـ ضخمة شعثاء سكرى ذات مشية خاصة كأنها لا تحرك قدميها ولا تمس الأرض ، تمر مثل السحابة ، وترفع عقيرتها بأغانيها البذيئة . كان الناس إذا رأوها اختفوا فى مداخل البيوت أو الأركان أو الحوانيت . كانت تخلى الشارع . وكان وجهها يضرب إلى الزرقة ، وقد أنتفخ كالبالون ، واتسعت عيناها الكبيرتان الشهلاوان اتساعا مخيفا غريبا ، وكانت تئن أحيانا وتصيح :

ـــ يا أبنائى الصغار ، أين أنتم ؟

سألت جدتى من عساها تكون ، فأجابت :

ـــ لا حاجة بك أن تعلم .

ولكنها مع ذلك قالت فى ايجاز :

ـــ كان لهذه المرأة زوج موظف أسمه فورونوف أراد أن يرقى إلى منصب حسن ، فباع زوجته لرئيسه الذى مضى بها إلى مكان ما ، فغابت عن بيتها عامين . ولما رجعت كان أبناها ـ وهما ولد وبنت ـ قد ماتا ، وكان زوجها قد سجن لمقامرته بمال الحكومة . فأدمنت الشراب حزنا ، وهى الآن تجول فى الطرقات تخلق المتاعب . ولا يمر يوم عيد دون أن تقبض عليها الشرطة .

أجل لا شك أن المنزل كان خيرا من الشارع ، وكان أحسن أوقاته بعد الغداء حين يذهب جدى إلى مصبغة خالى ياكوف ، وتجلس جدتى بجانب النافذة تقص على حكايات خرافية ، وأقاصيص أخرى شائقة ، وتحدثنى عن أبى .

وكان الزرزور الذى أنقذته جدتى من القطة ، قد قص جناحاه المهيضان ، ووضعت له جدتى بمهارة رجلاخشبيه فى مكان رجله المنهوشة ، ثم لقنته الـكلام ، وكانت تقف أحيانا أمام القفص المعلق فى إطار النافذة ساعة كاملة تكرر بصوتها الأجش للطائر الأسود الريش كالفحم وقد بدت مثل حيوان هائل سمح :

ـــ والآن يازرزورى الجميل سلنى شيئا تأ كله .

فيثبت الزرزور عليها عينه الصغيرة الزرقة المضحكة ، ويدق برجله الخشبية قاع القفص الرقيق ثم يمد عنقه ويصفر مثل الحسون أو يقلد نبرة الـكوكو الساخرة . وقد يحاول أن يموء كالقطة وينبح كالـكلب ولـكنه حرم هبة الـكلام الإنسانى . تقول جدتى جادة كل الجد :

ـــ لا هراء الآن ! قل : « اعطى الزرزور شيئا يأ كله » .

وحين يند عن ذلك القرد الصغير الأسود الريش صوت يمكن أن يكون : « جدة » كانت العجوز تبتسم فرحة ، وتطعمه من يدها وهى تقول :

ـــ أنا أعرفك يا وغد ! أنت تتظاهر . ليس هناك شىء لا تستطيع عمله ـ إن حذقك لا يفوته شىء .

وقد نجحت حقا فى تعليم الزرزور فلم يمض وقت طويل حتى كان يستطيع أن ينطق بما يريد نطقا لا يعوزه الوضوح ويهمس وجدتى تلقنه :

ـــ ع . . . هـ . . . ى صـ . . . با . . . حا . . . يا امرأتى الطيبة !

وكان قفصه معلقا أول الأمر فى غرفة جدى ، ولـكنه لم يلبث أن أنزل ووضع فى العلية لأنه تعلم أن يسخر من جدى . كان يضع منقاره الأصفر الشمعى بين قضبان القفص ، ويكون جدى يقرأ أدعيته بصوت عال واضح ، فيصفر :

ـــ أنت ! أنت ! أنـ . . . ت ! أنت !

وشاء جدى أن يجد فى هذا إساءة له ، فقطع أدعيته ذات مرة ، ودق الأرض بقدميه وهو يصيح مهتاجا :

ـــ أبعدوا هذا الشيطان ، وإلا قتلته !

كان يمر فى هذا المنزل كثير مما يشوق ويمتع ولـكن كان يرين على أحيانا حزن لا يوصف كأنما يأ كل كيانى كله . وكان يمر بى الوقت الطويل وكأنى أعيش فى هوة مظلمة سليب البصر والسمع والشعور ـ أعمى نصف ميت .

الفصل الثامن

باع جدى ـ على غير توقع ـ المنزل الذى فوق الحانة ، واشترى آخر فى شارع كناتوروى . كان منزلا مهملا يكسوه العشب ولكنه نظيف هادىء ، يبدو كأنما ينهض من بين الحقول إذ كان آخر صف من البيوت الصغيرة المطلية بألوان مختلفة .

كان المنزل الجديد لطيفا خلابا ، قد طليت واجهته بظل قاتم غير معتم من لون الخداش الأسمر ، تقابله زرقة صافية فى النوافذ السفلية الثلاث وفى مصراع نافذة العلية المربع الوحيد ، فتبدو النوافذ شديدة السطوع . واختفى الجانب الأيسر فى السقف اختفاء بديعا وراء أشجار الليمون والدردار الغليظة الخضراء . وكان فى الحديقة وفى الحوش أيضا ممرات متعرجة كثيرة تصلح للعبة التغمية حتى لكأنها جعلت لذلك عمداً .

وكانت الحديقة رائعة الحسن ، كثيرة الأشجار معقدة فى جمال وإن لم تكن كبيرة . كان فى ركن منها مغسل صغير كاللعبة ، وفى ركن آخر حفرة متوسطة يغطيها عشب طويل وقد برزت منها المدافىء الغليظة التى كانت كل ما بقى من مرجل مغسل سابق .

وكان يحد الحديقة عن يسار جدار اصطبلات الكولونيل اوفسيانيكوف . وعن يمين منزل بيتلنجا . وكانت تتاخم فى نهايتها حقل اللبانة بتروفنا وهى امرأة بدينة حمراء صخابة كانت تذكرنى بالجرس . وكان بيتها الصغير المبنى فى وهدة قاتما خربا يكسوه الطحلب ، وكانت نافذتاه تطلان فى سماحة على الحقل والوادى العميق ، والغابة التى تبدو من بعيد كأنها سحابة زرقاء ثقيلة . وكان الجنود يجوسون أو يعـــدون بين الحقول طول النهار ، وحرابهم تلمع كالبرق الأبيض تحت الأشعة المائلة من شمس الخريف .

وكان يملأ المنزل قوم أدهشنى أمرهم جداً . كان يسكن الطابق الأول جندى من بلاد التتار ، مع زوجته الصغيرة الطروب التى كانت تصيح من الصباح إلى المساء وتضحك وتضرب على قيثارة كثيرة الزخرف ، وتغنى بصوت عال كصوت الناى . وهذه هى الأغنية التى كانت تغنيها كثيراً :

« أنت تحب واحدة . ولكنك لن تحظى بحبها .
ابحث ! فلابد أن تجد أخرى .

وإنك لواجدها تفوق الأولى سبعاً .
فى جمالها وحنانها . وجزاؤك قبلة .
أوه . يالر . . . و . . عة الجزاء ! » .

وكان الجندى — وهو مدور كالكرة — يجلس عند النافذة وينفخ وجهه الأزرق ويجيل فى خبث عينيه الحمراوين من جانب إلى آخر ، وهو يدخن غليونه الأبدى ، ويسعل أحيانا ويضحك بصوت غريب يشبه صوت الكلب :

— فووخ . فو و خ !

وكان يسكن الغرفة المريحة التى بنيت فوق القبو والاصطبل اثنان من سائقى العربات — العم بطرس الضئيل الأشيب ، وابن أخيه ستيفان الأبكم ، وهو فتى لطيف لاه ، كان وجهه يذكرنى بصينية نحاسية ؛ ورجل تترى طويل الساقين كئيب اسمه فالاى كان خادما لأحد الضباط .

كان هؤلاء الناس جميعا شيئا جديدا على كل الجدة - كانوا « مجهولات » بديعة ؛ ولكن الذى اجتذب انتباهى واستحوذ عليه استحواذا خاصا ، كان الساكن المسمى «شىء جميل» وكان يستأجر غرفة فى ظهر المنزل بجوار المطبخ — غرفة طويلة ذات نافذتين تطل إحداهما على الحديقة والأخرى على الحوش ؛ وكان رجلا نحيلا مقوسا ذا وجه أبيض ولحية سوداء مفروقة وعينين حانيتين وضع عليهما منظارا . كان صامتا وديعا ، وإذا دعى للغداء أو الشاى كان جوابه الذى لا يتغير هو « شىء جميل » فبدأت جدتى تسميه بذلك فى محضره ومغيبه . تقول : « لينكا ! أدع » « شىء جميل » يتناول الشاى » أو : أنت لا تأكل شيئا يا « شىء جميل » .

وكانت غرفته غاصة مزحومة بأنواع من الصناديق والكتب الضخمة التى بدت لى غريبة بأحرفها الروسية . وكان هناك أيضا قنانى بها سوائل مختلفة الألوان وأكوام من النحاس والحديد وقضبان من الرصاص . كان يرتدى سترة جلدية محمرة وسروالا أشهل مربعا قد تلوث بصنوف الطلاء ، وانبعثت منه رائحة كريهة ، وهو ما يزال من الصباح إلى المساء قذرا قلقا يصهر الرصاص ، ويلحم بعض الأدوات النحاسية ، ويزن أشياء بميزان صغير ، ويصرخ حين يحرق أصابعه ثم ينفخها متجلدا . أو كان يدنو عاثرا من خريطة على الحائط ينشقها وهو يجلو زجاج منظاره ، ويكاد يلمسها بأنفه الدقيق الشديد الشحوب ؛ أو كان يقف ساكنا بغتة لفترة طويلة فى وسط الغرفة أو عند النافذة وقد أغمض عينيه ورفع رأسه ، كأنه تخدر تخديرا تاما .

وكنت أصعد فوق سطح الكوخ حيث أستطيع أن أنظر عبر الحوش فكنت أرى من النافذة المفتوحة مصباح الكحول على المائدة ، وصورته القاتمة وهو يكتب أشياء فى دفتر ممزق ، وزجاج منظاره يلمع بضوء مائل إلى إلى الزرقة كأنه الثلج . وكثيرا ما أبقانى العمل السحرى لهذا الرجل ساعات كاملة على السقف ، وقد أثار تطلعى حتى عذبنى . وكان يقف عند النافذة أحيانا فكأنها إطار له ، ويداه وراء ظهره وهو يصوب النظر إلى السقف . والظاهر أنه لم يكن يرانى فكان ذلك يسوءنى . وبغتة كان يعود إلى المائدة وينحنى عليها ويأخذ يفتش حوله .

أظن أنه لوكان غنيا حسن النبرة لخشيته ، ولكنه كان فقيرا ترى ياقة قميصه القذرة فوق ياقة سترته ، وسرواله مرقعا ملوثا ، وخفيه فى قدميه العاريتين باليين ـ كان فقيرا والفقراء لايشعرون بالرهبة أو الخطر . وقد تعلمت هذا ـ دون وعى ـ من احترام جدتى الأسيف لهم ، ومن ازدراء جدى .

لم يكن أحد فى المنزل يحب « شىء جميل » بل كانوا جميعا يسخرون منه . كانت زوجة الجندى المرحة تنبزه بلقب « أنف الطباشير » وكان عم بطرس يسميه « الصيدلى» أو «الساحر» وكان جدى يدعوه « المشعوذ » أو « الماسونى » . سألت جدتى :

ـــ ماذا يعمل ؟

ـــ ليس هذا من شأنك . اسكت !

ولكنى استجمعت شجاعتى ذات يوم وذهبت إلى نافذته وسألته وأنا أجهد فى إخفاء اضطرابى :

ـــ ماذا تعمل ؟

فجفل وحدق فى فترة طويلة من فوق زجاج منظاره ، ثم قال وهو يمد لى يده التى تغطيها ندوب من أثر الاحتراق :

ـــ اصعد !

وقد زاد فى قدره عندى رغبته فى أن أدخل عن طريق النافذة لا الباب . جلس على صندوق وأوقفنى أمامه ، ثم ابتعد ورجع ثانية ودنا منى جدا وسألنى بصوت خافت :

ـــ من أين أتيت ؟

كان ذلك غريبا . فقد كنت أجلس قريبا منه على المائدة أربع مرات كل يوم أجبت :

ـــ أنا حفيد صاحب المنزل .

قال وهو ينظر إلى أصابعه :

— آه نعم .

ولم يزد. فظننت أن الأمر يقتضى تفسيرا . قلت :

— أنا لا أنتمى إلى كاشيرين — إن اسمى بيشكوف .

فردد غير مصدق :

— بيشكوف . شيء جميل .

ونهض وهو ينحنى جانبا ، وقال وهو يذهب إلى المائدة :

— اجلس الآن ساكنا

فجلست وقتا طويلا جدا أرقبه وهو يحك قطعة من النحاس المبرود ، ويضعها فى مكبس فتسقط البرادة كالتبر على قطعة من الورق المقوى . وكان يجمع هذه البرادة فى راحته ويرجها فى إناء منبعج ، ثم يضيف إليها مسحوقا أبيض كالملح أخذه من قنينة صغيرة ، وسائلا صبه من زجاجة قاتمة . ولم يلبث الخليط الذى فى الإناء أن راح ينش ويدخن ، وصافحت مناخرى رائحة لاذعة جعلتنى أسعل بشدة . قال الساحر فى نبرة مزهوة :

— آه . إن رائحته كريهة أليس كذلك ؟

— أجل .

— حسنا . هذه دلالة النجاح يا بنى .

فقلت لنفسى :

— ماذا هناك يبعث على الزهو ؟

ورفعت صوتى أقول فى حزم :

— إذا كانت الرائحة كريهة فليس ذلك نجاحا .

فقال متعجبا وهو يغمز :

— حقا ! لا يلزم ذلك دائما يا بنى . على أية حال — أتلعب البراجم .

— تعنى الكعوب ؟

— هو ذاك .

— أجـــل .

— أتريد أن أصنع لك طارحاً ؟

— حسن . أعطنى الكعوب إذن .

فدنا منى مرة أخرى وهو يحل الإناء المدخن فى يده وقال وهو ينظر فيه بعين واحدة :

— سأصنع لك الطارح ، وتعدنى ألا تدنو منى مرة أخرى — أتوافق ؟

فاستأت لذلك استياء شديدا .

ـــ لن أدنو منك مرة أخرى . لن أدنو !

وتركته ساخطا وخرجت إلى الحديقة ، حيث كان جدى يروح ويجيء ، يفرش السماد حول جذور أشجار التفاح فقد كان الوقت خريفا وقد سقطت الأوراق من عهد بعيد .

قال جدى وهو يعطيني المقص :

ـــ هاك ! قلِّم أفرع الخداش .

سألت :

ـــ ترى ما عمل « شيء جميل » !

ـــ عمل ... واها . إنه يخرب غرفته . هذا كل شيء . الأرض محرقة والستائر ملوثة ممزقة . سأطلب إليه أن يتحول .

قلت وقد بدأت أقلم الفروع الجافة من شجيرات الخداش :

ـــ هذا خير ما يمكن أن يفعل .

ولكنى كنت عجولا .

اعتادت جدتى فى الأماسى الماطرة حتى يخرج جدى ، أن تعد العدة لحفلة صغيرة شائقة فى المطبخ ، تدعو إليها سكان المنزل جميعا لتناول الشاى . فكان السائقان وخادم الضباط وبتروفنا البدينة يأتون غالبا ، بل إن الساكنة الصغيرة المرحة كانت تجيء أحيانا ، ولكن « شيء جميل » كان يقبع دائما فى ركنه بجانب الموقدة ساكنا صامتا . وكان ستيفان الابكم يلعب الورق مع التترى ؛ وكان فالاى يصفق الورق على أنف الأبكم العريض ويصيح:

ـــ التوزيع لك !

كان عم بطرس يجلب كتلة ضخمة من الخبز الأبيض وبعض المربى فى علب كبيرة طويلة، وكان يقطع الخبز شرائح ينشر عليها المربى بسخاء ، ويوزع الشرائح الحلوة المكسوة بمربى التوت وهو يقدمها على راحته إلى الجميع بانحناءة كبيرة . ويرجو متأدبا :

ـــ تفضل على بأكل هذه .

وبعد أن يقبل كل واحد شريحة ، يدقق عم بطرس النظر فى يديه السوداوين فإذا لاحظ عليها قطرات من المربى لعقها .

وكانت بتروفنا تجلب شيئا من شراب الكرز فى زجاجة ، وكانت السيدة المرحة تأتى بالحلوى والبندق . وهكذا يبدأ الحفل فتسر به الجدة العزيزة السمينة سرورا عظيما .

أقامت جدتى إحدى حفلاتها بعد قليل من محاولة « شىء جميل » أن يرشونى فلا أذهب إليه مرة أخرى .

كان يتساقط فى الخارج مطر خريفى ضعيف ، وكانت الريح تعول . والأشجار تحف وتحك الجدران بأغصانها ، ولكن الجو فى المطبخ كان دافئا ناعما وقد جلسنا متلاصقين نحس احساسا رخيا من التعاطف ، وجدتى تقص علينا — فى سخاء غير مألوف — القصة تلو القصة ، وكل واحدة تفوق الأخرى . كانت جالسة على حافة الفرن وقد أراحت قدميها على الحافة السفلى ، وانحنت نحو سامعيها وقد انعكس عليها ضوء مصباح صغير من الصفيح . وكانت تجلس هذه الجلسة دائما حين يروقها أن تروى الأقاصيص وكانت تقول مفسرة :

— يجب أن أنظر إليكم من عل ، فأنا أحسن الحديث دائما فى هذا الوضع .

وضعت نفسى عند قدميها على الحافة العريضة ، أكاد أحاذى رأس ، « شىء جميل » وقصت علينا جدتى قصة إيفان المحارب والراهبة ميرون الجميلة فى فيض سلسل من الكلمات الغنية المختارة .

* * *

كان هناك قائد أثيم اسمه جورديون .

كانت روحه شريرة وكان ضميره من الحجر .

وكان يكره الحق ؛ ولم يكن يعوزه الضحايا ،

المصفدون بالاغلال أو المشردون على آلة التعذيب .

وكان هذا الرجل يعيش مسربلا بالشر .

كالبومة الآوية إلى شجرة خاوية .

ولم يكن هناك من يثير حقده وخوفه .

مثل الراهب ميرون الذى يحبه الناس .

وهو وديع لطيف ولكنه عنيف فى كفاحه عن الحق .

فدبر مقتله دون تأثم أو رحمة .

نادى القائد خير من يثق به من أعوانه :

— ايفان المحارب — الذى قدر أن يقتل بيديه المجربتين .

الراهب الأعزل البرىء .

قال : « يا إيفان ! لطالما تحدى قوتى ،

ذهن الراهب ميرون الداهية .

إن هذا الراهب المتكبر خليق بالموت ،

وقد دقت الآن ساعة وداعه للأرض .

لقد كان لعنة منذ ولد .

اذهب واقبض عليه من لحيته الموقرة .

واجلب إلىّ الرأس الذى خافه الجبناء ،

فتلتهمه كلابى بفرح وشدة .

رأس ذلك الذى طمع فى السلطان ،

سار إيفان فى طريقه طائعا ولكنه قال لنفسه بمرارة :

— لست أنا الذى يقترف هذا الإثم .

وإنما أذهب رعاية لسيدى .

وقد أخفى سيفه الباتر كى لا يفضح ما انتواه فى ذلك اليوم من الشر .

وحيا الراهب بصوت ماكر :

— يسعدنى أن أراك فى صحة جيدة !

باركنى يا أبتاه ! وليباركك الله .

فضحك الراهب ضحكة مبتسرة ولم يكثر فى الكلام :

— كفى يا إيفان ! إن أكاذيبك لا تخدع .

أرجو أن تؤمن أن الله عليم بكل شىء .

ولا يحدث خير أو شر على غير أرادته .

أنت ترى أنى أعلم لماذا قدمت إلى » .

وقف إيفان أمام الراهب خجلا خائفا من الرجل الذى جاء يقتله .

فسل سيفه متكبرا من غمده الجلدى وشحذ حده اللامع حتى بدا جديدا .

قال : لقد أردت أن أبنتك .

ولكنى الآن أخشى أن أقتلك قبل أن ترتل صلواتك .

سأمنحك وقتا تصلى فيه لله .

وسأمكنك من أن تقول كل ما تريد .

لى ولك وللجميع : من ولد ومن لم يولد .

ثم أبعث بك حيث صعدت صلواتك ،

ركع الراهب ، وكانت تنتشر فوقه سنديانه .

أحنت رأسها أمامه . ثم قال بابتسامة ماكرة :

أوه . يا إيفان ، أمعن فكرك !

فأنا لا أستطيع أن أقول كم تظل صلاتى .

ألا تفضل أن تبادر فتقتلنى .

كى لا يتعبك الانتظار ، ويغضبك التأخر ؟ ،

فعبس إيفان غاضبا وقال مزهواً :

— لقد قلت كلمتى . ولو أنك أبقيتنى فى مكانى قرنا لا نتظرت .

فصل فى سلام . ولا يفتر حماسك ، .

انسدلت ظلال المساء على الراهب وغرق فى الصلاة طوال الليل.

ومن الفجر إلى المغرب وخلال ليلة أخرى .

ومن أيام الصيف الذهبية إلى الخريف العليل .

وكذلك مرت صلات ميرون الشيخ عاما بعد عام

ولم يجسر إيفان على ازعاجه .

ورفعت السنديانة النابتة أغصانها الشامخة فى السماء ،

بينما ظهرت حولها فسائلها وقد نمت منها غابة كثيفة .

وظلت الصلاة القدسية طوال الزمن ولا زالت إلى هذا اليوم .

فالشيخ يصلي لله فى رفق .

ولسيدتنا أم الجميع :

أن يعينا من يتهالك ويسقط من الرجال والنساء

ويغيثا الضعاف ، ويمنحا الفرح للمحزونين .

ويقف إيفانوشكا المحارب عن قرب وقد غطى الغبار سيفه

اللامع منذ وقت طويل ويرى درعه الصدأ الأكول .

وتمزقت كسوته النبيلة من بعيد وتعرى جسده وتلوث بالوحل .

الحر يجففه والدفء لا يصيبه .

إن مصيره لتجمد له أقسى القلوب .

إن الذئاب المفترسة والدببة المتوحشة لتهرب

منه لا تنال منه عواصف الثلج والصقيع معاً .

إنه لا يقوى على التحول عن هذه البقعة الرهيبة .

ولا يستطيع أن يرفع يديه ، وليس له أن يتكلم .

فلنعتبر بمصيره المخيف .ولا نهذر بالطاعة والخضوع .

إذا أمرنا أن نقترف إثما وجب أن نصمد ونكون أقوياء .

إن الراهب ما يزال يصلي لنا نحن الخاطئين .

ولا تزال صلاته تصعد إلى الله ، حتى هذه الأيام .

إنها نهر صاف نقي يسيل إلى البحر .

* * *

وقد لاحظت قبل أن تصل جدتى إلى نهاية قصتها أن «شيء جميل» ، قد اضطرب لسبب ما كان يحرك يديه فى اضطراب ويرفع منظاره ويضع على عينيه ثانية ، ويلوح بيديه يوقت الكلمات ، ويحنى رأسه ، ويضع أصابعه فى عينيه أو يفركهما بشدة ويمر يديه على جبينه وخديه كأنه يتصبب عرقا . فإذا تحرك أحد الحاضرين أو سعل أو حك قدمه فى الأرض ، همس الساكن : «شش» ، وإذا كفت جدتى عن الكلام ، وزاحت تمسح وجهها الناضح بالعرق بكم جلبابها ، وثب فى جلبة ومد يديه كأنه يحس الدوار وتمتم :

— أقول ! هذا رائع ! ينبغى أن يكتب . حقا . ينبغى بالصدقه أيضا . . . إننا . . .

وكان الجميع يستطيعون أن يروا الآن أنه يبكى ، فقد امتلأت عيناه بالدموع التى أخذت تنهمر حتى سبحت عيناه فيها ـ منظر غريب مؤلم . وكان يبدو مضحكا جدا وهو يدور فى المطبخ ، أو لعله يحجل فيه ، وهو يرجح منظاره أمام أنفه ، يريد أن يضعه ثانية ولكنه لا يستطيع أن يضع سلكيه على أذنيه حتى لقد أضحك عم بطرس وصمت الآخرون مرتبكين .

قالت جدتى بصوت أجش :

— لك أن تكتبها إذا شئت . لا ضير فى ذلك . وأنا أعرف كثيراً من نوعها .

فصاح الساكن مضطربا :

— كلا . هذه هى الوحيدة التى أريدها . إنها مروعة فى روسيتها .

وبدأ يتكلم بصوت عال وقد وقف جامدا فى وسط المطبخ ، يلوح بيده اليمنى ومنظاره فى الأخرى . ولبث يتكلم حينا فى حالة من الخبل ، ويعلو صوته إلى الصراخ ، ويدق بقدمه الأرض ، ويبدىء ويعيد .

— إذا أمرنا أن نقترف إثما ، وجب أن نصمد ونكون أقوياء . حق . حق .

ثم انقطع صوته بغتة وكف عن الكلام وتصفحنا جميعا بنظره ، وغادر الغرفة فى هدوء مطأطأ الرأس يبدو كأنه ارتكب إثما .

ضحك سائر الضيوف وتلاحظوا فى ارتباك ، واضطجعت جدتى على الفرن ، وغابت فى الظل وسمعت لها زفرات عميقة .

قالت بتروفنا وهى تحك راحة يدها على شفتيها الغليظتين الحمراوين :

— يبدو أنه مهتاج .

فأجاب عم بطرس :

— كلا تلك عادته .

ونزلت جـــدتى عن الموقدة وبدأت تسخن السماور فى هدوء ، وأردف عم بطرس فى صوت بطىء :

— إن الله يجعل الناس كذلك فى بعض الأحيان ... شواذ .

قال فالاى بخشونة :

— الأغراب يبدون الحمق دائما . . .

فضحك الجميع ولكن عم بطرس تمتم :

— إنه كان يبكى حقا . تلك حاله . يقضم فيها السمك الرمحى مالا يستطيع ...

بدأت أسأم هذا كله ، وشعرت بالأسى . وكانت دهشتى عظيمة من مسلك « شىء جميل » وأسفت له أسفا شديداً ، ولم أستطع أن أبعد عن ذهنى عينيه السابحتين فى الدموع .

لم ينم تلك الليلة فى البيت ، بل عاد فى اليوم التالى بعد الغشاء ـ هادئا محطا ظاهر الحيرة .

قال لجدتى كأنه طفل مذنب :

ـــ لقد أسأت السلوك ليلة أمس . ألست غاضبة ؟

ـــ ولماذا أغضب ؟

ـــ لأنى تطفَّلت . . . وتكلمت . . .

ـــ أنت لم تسىء إلى أحد .

شعرت بأن جدتى تخافه ، فقد كانت لا تصعد إليه النظر ، وكانت تتكلم بنبرة خاضعة وكانت لاتشبه نفسها قط . فدنا منها وقال ببساطة مدهشة :

ـــ ترين ، أنى شديد الوحشة . ليس لى من يمت إلى بسبب . أنا صامت دائما ـ صامت ثم يبدو بغتة أن نفسى تغلى كأنها تفجرت،وفى تلك الأحيان ربما كلمت الأحجار والأشجار . .

بعدت جدتى عنه وبدأت تقول :

ـــ لو أنك تزوجت الآن . . .

فصاح مجعدا وجهه وهرول خارجا وهو يرفع ذراعيه فى وحشية :

ـــ ماذا ؟

فنظرت جدتى خلفه معبسة ، ونشقت نشقة ، قالت بعدها محذرة إياى :

ـــ لا تكثر من ملازمته . أتسمع ؟ يعلم الله أى رجل هو !

ولكنى تعلقت به من جديد . لقد رأيت كيف تغير وجهه وذل حين قال : « شديد الوحشة » كان فى تلك الكلمات شىء فهمته جيداً ، وتأثر قلبى . وقد ذهبت أبحث عنه .

نظرت من الحوش إلى نافذة غرفته ، وكانت خالية تبدو كأنها مخزن متاع ألقيت فيه على عجل صنوف الأشياء المنبوذة ـ المنبوذة الشاذة مثل ساكنها . وذهبت إلى الحديقة ، وهناك رأيته عند الحفرة . كان منحنيا ويداه وراء رأسه ومرفقاه على ركبتيه ، وقد استراح إلى جلسته على طرف كتلة نصف محترقة . كان أكثر هذه الكتلة مدفونا فى الأرض ، ولكن طرفها كان بارزا يلمع كالفحم على حافة الحفرة التى تكسوها الأشواك .

وقد زاد وجوده فى ذلك المكان الشظف من عطفى عليه . ومضت فترة وهو لا يلحظنى فقد كان يحدق فيما ورائى بعينيه العمشاوين الشبيهتين بعينى البومة ، ثم سأل بغتة فى نبرة غليظة.

ـ هل أردت منى شيئاً ؟

ـ كلا .

ـ فلماذا أنت هنا أذن ؟

ـ لا أدرى .

فنزع منظاره ، ومسحه بمنديله المنقط بالأحمر والأسود وقال :

ـ حسنا ، اصعد إلى هنا . .

وحين جلست إلى جانبه وضع ذراعه حول كتفى وضمنى إليه .

ـ اجلس . دعنا نجلس الآن هادئين صامتين . أيروقك ذلك ؟ هذا عين ... أأنت عنيد ؟

ـ نعم .

ـ شىء جميل .

وصمتنا فترة طويلة ، وكان المساء ساكنا رائقا ، من تلك الأماسى الحزينة فى أواخر الصيف ، حين تكثر الأزهار وتبدو مع ذلك علائم الذبول ، وتأتى كل ساعة بالجدب ، حين تستهلك الأرض روائح الصيف الناعمة ، ولا يعود لها من ريح غير الرطوبة الباردة . حين يشف الهواء شفافية غريبة ، وينطلق الزاغ يروح ويجىء دون غاية فى السماء الحمراء ، فيثير الشعور بالتعاسة . ران الصمت ، وكان أى صوت مثل رفيف الطيور أو حفيف السفير ، يبده المرء كأن ارتفاعه غير طبيعى ، فيجفل ويرتجف ثم لا يلبث أن يغيب ذلك فى السكون الخدر الذى يبدو أنه يشمل الأرض ويسحر القلب. فى مثل هذه اللحظات تتولد أفكار ذات نقاء غريب ـ أفكار أثيرية ، دقيقة شفافة كخيوط العنكبوت ، لا يمكن أن تعبر عنها الكلمات . إنها تجىء وتمضى مسرعة كالشهب ، توجج فى النفس لهيب الأسى ، وتسرها وتسوءها فى آن ، وكأن النفس على نار فهى لمرونتها تنطبع بطابع يبقى على الزمن .

أخذت وأنا ملاصق لجسد الساكن الدافىء ، أحدق معه من بين أغصان شجرة التفاح السوداء ، إلى السماء الحمراء ، أتتبع الغربان المحومة فى طيرانها ، وأرى كيف تهتز رءوس الخشخاش الجاف على أعواده وهو ينثر بذوره الخشنة ، وألاحظ السحب الممزقه الزرقاء القاتمة المسودة الحواشىء الممتدة فوق الحقـــول ، والغربان تطير مثقلة تحت السحب إلى أعشاشها فى المقبرة .

كان كل شيء جميلا، وقد بدا فى تلك الأمسية خاصة رائع الجمال، مساوقا لمشاعرى . كان رفيقى يقول أحيانا بزفرة عميقة :

— هذا حسن يا بنى أليس كذلك ؟ أولا تحس الطل ولا البرد ؟

وحين أظلمت السماء ، وامتد الغسق المطازل على كل شيء . قال :

— حسنا لا حيلة لنا . ينبغى أن ندخل .

ووقف عند باب الحديقة وقال بلطف :

— إن جدتك امرأة رائعة . يا لها من كنز !

وأغمض عينيه مبتسما وأنشد بصوت خفيض واضح جدا :

فلنعتبر بمصيره المخيف .

ولا نهذر بالطاعة والخضوع .

فإذا أمرنا أن نقترف إثما .

وجب أن نصمد ونكون أقوياء .

— لا تنس هذا يا بنى !

وسأل وهو يدفعنى أمامه :

— أتعرف الكتابة ؟

— كلا .

— ينبغى أن تتعلم ، فإذا تعلمت فاكتب أقاصيص جدتك . ستجدها ذات قيمة يا بنى .

وهكذا أصبحنا صديقين ، ومنذ ذلك اليوم كنت أزور «شيء جميل» ، كلما شعرت بميل إلى ذلك . فأجلس على أحد الصناديق أو بعض الخرق ، أرقبه وهو يصهر الرصاص ويحمى النحاس حتى يحمر ، ويطرق صفائح من الحديد على سندان صغير ، بمطرقة لطيفة المقبض خفيفة ، ويعمل بمبرد أملس ومنشار من السنباذج دقيق كالخيط . وكان يزن كل شيء فى الكفتين النحاسيتين الدقيقتى الوضع ، وإذا صب سوائل مختلفة فى قنانى بيضاء منبعجة وقف يرقبها حتى تدخن وتملأ الغرفة برائحة نفاذة ، ثم يرجع إلى كتاب ضخم مجعدا وجهه وهو يعض شفتيه الحمراوين أو يغمغم غمغمة لطيفة بصوته الأجش :

— أوه . ياوردة شارون !

— ماذا تفعل ؟

— أصنع شيئا يا بنى .

— ما هو ؟

ـــ آه . لا أستطيع أن أخبرك به . إنك لن تفهم .

ـــ يقول جدى إنه لا يدهشه أن تكون مزيف نقود .

ـــ جدّك ؟ مم ! حسنا . تلك كلمة يقولها . إن المال شيء لا قيمة له يا بنى .

ـــ وكيف نشترى الخبز بدونه ؟

ـــ أجل نحن نريده لذلك . هذا صحيح .

ـــ واللحم أيضا .

ـــ نعم واللحم .

وابتسم فى هدوء ، وفى عطف دهشت له ، وقال وهو يجذب أذنى :

ـــ لا فائدة فى مجادلتك . أنت تفوز دائما . خير لى أن أصمت .

وكان أحيانا يترك عمله ، ويجلس إلى جانبى يحدق خارج النافذة فترة طويلة ، يرقب المطر وهو ينقر على السقف ، ويتأمل العشب ، كيف يكسو الحوش ، وأشجار التفاح كيف عرّيت من أوراقها . كان «شيء جميل» ، شحيحا بكلامه ، ولكن قوله سديد ، وكان كثيراً ما يستغنى عن الكلام بأن يكزنى أو يغمز لى حين يريد أن ينبهنى إلى شيء ما . ولم أكن أجد فى الحوش مايشوق قط ، ولكن بدا لى أن وكزاته وكلماته الموجزة قد جعلت للحوش منظرا مختلفا ، وأصبح كل مايقع تحت النظر خليقا بالملاحظة . ركضت قطة ثم وقفت أمام بركة لامعة تحدق فى صورتها وهى ترفع كفها الناعمة كأنها تهمّ بضربها ، فقال «شيء جميل» ، فى هدوء :

ـــ القطط مغرورة مرتابة .

ثم كان هناك الديك الذهبى مامى الذى كان يطير إلى سياج الحديقة يحاول أن يحتفظ بتوازنه وينشر جناحيه ويكاد يسقط ، فيضطرب لذلك اضطرابا شديدا ويزقو غاضبا وهو يمد عنقه .

ـــ جنرال مغرور . . ولكنه لا يحذق ذلك .

ومر فالاى الأعسر يخوض الوحل كحصان عجوز ، وقد بدا وجهه الناتىء الوجنتين منتفخا وهو يحدق فى السماء ويطرف ، وقد سقطت أشعة الخريف الشاحبة على صدره ، وجعلت أزرار سترته النحاسية تلمع لمعانا شديدا . وقف التترى وأخذ يلمس الأزرار بأصابعه المعوجة ـ «كأن الأزرار أوسمة منحت له» .

وتوثقت علاقتى «بشيء جميل» ، وقويت على الأيام حتى رأيت أنْ لا غناء عنه فى أيام حزنى المرير فى ساعات هناءتى . كان هو نفسه صموتا ولكنه لم يكن مع ذلك يمنعنى من الكلام عن أى شيء يخطر ببالى ، على حين كان جدى يقطع حديثى دائما بصيحته الصارمة :

ـــ لاتهذر ياطاحونة ابليس .

وكانت جدتى أيضا قد امتلأت بأفكارها حتى لم تعد تصغى إلى أفكار الآخرين أو تتقبلها ، ولكن «شيء جميل» كان ينصت إلى هذرى فى انتباه دائما وكثيرا مايقول لى باسما :

— كلا يابنى ليس هذا حقا . تلك فكرة من خلقك .

وكانت ملاحظته المقتضبة تلقى فى الوقت الملائم ، وحين تمس الحاجة إليها ، كأنه كان قادرا أن ينفذ من غلاف عقلى وقلبى ، ويرى كل ما يدور فيهما — بل يلمح الكلمات التافهة الخاطئة على شفتى قبل أن ألفظها — كان يلمحها ويكفُّها بضربتين رفيقتين :

— خطأ يابنى .

وكنت أحاول أحياناً أن أستخرج مواهبه الشبيهة بالسحر ، فألفق شيئا وأقصه عليه كأنه وقع حقاً ، ولكنه كان بعد أن يصغى إلىَّ زمنا يهز رأسه ويقول :

— ذلك غير صحيح يابنى .

— كيف علمت ؟

— أستطيع أن أحس ذلك يابنى .

وكانت جدتى كثيرا ما تأخذنى معها — حين تذهب لتجلب الماء من ميدان سينيو ، وقد رأينا ذات مرة خمسة من أهل المدينة يعتدون على فلاح ، فيلقونه على الأرض ويجرونه كما قد تفعل الكلاب بواحد منها ، فأزلقت جدتى دلوها عن النير ، وخفت إلى النجدة وهى تلوح به وتصيح بى فى ذهابها :

— اهرب أنت الآن !

ولكنى كنت فزعا ، فأخذت أقذف أهل المدينة بالحصى والحجارة الكبيرة وأنا أجرى وراءها ، وكانت تدفعهم باليد غير هيّابة وتضربهم على أكتافهم ورءوسهم . وحين توافد الناس على المكان هربوا ، فأخذت جدتى تغسل جراح المصاب . كان وجهه مكدّماً ، وقد ملأنى الاشمئزاز لمنظره وهو يتحسس بأصابعه القذرة أنفه المشروم ويعوى ويسعل ، والدم ينبجس من تحت أصابعه فوق وجه جدتى وصدرها ، وقد صرخت هى أيضاً وارتجفت ارتجافاً شديداً .

وما رجعت إلى المنزل حتى جريت إلى الساكن ، وبدأت أقص عليه كل ما حدث . فكف عن العمل ، ووقف أمامى ينظر إلىَّ نظرة ثابتة صارمة من تحت زجاج منظارة ، ثم قاطعنى فجأة وأخذ يتحدث فى حرارة غير مألوفة منه :

— ذاك شىء لطيف . حقاً — لطيف جداً

وكنت مأخوذاً بالمنظر الذى شهدته ، فلم أدهش لكلماته ، ومضيت فى قصصى ، ولكنه طوقنى بذراعه ، ثم تركنى وراح يتمشى فى الغرفة حائرا . قال :

— كفى . لا أريد أن أسمع أكثر مما سمعت . لقد ذكرت كل ما تحتاج إلى ذكره ياولدى ؛ كله . أتفهم ؟

فابتأت ولم أجب ، ولكنى حين قلبت الأمر فيما بعد ، دهشت دهشة لا زلت أذكرها جيداً حين وجدت أنه قطع حديثى فى الوقت الملائم تماماً . فقد كنت فى الحق ، قد ذكرت كل ما هناك ... قال :

ـــ لا تهتم بهذه الحادثة يا بنى . إنها ليست شيئاً جميلا تتذكره .

وكان ينطق أحيانا عفو الخاطر كلمات لم أنسها قط . أذكر أنى حدثته عن عدوى كليو شنيكوف من محاربى الشارع الجديد ـ وهو صبىّ سمين كبير الرأس لم أكن أستطيع التغلب عليه ، ولم يكن هو يستطيع ذلك . فاستمع « شىء جميل » إلى شكايتى فى انتباه ثم قال :

ـــ هذا كله هراء ! لا قيمة لذلك النوع من القوة . إن القوة حقا هى الحركات السريعة . والأقوى هو الأسرع حركة . أترى ؟

وفى الأحد التالى ، أعملتُ قبضتى بسرعة أكبر ، فقهرت كليو شنيكوف بسهولة ، وقد جعلنى ذلك أشد عناية بما يقوله الساكن :

ـــ يجب أن تتعلم كيف تقبض على صنوف الأشياء ، أترى؟ إنّ من الصعب تعلُّمَ القبض.

لم أفهمه البتة ، ولكنى برغمى ، ذكرت هذا وكثيراً غيره من الأقوال الشبيهة به ، وعلقتْ هذه القولة خاصة بذهنى ، إذ كانت شديدة الغموض على بساطتها . لا شك أنه لاحاجة بالمرء إلى مهارة خارقة ليقبض على الأحجار أو على كسرة خبز أو كوب أو مطرقة .

على أن حبّ أهل المنزل « لشىء جميل » كان يتناقص على الأيام . بل أن هرة السيدة المرحة الأليفة لم تعد تثب على ركبتيه كما تثب على الآخرين ، ولم تعد تبالى به حين يدعوها بلطف . وقد ضربتها لذلك وجذبت أذنيها ، وطلبت إليها وأنا أكاد أبكى ـ ألا تخشى الرجل . قال مفسرا :

ـــ إن هذا لانبعاث رائحة الحوامض من ملابسى ـ هذا هو السبب فى أنها لا تأتى إلى .

ولكنى كنت أعلم أن الجميع حتى جدتى ، كانوا يفسرون الأمر تفسيراً يختلف اختلافا تاما : تفسيرا جافيا كاذبا جارحا له . سألنى جدى غاضبا :

ـــ لمَ تلازمه دائما ؟ إنه سيعلمك شيئا سيئا ـ سترى !

وكان جدى يضربنى بقسوة كلما زرت الساكن الذى كان جدى يعتقد اعتقادا جازما بأنه وغد.

ولم أذكر بالطبع « لشىء جميل » أن صداقته محرمة علىّ ، ولكنى كنت أحدثه بصراحة عما يقال عنه فى المنزل :

ـــ إن جدتى تخافك . إنها تقول إنك ساحر . . . وجدّى أيضا ـ إنه يقول إنك من أعداء الله ، وإن بقاءك هنا خطر .

فكان يحرك يده حول رأسه كأنه يطرد الذباب . ولكن بسمة انتشرت انتشار الخجل على وجهه الأبيض كالطباشير . فتقاص قلبي ، وبدالي أن غمامة تزحف على عينيّ . قال بلطف :

— فهمت ! أمر مؤسف . أليس كذلك ؟

— أجل .

— أمر مؤسف يا فتاى ... أجل .

وأخيرا طلبوا إليه أن يتحول . وذات يوم ذهبت إليه بعد الإفطار ، فوجدته جالسا على الأرض يحزم أمتعته فى صناديق ، ويدندن بلطف عن وردة شارون .

— حسنا ، إنه الوداع الآن يا صديقى فأنا ذاهب .

— لماذا ؟

فثبت نظره علىّ وهو يقول :

— أمن الممكن ألا تعلم ؟ هذه الغرفة مطلوبة لأمك .

— من قال ذلك ؟

— جدك

— إذن فقد كذب !

فأدناني « شىء جميل » منه ، وحين جلست إلى جانبه على الأرض قال بلطف :

— لا تغضب . ظننتك علمت بذلك ولم تخبرنى . وخلتك لم تحسن معى صنعا .

إذن فقد كان هذا سبب حزنه وجفاء مسلكه . ومضى يقول فى شبه همس :

— إسمع ! أتذكر حين طلبت إليك ألا تأتى إلىّ أو تزورنى ؟

فأومأت برأسى .

لقد أسأت. أليس كذلك ؟

— أجل .

ولكنى لم أكن أقصد إلى إساءتك يا بنى . فقد علمت أنك إن صادقتنى ، لقيتُ من أسرتك المتاعب . ألم أكن على حق ؟ أتفهم الآن لماذا قلتها ؟

كان يتكلم كأنه طفل فى مثل سنى ، فطرت فرحا بكلماته . وشعرت بأنى كنت أعلم هذا طوال الوقت وقلت :

— لقد فهمت ذلك من زمن بعيد .

— حسنا . هاك الأمر . وقد حدث كما قلت لك يا طائرى الصغير .

كان الألم فى قلبى يكاد لا يطاق . قلت :

— لم لا يحبك أحد منهم ؟ .

فطوقنى بذراعه ، وضمنى إليه وأجاب وهو يطرف نحوى إذ ينظر إلىّ !

— أنا من سلالة أخرى — أترى ؟ هذا هو الأمر . أنا لست مثلهم . . .

لم أعدُ أن أمسكت بيديه ، وأنا لا أدرى ماذا أقول ، بل الواقع أنى كنت عاجزا عن أن أقول شيئاً . قال مرة أخرى !

— لا تغضب ! — ثم همس فى أذنى — ولا تبك أيضاً .

ولكن دموعه هو كانت طوال الوقت تنهمر انهمارا من تحت زجاج منظاره الملوث .

وجلسنا بعد ذلك كعادتنا فى صمت. تقطعه فى فترات نادرة كلمة موجزة أو كلمتان ، وقد ودّع الجميع فى ذلك المساء متلطفا ، واحتضننى فى حرارة . وصحبته إلى البوابة ، ورأيته يذهب فى العربة ، ويهتز اهتزازا عنيفا حين مرّت العجلات فوق أكوام الطين المتجمد .

وراحت جدتى من فورها تنظف الغرفة القذرة ، وتحك أرضها ، وأخذت أتنقل فيها من ركن إلى ركن أعوقها عامدا . صاحت حين عثرت بى :

— أخرج !

— لماذا طردتموه إذن ؟

— لا تتحدث عن أشياء لا تفهمها .

قلت :

— أنتم حمقى — كلكم !

فضربتنى بمسحة الأرض المبتلة صائحة .

— أجننتَ أيها الشقى الصغير ؟

قلت أحاول تهدئتها ولكن دون جدوى

— أنا لا أعنيك أنت ، بل الآخرين .

وعلى العشاء قال جدى .

— حمداً لله ، فقد ذهب ! لن يدهشنى بعدما رأيت منه ، أن أجده يوما وقد طعن فى قلبه بسكين . أغْ . . . لقد ذهب فى وقته .

كسرتُ ملعقة انتقاما ، ثم عدت إلى حالتى المألوفة من الصبر المرّ . وهكذا انتهت صداقتى لأول رجل من سلسلة الأصدقاء اللانهائية من أبناء وطنى ، بل من خيرة أبنائه .

الفصل التاسع

كأنى كنت فى طفولتى خلية يجلب إليها صنوف الناس السذج العاديين — كما يجلب النحل العسل — معرفتهم وأفكارهم عن الحياة , فيُغذون نفسى فى سخاء بما يعطون. كثيرا ما كان العسل قذرا مرا . ولكنه كان مع ذلك معرفة ، وعسلا .

أصبح عمى بطرس صديقى بعد رحيل « شىء جميل » وكان يشبه جدى فى مظهره ، فهو جاف أنيق نظيف ، ولكنه كان أقصر من جدى وأضأل منه بكثير . كان يبدو مثل شخص لم يكد يبلغ أشده ، قد لبس هزلا ملابس رجل شيخ . وكان وجهه مجعداً مثل قطعة مربعة من الجلد النفيس ، وترقص عيناه المضحكتان الزرقتان بياضهما الأصفر بين هذه التجاعيد مثل زرزورين فى قفص . وكان شعره الغدافىّ الضارب إلى الشيب ، جعداً ، وقد تحلّق شعر لحيته أيضاً ، وكان يدخن غليونا يتصاعد دخانه الذى يشبه لون لحيته ، فى حلقات كذلك . وكان أسلوبه فى الكلام زاهيا يحفل بالأقوال الأنيقة . وكان يتحدث دائما بصوت طنّان ورقة بالغة أحيانا . ولكنى كنت أرى دائماً أنه يسخر من كل أحد .

« قالت لى الكونتسه تانيان — وكان اسمها ليكسييفنا — حين ذهبت إليها أول مرة : « ستكون حدادا » ولكنها بعد فترة أمرتنى أن أساعد البستانى . « حسنا » ، لا بأس بذلك ، ولكنى لم أدخل خدمتك لأعمل فلاحا ، وليس من العدل أن يفرض على هذا . » وقالت لى مرة أخرى : « يجب يا تيروشكا أن تصيد السمك » . وكان يستوى عندى أن أكون صيادا أو لا أكون ، ولكنى آثرت أن أقول للسمك « وداعا » وشكراً — وأتيت إلى المدينة أعمل حوذيا . وهأنذا الآن حوذى ، ولم أكن شيئاً سوى ذلك قط . على أن التجول لم ينفعنى فى كثير حتى الآن . فلست أملك غير حصان يذكرنى بالكونتسة . »

كان هذا حصانا ناهرما ، وكان أبيض حقا ، ولكن حدث يوما أن أحد النقاشين السكارى بدأ يطليه بألوان مختلفة ولم يتم عمله قط . كانت قوائمه مخلعة وكان يبدو كأنه جمّع من خرق خُببك بعضا إلى بعض ، وكان رأسه الأعجف بعينيه المعتمتين الكسيرتين يربطه ربطا واهيا بهيكله عروق منتفخة وجلد رثّ . وكان عمى بطرس يسهر على خدمته باحترام كبير ، ويسميه « پانكو » .

سألته جدتى يوما .

ـــ لم لا تسمى ذلك الحيوان باسم مسيحى ؟

ـــ كلا البتة يا فاسيلى فاسيليف ، كلا ، البتة ، أقول هذا بكل احترام . ليس هناك اسم مسيحى مثل تانكا ـ ولكن هناك « تاتيانا » !

كان عمى بطرس مثقفا مطلعا ، وكان هو وجدى يختلفان فيمن هو الأخير بين القديسين، ويغضبان ، وكلاهما يبذ الآخر فى قسوته ، على الخاطئين فى الأزمنة الخالية . وكان أكثر هؤلاء تعرضا للشر أبسالوم . وكان النقاش أحيانا يتخذ شكلا نحويا خالصا ، فيقول جدى ، ينبغى أن يقال : « سوجر يشخوم ، بزاكو نوفا خوم ، بزا فدا فاخوم » ويصر عمى بطرس على أن تكون : سوجريشا بزكو نوفاشا ، نبرا فد وفاشا .

قال جدى غاضبا وقد اربد وجهه :

ـــ أنا أقولها بطريقة ، وأنت تقولها بأخرى !

ثم صاح فى سخرية :

ـــ فاشا ! شيشا !

ولكن عمى بطرس سأل فى حقد وقد لفه الدخان :

ـــ وما فائدة قولك « خوم » ؟ أتظن الله يلقى إليها بالا ؟ إن الله يقول حين يصغى إلى صلواتنا : « صلوا كيفما شئتم . صلوا بما شئتم » .

وصاح جدى مهتاجا وعيناه الخضراوان تقدحان الشرر :

ـــ اذهب يا ليكسى !

وكان بطرس مغرما بالنظافة والأناقة . وقد اعتاد حين يدخل الحوش ، أن يركل جانبا ماقد يكون هناك من القصاصات أو شقفات الآنية المكسورة ، أو العظام ، وهو يقول فى ازدراء :

ـــ هذه الأشياء لا تنفع ولكنها تعترض الطريق .

كان فى العادة ثرثارا سمحا مرحا ، ولكن كان يحدث أحيانا مع ذلك أن تحمر عيناه وتعتما وتثبتا كعينى الميت ، ويجلس قابعا فى ركن ، عابسا أبكم كابن أخيه .

ـــ ماذا بك يا عمى بطرس ؟

فيجيب منقبضا عابسا :

ـــ دعنى وحدى !

وكان يقطن أحد المنازل الصغيرة فى شارعنا سيد غريب العادات ، على جبينه أورام شحمية . كان يجلس عند النافذة أيام الآحاد ، ويطلق بندقية الصيد على الكلاب والقطط والدجاج والبقر وكل ما يمر به ولا يروقه . وقد استهدف يوما جنب « شىء جميل » ولكن الطلقات لم تخترق سترته الجلدية وسقط بعضها فى جيبه . ولن أنسى ما عشت اهتمام الساكن وهو ينظر إلى الطلقات الزرقاء القاتمة . وقد حاول جدى أن يجعله يقدم فى ذلك شكوى ، ولكنه أجاب وهو يلقى الطلقات فى ركن من المطبخ :

— الأمر تافه .

وفى مرة أخرى ، غرز الصياد بضع طلقات فى رجل جدّى ، فقدم فى غضبه شكاية إلى السلطات ، وراح يجمع أسماء الضحايا الآخرين والشهود من أهل الشارع ، ولكن الجانى اختفى فجأة .

أما عمى بطرس فكان كلما سمع صوت الطلقات فى الشارع ـ حين يكون فى المنزل ـ أسرع فغطى رأسه الأشيب بقبعة الأحد الصقيلة التى يتدلى منها غطاءان كبيران للأذن . ، واندفع إلى البوابة . وهناك يخفى يديه وراء ظهره ، تحت ذيل سترته الذى يرفعه مقلدا الديك ، ويروح وقد أبرز كرشه ، يمشى على الطوار فى اختيال ووقار إزاء الصياد ، ثم يكر راجعا . وكان يفعل ذلك مرة إثر مرة ، ويقف أهل منزلنا جميعا عند البوابة ، ونرى وجه السيد القرمزى العسكرى عند نافذته ، وفوق كتفه رأس زوجته الأشقر ، والناس يقدمون من ساحة بيتلنجا ، ولا يبقى ساكنا غير بيت أوفستيا نيكوف الهامد .

كان عمى بطرس يقوم بهذه الرحلات أحيانا فلا يأتى بنتيجة ما ، كان الصياد لا يراه فيما يظهر خليقا بمهارته فى الرماية ، ولكن البندقية ذات الطلقتين كانت تفرغ أحيانا مرة بعد أخرى :

— بم ! بم !

ويعود عمى بطرس إلينا بخطوات بطيئة ويقول فى فرح شديد :

— لقد أفرغ الطلقات كلها فى الحقل !

وذات مرة أصيب فى كتفه وعنقه ، وألقت عليه جدتى محاضرة وهى تخرج الطلقات بإبرة :

— لماذا بالله تشجع هذا الحيوان ؟ إنه سيعميك يوما .

فتمتم بطرس بازدراء :

— محال يا أكولينا إيفانا ، إنه ليس ماهرا فى الرماية .

— ولكن لماذا تشجعه ؟

— أتظنين أنى أشجعه ؟ كلا . أنا أحب إغاظة السادة .

ثم قال وهو ينظر فى راحته إلى الطلقة المستخرجة :

— إنه ليس ماهرا فى الرماية . ولكن كان هناك فى بيت سيدتى الكونتسة تاتيانا ليكسيفنا رجل من الجيش اسمه مارمونت إليتش . كان يشغل أكثر الوقت بالواجبات الزوجية — فقد كان الأزواج عندها فى مرتبة الخدم — وهكذا كان يظل مشغولا بها ، ولكنه كان قادرا على الرمى إذا شئت ولكن بالرصاص ، فقد كان يا جدة لا يرمى بغيره . وقد وضع ايجناشكا الأبله على مسافة أربعين خطوة أو نحوها ، وربط فى حزامه زجاجة ، ووضعها بحيث تتدلى بين رجليه . وإذ وقف إيجناشكا منفرج الرجلين يضحك ضحكته البلهاء ، تناول مارمونت إيليتش غدارته و... أطلق ! فهشمت الزجاجة . غير أن إيجناشكا — وا أسفاه ! — ابتلع ذبابة أو نحوها فجفل ، و نفذت الطلقة فى ركبته — فى رضفته تماما . فاستدعى الطبيب ، وبترت الساق ، وانتهى كل شىء فى لحظة ، ودفنت الساق . . .

— وماذا جرى للأبله ؟

— لقد كان بخير ، ماحاجة الأبله إلى الأرجل والأيدى ؟ إن بلاهته تدر عليه فوق مايقوم بطعامه وشرابه . الناس جميعا يحبون البُله فهم لا يضرون أحدا — أنت تعرفين القولة : « خير للأتباع أن يكونوا بلهاء » ، فهم لا يستطيعون الضرر إذ ذاك .

لم تدهش جدتى لهذا النـــوع من الكلام ، فقد أصغت إليه عشرات المرات ، ولكنى ضقت به شيئا فسألت عمى بطرس .

— أيستطيع السيد أن يقتل أحدا ؟

— ولم لا ؟ طبـ .. عاً يستطيع ! بل إنه اشترك فى مبارزة . فقد تشاجر أحد الفرسان — وكان قد جاء يزور تاتيانا ليكسييفنا — مع مارمونت ، ولم يلبثا أن أشهرا غدارتيهما فى أيديهما وذهبا إلى الحديقة ، وهناك على الممر قرب البركة أصاب الفارس مارمونت فى كبده . ثم حمل مارمونت إلى مقبرة الكنيسة ، وأرسل الفارس إلى القفقاز ... وختم على الأمر بعد وقت قصير جداً . ذاك ما جرّاه على أنفسهما . ولم يعـــد أحد بين الفلاحين ومن إليهم يتحدث عنه الآن . . ولا يأسف عليه الناس كثيرا ، وهم لم يأسفوا عليه قط لذاته . . . ولكنهم مع ذلك أسفوا يوما على — أملاكه .

قالت جدتى :

— فهم إذن لم يأسفوا كثيراً .

فوافقها عمى بطرس قائلا :

— هذا صحيح ! ... أملاكه ... نعم إنها لم تكن قيّمة .

كان يسلك معى دائما مسلكا لطيفا ، ويكلمنى فى سماحة ، وكأنى شخص راشد ، ويسدد النظر إلى عينىّ ، على أن شيئا فيه لم يكن يروقنى . وكان يتحفنى بمربّاى المحبوبة ، ثم ينشر لى ما بقى على شريحة الخبز ، وكان يجلب لى من المدينة خبز الزنجبيل المخمر ، ويحدثنى دائما فى هدوء وجد .

— ماذا تصنع أيها السيد الصغير حين تكبر ؟ أتلحق بالجيش أم بالخدمة المدنية ؟

— ألحق بالجيش .

— حسنا ! ليست حياة الجندى قاسية فى هذه الأيام . وليست حياة القسيس سيئة أيضاً . . . فكل ما عليه هو أن يغنى ويصلى لله وذلك لا يستغرق وقتا طويلا . الواقع ، إن حياة القسيس أيسر من الجندى . . . ولكن عمل صياد السمك أكثر يسرا فهو لا يحتاج إلى دراسة ما ، إنه مسألة عادة .

ويأخذ يقلّد تقليداً ممتعاً تحويم السمك حول الطعم ، وتملُّص البريم والأرقط الموجل حين يمسكها الشص ويقول متلطفاً :

— أنت تغضب حين يجلدك جدك . ولكن ليس فى ذلك ما يدعوك إلى الغضب أيها السيد الصغير . فالجَلْد بعض تربيتك ، وعلى أية حال فما الجلد الذى يصيبك إلا عبث أطفال . ليتك رأيت سيدتى تيا نا ليكيفينا وهى تجلد ! كم تحسن الجلد ، كم تحسنه ! كان لديها رجل خاص بذلك — اسمه كريستوفر ، قد أتقن عمله حتى أن الجيران من أصحاب الأملاك كانوا يبعثون إلى الكونتسّه أحيانا بهذه الرسالة «نرجو ياتاتيانا ليكسييفنا أن ترسلى كريستوفر ليجلد خادمنا» ، فكانت ترسله .

وكان بطريقته الساذجة يصف وصفا مفصلا كيف كانت الكونتسة تجلس على الدرج عند أحد الأعمدة بثوبها الحريرى الأبيض ، وعلى رأسها منديل سماوى شفاف ، بينما يجلد كريستوفر الفلاحين رجالا ونساء فى حضرتها .

وكان كريستوفر هذا من ريازان يبدو كأنه من الغجر أو من روسيا الصغرى وقد امتد شارباه إلى ماوراء أذنيه وأزرقّ وجهه القبيح حيث يحلق لحيته . وكان أحمق ، أو لعله

كان يتكلف الحمق كى لا يسأل أسئلة لا تجدى . وكان أحياناً يصب ماء فى كوب ليصيد الذباب أو الخنافس التى هى نوع من الصراصير ثم يسلقها على النار . »

كنت آلف مثل هذه الأقاصيص التى سمعتها من شفتى جدتى وجدى. كانت مختلفة ولكنها كانت مع ذلك غريبة التشابه ، فكلها حكايات عن قوم يعذَّبون أو يسخر منهم أو يطردون وقد سئمتها ولم أعد أرغب فى الاستزادة منها ، قلت للحوذى :

ـــ حدثنى بنوع آخر من القصص .

فاجتمعت تجاعيده كلها حول فمه لحظة ، ثم أنساحت إلى عينيه وهو يقول متلطفا :

ـــ حسنا يا شره ! كان عندنا مرة طاهٍ . . .

ـــ عند من ؟

ـــ عند الكونتسة تاتيان ليكسييفنا .

ـــ لم تسميها تاتيان ؟ أنها لم تكن رجلا ؟ أكانت ؟

فقهقه ضاحكا :

ـــ لم تكن رجلا طبعاً . بل كانت سيدة ولكن كان لها مع ذلك سوالف . كانت سمراء من سلالة جنس ألمانى أسمر ... قوم من نمط الزنوج . حسنا كان هذا الطاهى كما قلت ـــ هذه قصة مضحكة أيها السيد الصغير .

وكانت هذه القصة « المضحكة » عن طاه أفسد فطيرة سمك ، ففرض عليه أن يأكلها كلها وحده فمرض من جراء ذلك . قلت غاضباً :

ـــ أنها ليست مضحكة البتة !

ـــ وما القصة المضحكة فى رأيك؟ هيا ... قلها .

ـــ لا أدرى ...

ـــ إذن فاعقل لسانك !

وحكى له قصة أخرى طويلة مملة .

وكان يزورنا أحيانا أيام الآحاد والأعياد ابنا خالىّ ـــ ساشا ميخائيلوف الخامل الحزين ، وساشا ياكوف الأنيق العالم بكل شىء . وذات مرة صعد ثلاثتنا فوق السقف فرأينا سيدا يرتدى سترة مطرزة بالفراء ، يجلس فى ساحة تبلنجا على كومة من الخشب إزاء الجدار ، ويلعب ببعض الجراء ، وكان رأسه الأصلع الصغير الأصفر عاريا . فاقترح

أحد الأخوين أن نسرق جروا ، وسرعان مادبرا خطة محكمة تقضى بأن يهبط الأخوان إلى الشارع ، وينتظرا عند مدخل ساحة بيتلنجا بينما أحدث أنا ما يفزع السيد فإذاما جرى فزعا اندفعا إلى الساحة وقبضا على جرو .

— ولكن كيف أفزعه ؟

قال واحد من أبناء خالىّ مقترحا :

— ابصق على رأسه الأصلع .

ولكن ، ألم يكن البصق على رأس شخص خطيئة فاحشة ؟ على أنى طالما سمعت ورأيت بعينىّ أنهما قد فعلا ما هو أسوأ من هذا ، ولذا فقد أديتُ نصيبى من الاتفاق بأمانة ، وحالفنى حظى المألوف .

حدثت ضجة مخيفة وصخب ، واندفع من بيت بتيلنجا إلى الساحة جيش كامل من الرجال والنساء يتقدمهم ضابط شاب وسيم ، وإذ كان ابنا خالى يتمشيان فى الشارع بهدوء وقت ارتكاب الإساءة ولا يعلمان شيئا عن مزحتى الفاحشة ، فقد كنت الوحيد الذى جلده جدى جلدا رضى له سكان بيت بيتلنجا رضاء تاما .

وقد أتانى عمى بطرس يرتدى خير ملابسه ، ويفيض بالسعادة ، وأنا راقد فى المطبخ والرضوض تملأ جسمى . همس :

— كانت تلك فكرة بديعة لك أيها السيد الصغير . ذاك عين ما يستحقه ذاك التيس المسن الأبله ـ أن يُبصق عليه ! فى المرة القادمة ألقِ حجراً على رأسه النخر !

فشخص أمامى وجه السيد الغرير الأمرد المستدير ، وذكرت كيف صرخ صراخا ضعيفا شاكيا كما تفعل الجراء ، وهو يمسح رأسه الأصفر بيديه الصغيرتين . فغلب علىّ الخجل ، وامتلأت حقدا على ابنى خالىّ ، ولكن سرعان ما نسيت ذلك حين حدقت فى وجه الحوذى المجعّد وهو يختلج بتعبير فيه شىء من الخوف وشىء من الازدراء ، شبيه بوجه جدى حين كان يضربنى . صرخت وأنا أدفعه بيدىّ ورجلىّ :

— أذهب ! . . .

فأسرّ الضحك ومضى وهو ينظر إلى من فوق كتفه غامزا .

ومنذ ذلك الحين ، زايلتنى الرغبة فى التحدث معه . الواقع أنى تجنبته . ولكنى مع ذلك أخذت أراقب حركاته مرتابا تساورنى فكرة غامضة فى أن أكشف عنه شيئا . وقد وقع

بعد قليل من حادثة السيد المتصل ببيت بيتلنجا شيء آخر . فقد كنت منذ وقت طويل شديد التطلع إلى بيت اوفسيا نيكوف وكنت أتخيل أن واجهته الرمادية تخفي رواية غامضة .

كان بيت بيتلنجا يعجّ دائماً بالصخب والمرح ، وكان يقيم هناك كثير من النساء الجميلات يزورهنّ الضباط والطلبة ، وكان ينبعث منه أصوات الضحك والغناء ولا ينقطع فيه العزف على الآلات الموسيقية . وكانت واجهـــة البيت نفسها تبدو مشرقة بزجاج نوافذها المصقول اللامع .

ولم يكن جدي يرضى عن ذلك . كان يقول عن سكانه :

ـ انهم زنادقة . . . ملاحدة جميعا !

وكان يرمى النساء بكلمة جارحة ، فسّرها لى عمى بطرس بألفاظ لا تقل عنها جرحا ولا حقدا .

ولكن بيت أوفسيا نيكوف الكالح الصامت كان يوحى إلى جدى الاحترام .

كان هذا البيت ذو الطابق الواحد العالى مع ذلك ـ يقع فى ساحة معشبة معتنى بها ، خالية إلا من بئر فى الوسط عليها سقف يحمله عمودان . وكان البيت يبدو كأنه ينكص عن الشارع يريد أن يختبيء منه . وقد ارتفع فيه عن الأرض بعض الارتفاع ، نافذتان من نوافذه لهما عقدان منحوتان . كانت تسقط على زجاجهما المغبرّ أشعة الشمس بلون الطيف . وكان فى الجانب الآخر من البوابة مخزن ، واجهته مثل واجهة البيت تماما حتى النوافذ الثلاث . ولكنها لم تكن حقيقية ، بل نقب لها هيكل فى الحائط الرمادى ورسمت أطر زجاجها بطلاء أبيض . كانت هذه النوافذ العمياء مشئومة المنظر ، وكان المخزن كله يؤكد ما يخيله البيت من رغبة فى الانزواء والتوارى عن الأنظار . كان البيت كله يوحى بازدراء صامت أو كبرياء خفية باصطبلاته الخاوية وحظيرة العربة الكبيرة الأبواب الخالية أيضا .

كان يرى هناك أحيانا شيخ طويل حليق اللحية ذو شارب أبيض قفّ شعره كأنه إبر كثيرة ، وهو يعرج فى الحوش . وكان شيخ آخر ذو سوالف وأنف أقنى يقود فى أحيان أخرى فرسا شهباء طويلة الرقبة خارج الاصطبل ـ وهى فرس ضيقة الصدر نحيلة القوائم ، كانت تنكس رأسها وتتحكك حين تخرج إلى الحوش كأنها راهبة ذليلة . كان الرجل الأعرج يربت عليها براحتيه صافراً ناخراً ، ثم تختفى الفرس فى الاصطبل المظلم ثانية . وكنت إخال الرجل الشيخ يريد الفرار من المنزل ولكنه لا يستطيع لأنه مسحور .

وكان يلعب فى الحوش كل يوم تقريبا من الظهر إلى العصر صبية ثلاثة يرتدون سترا وسراويل رمادية متشابهة ، وقبعات متماثلة ، وكلهم مستدير الوجه أشهب العينين،وقد تشابهوا حتى إنى لم أكن أفرق بينهم إلا بأطوالهم .

كنت أرقبهم من شق فى السور ، ولم يكونوا يستطيعون رؤيتى ولكنى أردت أن يعلموا بوجودى. لقد أحببت الطريقة التى كانوا يلعبون بها معا فى مرح ومحبة العابا غير مألوفة لدىّ، وأحببت ملابسهم وتقدير بعضهم لبعض ، الذى كان يلاحظ خاصة فى مسلك الأكبرين مع أخيهما الأصغر ، وهو صبى صغير مضحك مفعم بالحياة . كان إذا وقع ، ضحكا ـ فالعادة أن يضحك الناس ممن يقع ـ ولكن لم يكن فى ضحكهما خبث ، بل كانا يهرولان لمعاونته فورا، وكان إذا لوث يديه أو ركبتيه مسحا أصابعه وسراويله بورق الشجر أو بمنديليهما وقال الأوسط فى سماحة :

ـــ هاك يا أعسر !

ولم يكونوا يتشاجرون فيما بينهم قط أو يغشّون وكانوا جميعا خفافا أقوياء لايتعبون .

وذات يوم تسلقت شجرة وصفرت لهم ، فوقفوا مبهوتين لحظة ، ثم تلاصقوا ساكنين وأخذوا بعد أن صعدوا النظر إلىّ : يتشاورون معا فى هـــدوء . خلتهم سيقذفوننى بالحجارة فانزلقت إلى الأرض ، وملأت جيوبى وصدار جلبابى بالحجارة وتسلقت الشجرة ثانية ، ولكنهم كانوا يلعبون فى ركن آخر من الحوش بعيدا عنى وقد نسونى نسيانا تاما فيما يبدو . أسفت لذلك أسفا شديدا ، لأننى أولا لم أرد أن أكون البادىء بالحرب ، وثانيا لأن شخصا ناداهم من النافذة :

ـــ يجب أن تدخلوا الآن ياأطفال .

فذهبوا خاضعين ولكن فى غير عجلة يمشون واحدا أثر واحد كالأوز . وكثير ماجلست على الشجرة فوق السور أرجو أن يدعونى لألعب معهم ، فلم يفعلوا ذلك قط . ولكنى كنت ألاعبهم بروحى ، وكانت تشوقنى الألعاب أحيانا فأصيح وأقهقه ضاحكا، فكان الثلاثة ينظرون إلىّ ويتكلمون فيما بينهم بهدوء ، أما أنا فيغلبنى الاضطراب وانزلق إلى الأرض .

وكانوا يوما يلعبون التغمية ، وحين جاء دور الأخ الأوسط فى الاختفاء ، وقف فى الركن المجاور للمخزن ، وأغمض عينيه بأمانة دون أن يحاول استراق النظر ، بينما جرى

أخواه ليختبئا فتسلق الأكبر بخفة وسرعة زلاقة عريضة موضوعة فى كوخ ازاء المخزن ، بينما راح الأصغر يدور ويدور بطريقة مضحكة حول البئر مضطربا لأنه لا يدرى أين يختبىء .

صاح الأكبر :

ــ واحد . اثنان .

فقفز الصبي الصغير على حافة البئر ، وأمسك بالشَّطَن ، وطفر فى الدلو الذى صفق حافة البئر بصوت أصمّ واختفى ، جمدت فقد رايت كيف دارت البكرة المزيّتة بسرعة وصمت ، ولكنى رأيت فى لحظة ، ما يحتمله الموقف ، فوثبت داخل الحوش صائحا :

ــ لقد سقط فى البئر !

وصلت أنا والصبي الأوسط إلى حافة البئر فى آن واحد ، فتشبث بالشطن ، ولما رأى نفسه يُسحب إلى أعلى أخلى يديه ، فأدركت الشطن أمسكه ، وكان الأخ الأكبر قد جاء ، فعاونني على رفع الدلو قائلا :

ــ برفق ، أرجوك.

سحبنا بسرعة الصبي الصغير الذى أدركه الفزع وكانت على أصابع يده اليمنى قطرات من الدم ، وقد خدش خده خدشا بليغا . كان مبتلا إلى خصره وقد انتشر على وجهه شحوب ضارب إلى الزرقة ، ولكنه ابتسم ثم ارتجف وأغمض عينيه أغماضا ، ثم ابتسم ثانية وقال فى بطء :

ــ على أية حال هل سقطت ؟

قال الأخ الأوسط وهو يطوقه بذراعه ويمسح الدم عن وجهه بمنديل :

ــ لاشك أنك جننت لتفعل مثل هذا .

وقال الأخ الأكبر عابسا :

ــ خير لنا أن ندخل ، نحن لانستطيع إخفاء الأمر على أية حال . .

سألتُ :

ــ أو تجلدون ؟

فأومأ برأسه ثم قال وهو يمد يده :

ــ ما كان أسرعك حين عدوت إلى هنا !

فسرنى هذا الثناء ، ولكن لم يُتح لى أن أتناول يده ، فقد التفت عنى يحادث اخوته من جديد :

ـــ لندخل وإلا أصابه البرد ، سنقول إنه سقط ، ولكن لا حاجة بنا إلى أن نذكر شيئا عن البئر .

قال الأصغر موافقا وهو يرتجف :

ـــ كلا ، سنقول إنى سقطت فى بركة . أليس كذلك ؟

وذهبوا .

حدث هذا كله فى سرعة فائقة حتى أنى حين نظرت إلى الغصن الذى قفزت منه إلى الحوش ، وجدته ما يزال يهتز وينثر أوراقه الصفراء .

ومضى أسبوع لم يأتِ فيه الإخوة إلى الحوش مرة أخرى ، فلما ظهروا ثانية كان صخبهم أشد من ذى قبل ، وحين رآنى الأكبر على الشجرة دعانى برفق :

ـــ تعال هنا والعب معنا .

واحتمينا تحت سقف المخزن الناتىء فى الزلاقة العتيقة وأخذ كل منا يفحص صاحبه متأملا ثم تحادثنا حديثا طويلا .

سألتُ :

ـــ هل جُلدتم ؟

ـــ تقريبا !

شق علىّ أن أعتقد أن أولئك الغلمان قد جلدوا مثلى ، وأسفت من أجلهم .

سأل الأصغر :

ـــ لمَ تصيد الطيور ؟

ـــ لأنى أحب أن أسمعها تغنى .

ـــ ولكن ينبغى ألا تصيدها ، لم لا تتركها تحوم كما تحب هى أن تفعل .

ـــ حسنا ، لن أصيدها ، هاك !

ـــ أما تصيد إذن واحدا وتعطيه لى ؟

ـــ لك ! . . . من أى نوع ؟

ـــ طير نزق ، فى قفص .

ـــ زرزور . ذاك ما تريد .

قال الأصغر :

ـــ إن الهرة تأكله، ثم إن أبى لن يسمح لنا به.

فقال الأكبر موافقا :

كلا ، لن يسمح بذلك .

ـــ ألكم أم ؟

قال الأكبر :

ـــ كلا .

ولكن الأوسط قال مصححا :

ـــ إن لنا أمًّا ، ولكنها ليست أمنا فى الحقيقة . فأمنا قد ماتت .

قلت :

ـــ والأخرى تسمى زوج الأب ؟ .

فأومأ الأكبر برأسه قائلا :

ـــ نعم .

وبدا التفكير على الثلاثة جميعا ، وغامت أوجههم . كنت أعلم ماذا تكون زوج الأب من الأقاصيص التى كانت جدتى تقصها علىَّ ، وفهمت ذاك التفكير المباغت . كانوا يجلسون هناك جنبا إلى جنب ، أشبه بصف من حبات البازلاء فى غلافها ، وذكرت زوج الأب الساحرة التى احتلت مكان الأم الحقيقية بخدعة ؛ قلت مؤكدا لهم :

ـــ ستعود إليكم أمك الحقيقية مرة أخرى ، وسترون إن لم تفعل .

فهز الأكبر كتفيه . قال :

ـــ كيف تستطيع ذلك وقد ماتت ؟ إن مثل هذه الأشياء لا تحدث .

ـــ لا تحدث؟ يا إلهى؟ لكم حىَّ الموتى وإن قطعوا إربا إربا حين رُشَّ عليهم ماء الحياة ! كم ميتة كانت غير حقيقية وليست من عمل الله ، بل سحرا شريرا نفثه ساحر أو ساحرة !

وبدأت أقص عليهم أقاصيص جدتى فى انفعال ، ولكن الأكبر ضحك أول الأمر وقال بهدوء :

ـــ نحن نعرف تلك الحكايات الخرافية كلها !

وأصغى أخواه الصغيران صامتين ، وقد أطبق الأصغر شفتيه وزمّهما ، ووضع الأوسط مرفقيه على ركبتيه ، وأمسك بيد أخيه التى كانت حول عنقه .

وكان المساء قد تقدم ، والسحاب الأحمر يرنّق فوق السقف ، وبغتة ظهر أمامنا رجل شيخ أبيضُّ شاربه يرتدى ملابس بلون القرفة ، طويلة مثل تلك التى يرتديها القسيس ، وقبعة فراء خشنة . سأل مشيرا إلى :

— من عسى أن يكون هذا ؟

فوقف أكبر الصبية ، وأومأ برأسه صوب منزل جدى ، وقال :

— إنه من هناك ؟

— ومن دعاه إلى هناك ؟

فنزل الصبية فى هدوء من الزلاقة ، ودخلوا إلى المنزل وقد ذكّرونى أكثر من ذى قبل بسرب من الأوز .

قبك الشيخ على كتفى بقبضة من حديد واقتادنى عبر الحوش إلى البوابة . وقد نازعتنى نفسى إلى البكاء فزعا ، ولكنه كان يخطو بخطوات طويلة سريعة فكنا فى الشارع قبل أن يتاح لى وقت للبكاء ، ثم وقف عند البوابة الصغيرة ورفع إصبعه مهددا وهو يقول :

— لا تجسر على الدنوّ منى مرة أخرى !

فاستشاط غضبى . قلت :

— أنا لم أرغب قط فى الدنو منك أيها الشيطان العجوز !

فقبض على بذراعه الطويلة مرة أخرى ، وجرّنى على الجادة وهـــو يسألنى بصوت كان كضربة المطرقة فوق رأسى :

— هل جدك فى المنزل ؟

ومن رزيّتى أنه كان هناك ، فوقف أمام الشيخ المتوعد ، وقد ألقى برأسه إلى الوراء وبرزت لحيته إلى الأمام ، وهو يرفع نظره إلى العينين البليدتين المستديرتين اللتين تشبهان عين السمكة ، ويقول بسرعة :

— إن أمه غائبة ، أترى ؟ وأنا رجل مشغول ، فليس هناك من يعنى به ، فأرجو أن تُغضى عنه هذه المرة ، يا كولونيل .

كان الكولونيل يهذى فى البيت ويدق الأرض بقدميه كالمجنون ، ولم يكد يخرج حتى كنت قد ألقيت فى عربة عمى بطرس . قال هذا وهو ينزع سرج الحصان :

— أعناء جديد أيها السيد الصغير ؟ لماذا تعاقب الآن ؟

فلما أخبرته الخبر ، اشتد حنقه وهذر :

— ولماذا تريد أن تصادقهم ؟ يا للثعابين الصغيرة ! انظر ما فعلوا بك ! الآن أن تنكّل بهم ، فلا يفوتنّك ذلك .

وظل يهمس كذلك وقتا طويلا ، وقد مال بى ألم الضرب إلى الإصغاء إليه أول الأمر

ولكن وجهه المجعد كان يختلج على نحو زاد زرايتي له في كل لحظة ، وذكرني بأن الصبية الآخرين سيضربون أيضا ، وبغير جريرة على ما أعتقد . قلت :

— لا ينبغي أن يجلدوا ، إنهم جميعا صبية أخيار . أما أنت فكل كلمة تقولها كذب .

فنظر إلى ثم صاح دون تحذير ما :

— ارحل عن عربتي !

صرخت وأنا أثب إلى الأرض :

— يا أحمق !

فجرى خلفي عبر الحوش ، وهو يحاول في غير طائل أن يمسكني ، وأخذ يصرخ بصوت غريب :

— أنا أحمق ، أنا ؟ أنا أكذب ، أنا ؟ انتظر حتى أمسكك !

وفي هذه اللحظة خرجت جدتي من المطبخ فاندفعت نحوها .

— هذا الشقي الصغير لا يريحني أبداً ! أنا أكبره خمس مرات ، وهو يجسر مع ذلك على سبي . . . وسب أمي . . . وسب الجميع .

خانتني البديهة حين رأيته يكذب بهذه الوقاحة ، ولم أستطيع إلا أن أقف محدقاً فيه بغباء ، ولكن جدتي أجابته صارمة :

— أنت الآن تكذب يا بطرس ، لا شك في ذلك . إنه لا يعتدي عليك ولا على أحد .

لو كان جدي هناك لصدّق الحوذي !

ومنذ ذلك اليوم ، قامت بيننا حرب صامتة ، ولكنها مريرة مع ذلك . كان يحاول أن يضربني بالأعنّة ، دون أن يظهر ذلك ، وكان يطلق أطياري من قفصها فتمسكها القطة أحيانا وتأكلها ، وكان يشكوني إلى جدي ما واتته الفرصة ، فكان يصدقه دائما وقد تقرّر عندي شعوري الأول نحوه : إنه ليس سوى صبي مثلي يختفي وراء رجل شيخ . كنت أنقض حذاء الليف أو لعلي كنت افتق الحذاء من الداخل شيئا حتى إذا راح يلبسه تناثرت أجزاؤه ، ووضعت يوما بعض الفلفل في قبعته فجعله يعطس ساعة كاملة ، ويحاول ما استطاع ألا يترك عمله من جراء ذلك .

وكان في أيام الآحاد يراقبني . وكثيرا مادهمني وأنا أصنع ما مُنعت عنه من محادثة أطفال أوفسيا نيكوف ، فكان يذهب إلى جدي ويفضحني .

وقد توثقت علاقتي بأبناء أوفسيا نيكوف وجلبت لي السرور على الأيام . وفي ممر

صغير منعطف بين جدار منزل جدى وسور بيت أوفسيا ، كانت تنمو أشجار دردار وزيزفون ذات أفرع عتيقة غليظة ، نقبت فى ظلها ثقبا فى السور نصف دائرى ، وكان الإخوة يأتون واحداً بعد واحد وربما أتى اثنان منهم معا ، فنأخذ ، مقرفصين عند هذا الثقب أو منحنين ، نتحدث أحاديث طويلة فى أصوات خافتة ، وقد وقف واحد منهم يرقب حتى لا يبغتنا الكولونيل فجأة .

وقد حدثونى عن تعاسة حياتهم وكان يحزننى أن أستمع إليهم ؛ وتكلموا عن أطيارى الأسيرة ، وعن كثير من أمور الأطفال ، ولكنهم لم يفوهوا بكلمة واحدة قط عن أبيهم أو عن زوجته ، فيما أذكر على الأقل . وكثيرا ما طلبوا إلى أن أقص عليهم قصة فكنتُ أعيد عليهم بأمانة إحدى أقاصيص جدتى ، وكنت إذا نسيت شيئا ، استمهلتهم لحظة وجريت إلى جدّتى أجدد ذاكرتى . وكان هذا يسرها .

وقد ذكرت لهم كثيراً عن جدتى ، وذات مرة قال الأكبر بزفرة عميقة :

— يبدو أن جدتك طيبة من كل وجه ... لقد كانت لنا أيضا جدة فى بعض الأيام .

كان الحزن يتردد فى كلامه على هذا النحو وكان يتكلم عن الأشياء التى وقعت كأنه عاش مائة عام لا أحد عشر عاما . وأذكر أن يديه كانتا ضيقتين وأن أصابعه كانت شديدة النحول والرقة وأن عينيه كانتا حانيتين برّاقتين ، مثل أضواء مصابيح الكنيسة . وكان أخواه حبيبين أيضا كأنهما يوحيان الثقة ، ويدفعان المرء إلى أن يصنع ما يريدان ، ولكن الأكبر كان صفيِّى .

وكثيرا ما كانت تستغرقنى الأحاديث فلا أرى عمى بطرس حتى يطبق علينا ، وكان رنين صوته يفرقنا هنا وهناك وهو يقول :

— ثانيـ . . . ـة ؟

وقد لاحظت أن نوبات عبوسه وصمته قد زادت ، وسرعان ما بتّ أعرف من النظرة العجلى مزاجه حين يعود من عمله . كان فى العادة يفتح الباب على مهل ، فتئز رزّاته بصوت مطوط كسلان ، ولكنه إذا كان منحرف المزاج ندّ عنها أزيز حاد ، كأنها تصرخ من الألم .

وكان ابن أخيه الأبكم قد تزوج منذ حين ، ورحل ليعيش فى الريف ، فكان بطرس يعيش وحيدا فى الاصطبل فى كُنّة واطئة ذات نافذة محطمة تشيع فيها رائحة كثيفة من الجلود والقطران والعرق والطباق ، وكنت لا أدخل مثواه قط بسبب هـــذه الرائحة . وقد اعتاد أن ينام ومصباحه مشتعل ، وكان جدى يعارض هذه العادة معارضة شديدة .

— انظر ! انك ستقضى علىّ احتراقا يا بطرس .

فيجيب بطرس وهو ينظر بمؤخر عينه :

ــ كلا ، لن أفعل . لا تقلق . أنني أضع المصباح ليلا فى حوض من الماء .

كان يبدو الآن أنه ينظر إلى الجميع نظراً شزرا وقد عدل منذ وقت طويل عن حضور حفلات جدتى وعن جلب المربى لها وبدا وجهه متقلصا وقد عمقت فيه التجاعيد ، وأصبح إذا مشى ترنح من جانب إلى آخر ، وثقلت أقدامه مثل شخص مريض .

وكنت أنا وجدى فى صباح أحد أيام الأسبوع ، ونزيح الجليد من الحوش إذ كان قد تساقط فى الليل بشدة ، وفجأة رن مغلاق الباب رنينا عاليا ، ودخل الحوش شرطى ، سدّ الباب بأن أسند إليه ظهره ، وهى يومىء إلى جدى بإصبع سمينة شهباء . وحين ذهب إليه جدى، انحنى الشرطىّ حتى بدا أنفه الطويل الدقيق كأنّه ينحت جبهة جدّى وقال شيئا ، ولكن فى صوت خفيض ، فلم أستطع تبين الكلمات ، ولكن جدى أجاب بسرعة :

ــ هنا ؟ متى ؟ يا إلهى !

وفجأة صاح وراح يتواثب تواثبا مضحكا :

ــ اللهم احفظنا ! أيمكن هذا ؟

قال الشرطى فى حزم :

ــ لاتحدث مثل هذه الضجة الكبيرة .

فنظر جدى حوله ورآنى . قال :

ــ خلّ مسحاتك وادخل .

اختبأت فى ركن ورأيتهما يذهبان إلى كنة الحوذىّ ، ورأيت الشرطى ينزع قفّازه الأيمن ويضرب به راحة يده اليسرى وهو يقول :

ــ إنه يعلم أننا نتعقبه ، وقد ترك الحصان يهيم على وجهه ، واختبأ هنا فى مكان ما .

فاندفعت إلى المطبخ لأخبر جدتى بكل شىء ، وكانت تعجن العجين للخبز فأصغت إلى ورأسها المَذْرُورُ بالدقيق يهتزّ علوا وسفلا ، ثم قالت بهدوء .

ــ أظنه كان يسرق شيئاً . ارحل أنت الآن . ما أنت وهذا !

وحين خرجت إلى الحوش مرة أخرى كان جدى واقفاً عند الباب حاسر الرأس وعيناه إلى السماء وهو يرسم الصليب . كان الغضب باديا على وجهه والواقع أنه كان منتفخاً من الغضب وكانت إحدى رجليه ترتجف . صاح ودق الأرض بقدمه :

ــ قلت لك ادخل !

ولكنه صحبنى إلى المطبخ مناديا :

— تعالى يا أماه !

وذهبا إلى الغرفة المجاورة ، ودار بينهما حديث طويل مهموس ، ولكن حينما رجعت جدتى إلى المطبخ ، رأيت لأول وهلة من تعبير وجهها أن شيئاً خطيراً قد وقع ، سألتها :

— لماذا أنت فزعة هكذا . ؟

قالت بهدوء :

— اخرس .

وخيم الضيق على المنزل طوال النهار ، وكان جدى وجدتى كثيراً ما يتبادلان نظرات القلق ويتكلمان معا فى هدوء ، وتندّ عنهما كلمات موجزة غير مفهومة كانت تقوى الشعور بالقلق . قال جدى آمرا وهو يسعل :

— أوقدى المصابيح فى البيت كلّه يا أماه .

وتناولنا الغداء دون شهية وإن أسرعنا فى تناوله كأننا نتوقع أحدا . وكان جدى متعباً ينفخ أوداجه وهو يزمجر فى صوت صارخ :

— سلطان الشيطان على الإنسان ! . . . إنك لترينه فى كل مكان . . . حتى المتدينون منا والقسيسون ...! ما سبب هذا ؟ هه ؟

فتنهدت جدتى .

ومرت ساعات ذلك اليوم الأشهب من أيام الشتاء متثاقلة ، وبدا أن جو المنزل يزيد قلقا وضيقا ، وقبل أن يحل المساء جاء شرطى آخر ، وكان رجلا أحمر سمينا جلس قرب الفرن فى المطبخ ونعس وحين سألته جدتى : « كيف كشفوا هذا ؟ » أجاب بصوت غليظ : « نحن نكشف كل شىء فلا تزعجى نفسك ! » .

أذكر أنى جلست عند النافذة ، أدفىء قطعة من ذوات الكوبكين فى فمى ، كى أحاول بعد ذلك أن اطبع على زجاج النافذة المتجمد ، طابع القديس بطرس والتنين . وبغتة ترامى من المدخل صوت ضجة مخيفة ، وفتح الباب على مصراعيه ، وصرخت بتروفنا فى جنون :

— انظروا ماذا عندكم !

وحين لمحت الشرطى هرولت راجعة إلى المدخل ولكنه أمسكها من ذيلها ، وصاح بصوت مخيف :

— انتظرى ! من أنت ؟ عن أى شىء نبحث ؟

وإذ كانت قد أوقفت على العتبة فجأة ، فقد سقطت على ركبتيها ، وبدأت تصرخ ، وبدا أن الكلمات والعبرات تخنقها :

— لقد رأيته وأنا ذاهبة أحلب البقر . . . قلت لنفسى : ما ذلك الشىء الشبيه بالحذاء فى حديقة كاشيرين ؟ قلت لنفسى . . .

وهنا دق جدى الأرض بقدمه وصاح :

— أنت تكذبين يا حمقاء ! أنت لا تستطيعين أن ترى شيئاً فى حديقتنا فالسور عال وليس هناك شقوق . أنت تكذبين ، ليس فى حديقتنا شىء .

فصرخت بتروفنا وهى تمد إليه إحدى يديها ، وتضغط رأسها بالأخرى :

— إنه حق يا أبى الصغير . إنه حق يا أبى الصغير . أأكذب فى شىء كهذا ؟

— إن هناك آثار أقدام تؤدى إلى سوركم ، وقد كثر الوطء على الجليد فى ناحية وذهبت ونظرت من السور فرأيته . . . هو . . . راقداً هناك . . .

— من ؟ من ؟

وتردد هذا السؤال مرة بعد أخرى ولكن لم يتيسر التزود منها بشىء وبغتة اندفعوا جميعا إلى الحديقة يصدم بعضهم بعضا كأنهم جُنوا ، وهناك عند الحفرة ، كان عمى بطرس راقدا والجليد يغطيه فى رفق ، وظهره إلى الكتلة المحترقة ، وقد سقط رأسه على صدره . وكان وراء أذنه اليمنى جرح عميق أحمر كالفم ، وقد برزت منه قطع من اللحم مثلّمة كالأسنان .

أغلقت عينىّ هلعا للمشهد ، ولكنى استطعت أن أرى من بين أهدابى ، سكين السرّاج التى أعرفها جيداً موضوعة على ركبتى عم بطرس ، وتشبثت بها أصابع يده اليمنى السمراء ، وكانت يده اليسرى مقطوعة غائصة فى الجليد . وكان الجليد قد ذاب تحت الحوذى فغاص جسمه الصغير عميقا فى الجليد الناعم اللامع وبدا أكثر طفولة منه فى حياته . وقد ارتسم على الجليد فى الجانب الأيمن من الجثة رسم أحمر غريب شبيه بطائر ، ولكن الجليد على الجانب الأيسر لم يكن قد مُسّ بل ظل ناعما يبهر البصر بريقه . وكان الرأس قد سقط إلى الأمام فى خضوع ، والذقن تضغط الصدر ، وتسحق اللحية الجعدة الكثة ، وكان هناك على صدره بين الأنهار الحمراء من الدم المتجمد صليب كبير من النحاس . بدا لى أن الضجة التى كانوا يحدثونها جميعا تدير رأسى ، فإن بتروفنا لم تكف قط عن العويل ، وكان الشرطى يأمر فالاى صائحا وهو يرسله فى حاجة ، وصرخ جدى :

— احذروا أن تدسوا على مواطىء قدمه !

ولكنه قطب حاجبيه فجأة ، وقال للشرطى بنبرة عالية آمرة ، وهو ينظر على الأرض :

— ليس هناك ما تثير حوله ضجة يا كونستابل ! ذاك أمر الله . . . وحكم من الله . . . ولكنك تشغل نفسك بهذا الهراء أو ذاك ، أف !

فران الصمت عليهم جميعا على الفور،ووقفوا صامتين يتنفسون بعمق ويرسمون الصليب. وكان عدد من الناس قد جاءوا الآن مهرولين من الحديقة إلى الحوش،وكانوا يتسلقون سور بتروفنا ، وكان منهم من يسقط فتند عنه صيحات الألم ، ولكنهم كانوا مع ذلك كله يخيم عليهم الصمت حتى صاح جدى فى صوت يائس :

— يا جيران ! لم تفسدون شجيرات الخداش ؟ أليست لكم ضمائر ؟

وأخذت جدتى يدى وهى تبكى بكاء شديدا ، ودخلت بى إلى المنزل . سألت :

— ماذا فعل ؟

أجابت :

— ألم تستطع أن ترى ؟

وظل الغرباء بقية المساء وإلى وقت متأخر من الليل ، يدخلون ويخرجون فى المطبخ والغرف الأخرى ، ويتحدثون بأصوات عالية ، وكان الأمر بيد الشرطة ، وقد راح رجل يشبه الشماس ، يسجل الأقوال ويبطبط :

— ما . . . ذا ؟ ما . . . ذا ؟

وقدمت جدتى الشاى لهم جميعا فى المطبخ ، حيث كان يجلس إلى المائدة رجل مدور ذو عارضين مجدَّر ، يقول بصوت حاد :

— إننا لم نكن نعرف اسمه الحقيقى . . . وكل ما نستطيع الكشف عنه هو أنه ولد فى ! يلاتما . . . أما الأصم الابكم . . . فلم يكن ذلك غير نَـبْزله . . . فإنه لم يكن أصم ولا أبكم قط . . . وكان يعلم كل شىء عن الأمر . . . وهناك شريكٌ ثالث أيضا . علينا أن نجده لقد ظلوا يسرقون الكنائس دهراً وكانت هذه حرفتهم .

صرخت بتروفنا وقد اشتد احمرارها وتصببت عرقا :

— يا إلهى !

أما أنا فقد رقدت على رف الفرن أنظر إليهم من عل ، وأعجب لهم من قصار بادنين مرعبين .

الفصل العاشر

ذهبت ذات صباح باكر من أيام السبت إلى بستان خضروات بتروفنا أصيد أبا الحنّ . وقد بقيت هناك وقتا طويلا لأن الطيور الحمراء الوقحة أبت أن تعلق بالفخ . كانت تخطر لاعبة خلابة الجمال على الجليد الفضى وتطير إلى أغصان الشجيرات التى غطاها الصقيع ، وهى تنثر حولها بلورات الجليد الزرقاء . وكان المنظر جميلا حتى لقد نسيت غيظى من إدبار حظى والواقع أنى لم أكن صياداً حاذقا فقد كانت وقائع الصيد تلذ لى أكثر من نتائجه،وكان أشد ما يروقنى أن أراقب حركات الطيور وأفكر فيها . وكنت جد سعيد وأنا جالس وحدى على حافة حقل يكسوه الجليد أصغى إلى الطيور تزقزق فى الهدوء البلورى ليوم من أيام الصقيع حتى سمعت سمعا خافتا عن بعض الأصوات السريعة من أجراس ترويكا مثل أغنية حزينة لقبرة فى الشتاء الروسى .

وكان الجلوس فى الجليد قد خدّرنى . وشعرت بتجمد أذنى ، فجمعت الفخ والأقفاص وتسلقت الجدار إلى حديقة جدى ، ودخلت إلى البيت .

كان الباب المؤدى إلى الشارع مفتوحا ، وكان رجل هائل الحجم يقود خارج الفناء وهو يصفر فى مرح ثلاثة جياد محمومة مشدودة إلى زلاقة كبيرة مغلقة . فطفر قلبى . قلت :

ــ بمن أتيت إلى هنا ؟

فالتفت ونظر إلى من تحت ذراعيه ووثب إلى مقعد السائق قبل أن يجيب قائلا :

ــ القسيس .

ولكنى لم أقتنع . ولئن كان القسيس حقا فلا بد أنه آتى يزور بعض السكان . صاح السائق وهو يصفر فى مرح ويضرب الخيل بأعنّته :

ــ شى !

فاندفعت الجياد بين الحقول ووقفت أتبعها بنظرى .ثم أغلقت الباب . وكان أول شىء سمعته حين دخلت المطبخ الخالى ، صوت أمى القــوى فى الغرفة المجاورة وهى تصيح فى وضوح تام :

ــ وبعد ؟ أتريد أن تقتلنى ؟

فألقيت الأقفاص واندفعت إلى الردهة دون أن أخلع ملابس الخروج ، وهناك اصطدمت بجدى ، فقبض على كتفى ، ونظر إلى وجهى بعينين كاسرتين وقال بخشونة وهو يبلع ريقه فى جهد :

— لقد رجعت أمك . أذهب إليها . انتظر .

وهزنى بعنف حتى كادت أقدامى تزول عن الأرض ودرت إزاء باب الغرفة . قال :

— ادخل . ادخل .

دققت الباب الذى كان يستره لباد ومشمع ، ونقضى زمن قبل أن تجد يدى التى خدرها البرد وأرجفها الانفعال أكرة الباب ، وحين دخلت آخر الأمر بهدوء وقفت على العتبة حائراً مبهوراً . قالت أمى :

— هذا هو ! يا إلهى كم نما ! ألا تعرفنى ؟ . . . يا لهيئة ملبسه ! أسرع يا ماما وخذ شيئا من دهن الوز .

كانت تقف فى وسط الغرفة منحنية على وهى تنزع عنى ملابس الخروج ، وتقبلنى كأنى لست إلا كرة . وكان على جسمها الهائل ثوب جميل دافئ ناعم ضاف كأنه عباءة رجل ، قد زُرَّ بأزرار سوداء تجرى مائلة من الكتف إلى حافة الذيل . كنت لم أر شيئا مثله من قبل .

وقد بدا وجهها أصغر مما كان ، وعيناها أكبر وأشد غئُوراً ، أما شعرها فقد بدا أعمق فى شقرته . أخذت تلقى ملابسى على العتبة وهى تنزعها عنى ، وزوت شفتيها ازدراء ، وكان صوتها يرن طول الوقت :

— لمَ لا تتكلم ؟ ألستَ مسرورا برؤيتى ؟ أف ! أى قميص قذر ! . . .

ثم فركتْ أذنى بزيت الوز ، فتألمت ، ولكن كان ينبعث منها وهى تفعل ذلك عطر شذى لذيذ حتى لقد بدا الألم أقل من المألوف .

التصقت بها ، وأنا أرفع بصرى إلى عينيها ، ويعجزنى الانفعال عن الكلام ، وكنت أستطيع أن أسمع بين كلماتها صوت جدتى الخفيض البائس :

— إنه عنيد . . . قد خرج من أيدينا . ولم يعــد يخشى حتى جده . . . أوه يا فاريا . . . يا فاريا . . .

— بالله لا تنتحبى يا أماه . إن النحيب لن يصلح من الأمر شيئا .

كان كل شيء ضئيلا كسيراً هرما إلى جانب أمي . وقد شعرت أني هرم أيضا ، هرم. لجدي.
قالت وهي تضمني إلى ركبتيها ، وتمسح شعري بيدها الدافئة الثقيلة :

ــ إنه يحتاج إلى من يعنف به . وقد آن له أن يذهب إلى المدرسة . . . ستحب تلقي الدروس ، أليس كذلك ؟

ــ لقد تعلمت كل ما أريد أن أعلم .

ــ ستزيد ما تعلمه قليلا . عجبا ! كم اشتد ساعدك !

وضحكت من قلبها بنبراتها الأنثوية العميقة وهي تلاعبني .

وحين جاء جـــدي شاحبا كالرماد محمر العينين منتفشاً من الغضب ، نحتني عنها وسألت بصوت عال :

ــ حسنا ، ماذا قررت يا أبي ؟ هل أرحل ؟

فوقف عند النافذة ، يقشر الثلج عن الزجاج بأظافره ، وبقي صامتا فترة طويلة . كان الموقف متوتراً مؤلما ، فأحسست كما اعتدت في مثل لحظات التوتر هذه كأن جسمي كله آذان وعيون ، وبدا لي كأن شيئاً ينتفخ في صدري ويرغبني ترغيباً ملحا في البكاء . قال جدي بخشونة :

ــ اترك الغرفة يا أليكسي !

فسألت أمي وهي تجذبني إليها ثانية :

ــ لماذا ؟ لا ترحل عن هذا المكان . أنا أمنعك !

ونهضت أمي وسعت في الغرفة كأنها سحابة وردية ووقفت وراء جدي . قالت :

ــ أصغ إلي يا أبتاه . . .

فالتفت إليها صارخا :

ــ اسكتي !

قالت أمي ببرود :

ــ لا أسمح لك بأن تصيح في وجهي .

فنهضت جدتي عن الأريكة وهي ترفع إصبعها محذرة : فارفارا !

وجلس جدي متمتما :

ــ انتظري لحظة ! أريد أن أعلم من . . . هه ؟ من هو ؟ . . . كيف حدث ذلك ؟

وبغتة صرخ فى صوت كأنه ليس له :

— لقد جلبت على العار يا فاركا !

قالت لى جدتى .

— اخرجْ من الغرفة !

فذهبت إلى المطبخ وأنا أحس كأنى أختنق ، وصعدت فوق الموقدة وبقيت هناك وقتا طويلا أصغى إلى حديثهم الذى يسرى من خلال الحاجز . كانوا إما أن يتكلموا جميعا فى آن واحد ويقاطع بعضهم بعضا أو يصمتوا صمتا طويلا كأنهم ناموا . وكانوا يتحدثون عن طفل ولدته أمه أخيرا وعهدت به إلى بعض الناس ولكنى لم أستطع أن أفهم أكان جدى غاضبا لأن أمى ولدت طفلا دون إذنه ، أم لأنها لم تأت إليه بالطفل .

وقد جاء إلى المطبخ بعد حين أشعث مربدّ الوجه يبدو عليه التعب الشديد وجاءت معه جدتى وهى تمسح الدمع عن خدها بصدر ثوبها . فجلس على مقعد وقبع وأراح عليه يديه ، وأخذ يعض شفتيه الشاحبتين مرتجفا ، وجثت هى أمامه وقالت بهدوء ولكن فى حرارة شديدة :

— اعف عنها يا أبتاه ! اعف عنها محبة للمسيح ؛ أنت لا تستطيع نبذها على هذا النحو . أتظن مثل هذه الأشياء لا تحدث بين العلية وفى أسر التجار ؛ أنت تعرف مَنْ النساء . هيا اعف عنها . أنت تعرف أن الكمال ليس لأحد .

فاستند جدى بظهره إلى الحائط ، وسدد نظره إلى وجهها وزمجر بضحكة مرة كادت تكون عبرة .

— حسنا . ماذا بعد ؟ من ذا الذى لا ينال عفوك ؟ واعجبا ! لو كان الأمر بيدك لصفحت عن كل أحد . أخ . . . أنت !

ثم راح يهزها وقد انحنى عليها وقبض على كتفيها وقال وهو يهمس بسرعة :

— ولكن ، والله ، لا تتعبى نفسك . فلن تجدى لدى غفرانا : ها نحن على شفا القبر يدركنا العقاب فى أيامنا الأخيرة . . . لا راحة لنا ولا سعادة . . . ولن يكون لنا ذلك . . والأدهى - واذكرى قولى - أننا سنغدو قبل أن نموت شحاذين ، شحاذين . . .

فأخذت جدتى يده وجلست إلى جانبه وقالت ضاحكة بلطف :

— أوه يا مسكين ! أنت إذن تخشى أن تصبح شحاذا . وماذا إذا صرنا شحاذين ؟ سيكون همك كله أن تمكث فى البيت ، وأخرج أنا لأشحذ . . . لا تخف ، سيعطونى ! سيكون عندنا كثير ، فتستطيع أن تنحى عنك هذا العناء . .

فانفجر ضاحكا بغتة ، وهو يحرك رأسه كالتيس ، ثم طوق عنق جدتى وضمها إليه ، وهو يبدو إلى جانبها ضئيلا محطما . صاح :

ــ أوه يا حمقاء ، أيتها الحمقاء المباركة ! . . . أنت الآن كل ما أملك ! . . . أنت لا تعنين نفسك بشىء لأنك لا تفهمين . ولكن ينبغى أن ترجعى بصرك إلى الوراء قليلا . . وتذكرى كيف كنا نعمـــل لهم . . . كيف ارتكبت الخطايا من أجلهم . . . ومع ذلك فبرغم هذا كله ، الآن . . .

وهنا لم أعد أستطيع أن أطيق نفسى ، أو أحبس دمعى ، فوثبت عن الفرن واندفعت إليهما أبكى فرحاً لأنهما كانا يتحادثان بهذه المودة الرائعة ، ولأن أمى قد جاءت ، ولأنهما ضمانى إليهما أنا ودموعى ، وراحا يعانقانى ويحتضنانى ، ويبكيان معى ، ولكن جدى قال لى هامسا :

ــ وإذن فأنت هنـا أيها الشيطان الصغير ! حسنا ، لقد عادت أمك وأحسبك باقياً معها الآن دائما . ويستطيع الشيطان العجوز المسكين جدك أن يرحل . هه ؟ وجدتك التى دللتك هذا التدليل . . تستطيع أن ترحل أيضا ..

ثم نحانا كلينا عنه ووقف وهو يقول فى نبرة عالية مغضبة :

ــ كلهم يتركوننا ــ كلهم ينصرفون عنا . . . حسنا ، ناديها . ماذا تنتظرين ؟ أسرعى !

فخرجت جدتى من المطبخ وذهب هو ووقف فى الزاوية مطرق الرأس . بدأ يقول :

ــ أيها الآب الرحيم ، حسنا . أنت ترى حالنا !

ودق صدره بقبضة يده .

لم أكن أحب ذلك حين يصدر عنه ، الواقع أنى كنت أشمئز دائماً من طريقة كلامه لله ، لأنه كان يبدو مزهواً بنفسه أمام خالقه .

وحين دخلت أمى أضاء ثوبها الأحمر المطبخ ، وجلست إلى المائدة وإلى جانبيها جدى وجدتى ، فسقط كماها الواسعان على كتفيهما . وقد قصت عليهما شيئا فى هدوء ورزانة ، فأصغيا إليه صامتين دون أن يحاولا المقاطعة كأنما كانا طفلين وكانت هى أمهما .

وكان الانفعال قد غلبنى . فنمت على الأريكة

وفى المساء ذهب الشيخان إلى الصلاة وقد لبسا خير ملابسهما . غمزت جدتى غمزة مرحة فى اتجاه جدى الذى كان يتألق فى كسوة رئيس الحرفة المزركشة بفرو الرقون ، وقد برز كرشه فى عظمة . قالت جدتى وهى تغمز لأمى :

— انظرى إلى أبيك ؛ أليس عظيما . . . أليس أنيقاً كالجدى ؟

فضحكت أمى فى سرور .

وحين انفردت بها فى غرفتها كانت جالسة على الأريكة وقد ثنت قدميها تحتها ، وراحت تشير إلى المكان المجاور لها قائلة :

— تعال واجلس هنا . الآن قل لى . أتحب الحياة هنا ؟ كثيراً ـ هه ؟

كيف أجيبها ؟

— لا أدرى .

— إن جدك يضربك . أليس كذلك ؟

— ليس كثيراً الآن .

— أوه . حسنا . أخبرنى الآن عن كل شىء ... قل لى ما تريد ... حسنا ؟

لم أكن أريد أن أتكلم عن جدى ، فحدثتها عن الرجل الكريم الذى كان يقطن تلك الغرفة ، ولم يكن أحد يحبه ، ثم طرده جدى . واستطعت أن أرى أن هذه القصة لم ترقها إذ قالت :

— حسنا ، وماذا أيضا ؟

فحدثتها عن الصبيان الثلاثة وكيف طردنى الكولونيل من الحوش .

قالت متعجبة وقد ومضت عيناها :

— أى هراء !

وصمتت لحظة وهى تحدق فى الأرض . سألتُ :

— لماذا غضب جدى منك ؟

— لأنى فى رأيه قد ارتكبت خطأ .

— فى أنك لم تحضرى ذلك الطفل إلى هنا ؟ ...

فأجفلت إجفالا شديداً وعبست وعضت على شفتيها ، ثم انفجرت ضاحكة وهى تشد على أكثر من ذى قبل وتقول :

— أوه أيها العفريت الصغير ! يجب أن تلزم الصمت عن هذا ، أتسمع ؟ لا تتحدث به البتة . بل انس أنك سمعته .

وظلت تحدثني زمنا في هدوء وحزم ، ولكنني لم أفهم ما قالت ، ثم لم تلبث أن قامت وأخذت تذرع الغرفة وهي تنقر على ذقنها بأصابعها ، وترفع حاجبيها الكثيفين مرة وتخفضهما أخرى .

وكانت تشتعل على المائدة شمعة متميعة ، تنعكس على صفحة المرآة البيضاء ، وكانت تزحف على الأرض أشباح قاتمة ، وكان يضيء الأيقونة في الزاوية قنديل ، وقد فضض نور القمر النوافذ التي يكسوها الثلج . وكانت أمي تنظر حولها وكأنها تبحث عن شيء على الجدران العارية أو السقف .

— متى تذهب إلى الفراش ؟

— دعيني أمكث قليلا .

فقالت تذكّر نفسها :

— ثم إنك قد نمت اليوم قليلا .

سألتها :

— أتريدين أن ترحلي ؟

قالت بصوت ينم عن الدهشة :

— إلى أين ؟

ورفعتْ رأسي وأخذت تحدق في وجهي وقتاً طويلا حتى استعبرت عيناي .

سألتْ :

— ماذا بك ؟

— عنقي تؤلمني .

وكان قلبي يؤلمني أيضاً ، فقد أدركت بغتة أنها لن تبقى في منزلنا بل سوف ترحل ثانية قالت وهي تركل الحصير جانبا :

— أنت قصير مثل أبيك : هل روت لك جدتك شيئاً عنه ؟

ـــ أجل .

ـــ لقد كانت تحب مكسيم كثيرا . كثيرا حقا . وكان هو يحبها ...

ـــ أعلم .

فنظرت أمى إلى الشمعة وعبست ، ثم أطفأتها قائلة :

ـــ هذا أفضل !

نعم ، لقد جعلت الجو أنقى وأوضح ، واختفت الأشباح السوداء القاتمة ، ولاحت على الأرض فلوس من الضوء زرقاء متألقة ، ولمعت على زجاج النوافذ بلورات ذهبية .

ـــ ولكن أين عشت هذا الزمن كله ؟

فسمّت عدة مدن وكأنها تحاول أن تذكر شيئاً نسيته منذ زمن بعيد ، وكانت طوال الوقت تدور فى الغرفة ولا تحدث صوتاً كأنها صقر .

ـــ من أين لك ذلك الثوب ؟

ـــ لقد صنعته بنفسى . أنا أصنع كل ملابسى .

سرنى أن أراها تختلف عن غيرها ، ولكننى أسفت .

والواقع أنها لم تكن تفتح فاها إلا إذا وجهت إليها الأسئلة .

ثم جاءت وجلست بجانبى على الأريكة مرة أخرى ، وهناك بقينا دون كلام متلاصقين حتى عاد الشيخان تنبعث منهما رائحة الشمع والبخور ، ويغلب عليهما الهدوء والوداعة .

وتعشينا كما نتعشى أيام الأعياد ، فى احتفال ؛ ونحن نتبادل كلمات قليلة جداً نلفظها وكأننا نخشى أن نوقظ نائماً خفيف النوم جداً .

وسرعان ما نهضت أمى بتعليمى دروساً فى الروسية . فاشترت بعض الكتب ، وأخذتُ عن أحدها واسمه « الكلمات المتناسبة » فن قراءة الأحرف الروسية فى بضعة أيام . ولكن أمى ألزمتنى من بعد أن أستظهر أبياتاً من الشعر . وغاظنى ذلك وغاظها . كانت الأبيات هى :

Bolshaia doroga, primaia doroga

Prostora ve malo beresh twi ou boga

Febia ne rovniali toper se lopata

Niajha twi kopito se purlin bogata

ولكنى قرأت : « prostovo » مكان « prostora » ، و « roubili » مكان « rovinali » ، و « Kopito » مكان « Kopiton »

قالت أمى :

— فكر لحظة . كيف يمكن أن تكون « prostovo » أيها الشقى الصغير ! « pro-sto-ra » أتفهم الآن ؟

وقد فهمت ولكنى قرأتها مع ذلك « prostovo » وكانت دهشتى لذلك مثل دهشتها . قالت غاضبة إنى بليد عنيد ، فشق ذلك على سمعى ، إذ كنت أحاول مخلصا تذكر الأبيات الملعونة ، وكنت أستطيع أن أعيدها فى ذهنى دون خطأ ، ولكنى ما كنت أحاول الجهر بها إلا انحرفت عن الصواب . كرهت الأسطر المارقة ورحت أمزج الأبيات عامدا ، وأجمع بين الكلمات المتشابهة الجرس كيفما اتفق . وسرنى أن تخرج الأبيات بعد الرقية التى رقيتها بها مجردة عن المعنى تماما .

ولكن هذه المسرة لم تلبث طويلا دون عقاب . فقد سألتنى أمى ذات يوم بعد درس ناجح جدا هل حفظت الشعر ، فتمتمت وأنا لا أكاد أعنى :

Doroga, dvouraga, tvorog, nedoroga
Kopwita, pourito, Korurito..

وفطنت لنفسى بعد فوات الفرصة ، فنهضت أمى على قدميها وسألت فى نبرات واضحة جدا وهى تضع يديها على المائدة :

— ما هذا الذى تقوله ؟

أجبت بغباء :

— لا أدرى .

— أوه ، أنت تدرى جيداً !

— كان ذلك شيئا . . .

— أى شىء ؟

— شيئا مضحكا .

— اذهب إلى الركن .

— لماذا ؟

فأعادت بهدوء ولكن منظرها كان ينذر بالويل :

— أذهب إلى الركن .

— أى الأركان ؟

فحدقت فى وجهى دون أن تجيب ، تحديقا شعرت له بالقلق لأنى لم أفهم ماذا أرادتنى أن أفعل . كان فى أحد الأركان تحت الأيقونة نضد صغير عليه زهرية فيها عشب جاف عطر وبعض الأزهار ، وكان فى الركن الآخر صندوق مغطى وكان الفراش يشغل الركن الثالث ولم يكن هناك ركن رابع لأن الباب كان يلاصق الحائط . قلت يائسا من القدرة على فهمها :

— لست أعرف قصدك .

فاطمأنت قليلا ، ومسحت جبينها وخدها فى هدوء ثم سألت .

— ألم يضعك جدك فى الركن ؟

— متى ؟

صاحت وضربت المائدة بيدها ضربتين :

— دع عنك متى ! أما فعل ذلك قط ؟

— كلا — على الأقل أنا لا أذكر .

فتنهدت :

— أف ! تعال هنا .

فذهبت إليها قائلا :

— لماذا أنت غاضبة منى هكذا ؟

— لأنك أفسدت ذلك الشعر عامدا .

فبينت لها على خير ما استطعت أنى أذكره كلمة كلمة وأنا مغمض العينين ، ولكنى إذا حاولت النطق به بدا لى أن الكلمات تتغير .

— أواثق أنت من أنك لا تختلق هذا ؟

فأجبتها بأنى على ثقة تامة ، ولكنى حين فكرت مرة أخرى زايلتنى تلك الثقة وبغتة أعدت تلك الأبيات دون خطأ ما ، فاشتدت دهشتى واضطرابى . وقفت أمام أمى أحترق خجلا ، كأنما كان وجهى ينتفخ ، وعيناى الآلمتان تمتلئان بالدم ، وقد عجَّت فى رأسى أصوات بغيضة . ورأيت وجهها من بين دموعى مُربدّا من الغيظ وهى تعض شفتيها وتعبس . سألتْ فى صوت لا يشبه صوتها :

— ما معنى هذا ؟ أنت قد اختلقت الأسطر إذن ؟

— لا أدرى . أنا لم أقصد إلى ذلك .

قالت مطرقة برأسها :

ــ أنت متعب جدا . اذهب !

وبدأت تصر على أن أستزيد من حفظ الشعر ، ولكن ذا كرتى بدت على الأيام أضعف من أن تبق على الأسطر الرقيقة السلسة ، فى حين زادت رغبتى الطائشة فى تحريف الأبيات أو بترها ، قوة وشراً . بل إننى كنت أضع كلمات مختلفة أبده بها نفسى على نحو ما ، إذ كانت تعن لى مجموعة كاملة من الكلمات التى لا صلة لها بالموضوع وتمتزج خارج الكتاب بالكلمات الصحيحة . وكثيراً ما بدا لى أن سطرا كاملا من الشعر قد طمس فكنت لا أستطيع مهما أعنّ النفس فى المحاولة أن أرده إلى خاطرى . وقد كلفتنى قصيدة الأمير بيازمسكوف الحزينة (أظنها كانت له) قسطاً وافراً من العناء :

« عند المساء وفى الصباح الباكر
كان الشيخ الأرمل اليتيم .
يسأل الإنسان العون محبة للمسيح » .

ولكنى كنت أؤدى السطر الأخير دائما أداء صحيحا :

« يشحذ عند عند النوافذ وقد غلبه البؤس » .

وحين عجزت أمى معى ، قصت ألاعيبى على جدى فقال فى صوت ينذر بالشر :

ــ كل هذا خداع ! إن له ذاكرة بديعة . وقد حفظ المزامير معى عن ظهر قلب . . . إنه يخادع . هذا كل شىء . لا بأس بذاكرته . . . إن تعليمه مثل النقش على قطعة من الحجر هذا يدلك على جدواه . . . ينبغى أن تضربيه « علقه » .

وراحت جدتى أيضاً توبخنى :

ــ أنت تستطيع أن تذكر الحكايات والأغانى . . . أو ليست الأغانى شعرا ؟

كان هذا كله حقا وقد اشتد شعورى بالإثم ، ولكنى مع ذلك ما تهيأتُ لحفظ الشعر إلا زحفت الكلمات المختلفة من هنا أو هناك كأنها الخنافس ، والتأمت فى أسطر :

« نحن أيضا يأتى الشحاذون إلى بابنا ،
شيوخا ويتامى معدمين .
يأتون وينتحبون ويسألون طعامًا ،
سيبيعونه ، وإن يكن طيبا ،
إلى بتروفنا تغذو به بقراتها ؛

ثم يعبثّون الفودكا معربدين . »

وفى الليل حين كنت أرقد على الفراش إلى جانب جدتى ، كنت أعيد عليها حتى أتعب كل ما حفظته من الكتب وكل ما ألفته بنفسى . فكانت تقهقه أحيانا ولكن كان يغلب أن تحاضرنى :

— كفى ! اصنع ماشئت ، ولكن لايحق لك أن تسخر من الشحاذين ، باركهم الله ! لقد عاش المسيح فقيرا ، وكذلك القديسون جميعا .

تمتمتُ :

« أنا أكره الشحاذين
وأكره جدى أيضا
القصص محزن
فغفرانك اللهم !
إن جدى يضربنى
كلما استطاع . . »

صاحت جدتى غاضبة :

— عم تتحدث ؟ وددت لو قطع لسانك ! لو أن جدك سمع ما تقول . . .

— يستطيع أن يسمع إذا شاء .

قالت جدتى رزينة حانية :

— أنت تخطىء بوقاحتك هذه ، فهى لا تعدو أن تغضب أمك ، وإن عناءها يكفيها بدونك .

— ماذا بها ؟

— لا يهمك ! أنت لن تفهم .

— أعلم ! ذاك لأن جدى . . .

— أقول لك أسكت !

كنت تعس الحظ لأنى حاولت جاهداً أن أجد روحا تؤاخى روحى ، ولكنى كنت حريصا على ألا يعرف ذاك أحد ، فلذت بالوقاحة والمشاكسة . وأخذتْ دروسى مع أمى تزيد كراهة ومشقة على . وكنت أتقنت الحساب فى يسر ، ولكن كان يعوزنى الصبر على تعلم الكتابة ، أما النحو فقد استعصى على فهمه تماما .

على أن أشق ما أثقلنى ، وقد رأيته وشعرت به ، أن أمى كان يتعذر عليها أن تقيم فى منزل جدى . وقد زادت على الأيام تبرما ، وكانت كأنها تنظر إلى كل شىء بعينى شخص غريب . كانت تجلس الوقت الطويل عند النافذة المطلة على الحديقة لا تقول شيئا ، وبدا أن طلعتها المشرقة كلها قد ذبلت .

وكأن عينيها الغائرتين كانتا فى وقت الدرس تنفذان منى إلى الحائط أو النافذة ، وهى تلقى الأسئلة بصوت متعب ، ولا تلبث أن تنسى الأجوبة ، وقد زادت نوبات غضبها منى ، وكان ذلك يؤلمنى لأن الأمهات ينبغى أن يكن خير الناس مسلكا كما هى الحال فى القصص . كنت أقول لها أحيانا :

ـ أنت لا تحبين العيش معنا ، أليس كذلك ؟

فتصيح مغضبة :

ـ ألزم شأنك !

ولاح لى أن جدى مشغول بأمر يقلق جدتى وأمى . كان كثيراً ما ينفرد بأمى فى غرفتها فتسمعه هناك يعول ويصرخ كأنه مزمار نيكانورا الخشبى ـ ذلك الراعى المتعصب الذى كان يثير فىَّ البغض دائما . وفى أثناء إحدى هذه المناقشات صرخت أمى صرخة يسمعها كل من فى المنزل :

ـ لن أقبل ! لن أقبل !

واصطفق باب . وراح جدى يصيح .

حدث هذا فى المساء ، وكانت جدتى جالسة إلى مائدة المطبخ تصنع قميصا لجدى ، وتهمس لنفسها . وحين اصطفق الباب قالت وهى تنصت بانتباه :

ـ يا إلهى ! لقد صعدتْ إلى السكان .

وفى هذه اللحظة اقتحم جدى المطبخ واندفع إلى جدتى وضربها على رأسها وصرخ وهو يهز لها قبضته المهيضة :

ـ لا تثرثرى بأشياء لا حاجة إلى الحديث عنها ، أيتها العجوز الشمطاء !

فردت جدتى بهدوء وهى تسوى شعرها المهدل :

ـ أنت شيخ أحمق ! أتظننى ألزم الصمت ؟ سأخبرها بكل ما أعلمه من خططك دائما .

فالقى بنفسه عليها وأخذ يضرب رأسها الكبير بقبضتيه .

قالت وهى لا تحاول أن تحمى نفسها أو ترد إليه الضربات :

— امض ! اضربنى أيها الأحمق الأبلة ! . . . طيب ! . . . اضربنى !

وأخذتُ أرميه بالحشايا والأغطية والأحذية التى كان حول الفرن ، ولكنه كان فى سورة من الغضب فلم يحفل بها . وسقطت جدتى على الأرض ، فأخذ يضرب رأسها ، حتى عثر آخر الأمر وسقط هو أيضا وقلب دلواً مليئاً بالماء . فانتفض واقفا وهو يصخب وينخر ، ونظر حوله فى وحشية ، واندفع خارجا إلى غرفته فى العلية .

ونهضت جدتى تتأوه ، وجلست على المقعد وأخذت تسوى شعرها الملبد . وطفرت عن الأريكة ، وقالت لى مغضبة :

— ضع هذه الوسائد والأشياء فى مكانها . يا للفكرة ! أتلقى الوسائد على الناس ؟ . . . وهل كان ذلك من شأنك ؟ أما ذلك الشيطان العجوز فقد خرج عن عقله ـ الأحمق !

ثم تنفست بحدة ، وقادتنى وهى تجعّد وجهها وقالت مطرقة برأسها :

— انظر ! ما ذاك الذى يؤلمنى بشدة ؟

فنحيت شعرها الكثيف جانبا ، ورأيت أن أحد دبابيس الشعر قد غاص فى جلد رأسها فنزعته ، ولكنى حين وجدت غيره بدا لى أنى لا أستطيع أن أحرك أصابعى وقلت :

— أظننى يحسن بى أن أنادى أمى . أنا خائف .

فنحتنى جانبا . قالت :

— ما الأمر ؟ تدعو أمك حقا ! سأدعوك ! . . . الحمد لله أنها لم تسمع ولم تر شيئاً ! أما أنت . . . اغرب الآن عن وجهى !

وأخذت تنبش فى شعرها الكثيف بأصابعها ـ أصابع صانعة الوشى اللدنة ؛ فى حين استجمعت شجاعتى فعاونتها فى انتزاع دبوسين آخرين غليظين ملتويين .

— أتؤلمك ؟

— قليلا . سأحمى الحمام غداً وأغسل رأسى ، فيكون بخير .

ثم بدأت تقنعنى قائلة :

— والآن ياحبيبى أنت لن تقول لأمك إنه ضربنى . أليس كذلك ؟ إن بينهما من الجفوة ما يكفى بدون هذا . وإذن فأنت لن تقول ؟

— نعم .

— لا تنس ! تعال فضع الأشياء فى مكانها . . . ليس على وجهى رضوض ، أليس كذلك ؟ ذاك خير ، سنستطيع كتمان الأمر .

ثم راحت تنظف الأرض ، وصحت متعجبا من أعماق قلبي :

ــ أنت مثل القديسة . . . هم يعذبونك ويعذبونك ، وأنت لا تفكرين فى ذلك .

ــ ما هذا الهراء الذى تهذر به ؟ قديسة . . . أين رأيت قديسة مرة ؟

وظلت تتمتم لنفسها وهى تسعى على أربع ، بينما جلست أنا بجانب الفرن أفكر فى الوسائل التى أنتقم بها من جدى . كانت هى المرة الأولى التى ضرب فيها جدتى على مشهد منى بتلك الطريقة المنفرة المخيفة . كان وجهه الأحمر وشعره الأصهب يشخصان أمامى فى الغسق وكان قلبى يغلى بالغضب .

ولكنى حين صعدت إلى عليَّته بعد يوم من هذا أو يومين ، أحمل شيئا له ، رأيته جالساً على الأرض أمام صندوق مفتوح ينظر فى بعض الأوراق ، فى حين كان تقويمه المحبوب ملق على أحد الكراسى . كان التقويم يتألف من اثنتى عشرة ورقة سميكة شهباء مقسمة إلى مربعات بعدد أيام الشهر ، وفى كل مربع رسم قديس اليوم . وكان جدى يغالى فى قيمة هذا التقويم ، ولا يتركنى أنظر فيه إلا فى تلك الفترات النادرة التى يرضى فيها عنى رضاء شديدا ، وكنت أحس احساساً لا أستطيع اكتناهه وأنا أنظر فى تلك الرسوم الصغيرة الشهباء المتلاصقة . وكنت أعلم أيضا سيرة بعضهم سيرة كيرك وأولين وبربارة الشهيدة العظيمة ، وبأنتليمن ، وسير كثيرين سواهم . ولكن كان أحبها جميعا إلى سيرة ألكسى الصالح الحزينة ، والأسفار الجميلة عنه . وكثيرا ما قرأتها لى جدتى متأثرة . كان المرء يستطيع أن يتأمل مئات من مثل هؤلاء الناس ثم يعزى نفسه بأنهم كانوا جميعا شهداء .

ولكنى عزمت الآن على أن أمزق التقويم ، وحين ذهب جدى إلى النافذة بورقة زرقاء قاتمة ليقرأها ، نزعت عدة أوراق ، وطرت إلى أسفل فاختطفت المقص من فوق منضدة جدتى ، واستلقيت على الأريكة وأخذت أقطع رءوس القديسين .

وحين قطعت رءوس صف منها بدأت أشعر أن من المؤسف إتلاف التقويم ، فعزمت على أن أكتفى بقص المربعات ، ولكن قبل أن أتم الصف الثانى ظهر جدى على عتبة الباب وسألنى :

ــ من سمح لك بأن تأخذ التقويم ؟

ثم رأى مربعات الورق منثورة على المائدة فالتقطها واحداً بعد واحد وأخذ يدنى الواحد منها من وجهه ، ثم يتركه ويتناول سواه ، وكان فكه قد التوى ، وأخذت لحيته

تعلو وتهبط ، واشتدت أنفاسه حتى أطارت الأوراق على الأرض . صرخ آخر الأمر وهو يجرنى إليه من قدمى :

— ماذا فعلت ؟

فأخذت أتلوى ، وأمسكت بى جدتى ، وقد راح جدى يضربها بقبضتيه ويصرخ :

— سأقتله !

وفى هذه اللحظة ظهرت أمى ، فالتجأتُ إلى زاوية الفرن ، بينما أخذت هى عليه الطريق وأمسكت بيديه اللتين كان يشهرهما فى وجهها ودفعته بعيداً وهى تقول :

— ما معنى هذا المسلك الشائن ؟ تمالك نفسك .

فألقى جدى بنفسه على المقعد تحت النافذة عاويا :

— أنتم تريدون قتلى . أنتم كلكم ضدى ـ كل فرد منكم .

قالت أمى بصوت ضعيف :

— اما تستحى لمَ هذه الدعوى كلها ؟

فصرخ جدى وركل المقعد وقد برزت لحيته نحو السقف بروزا مضحكا ، وأغمض عينيه بشدة . خلته خجلا من أمى حقا ، مدعيا حقا ـ وأنه لذلك ظل مغمضا عينيه . قالت أمى وقد لمحت القطع والأوراق :

— سأصمغ هذه الأجزاء كلها معا على قطعة قماش فتبدو خيرا مما كانت . أنظر ! إنها مغضَّنة ممزقة . لقد كانت مهملة .

كانت تكلمه كما اعتادت أن تكلمنى وقت الدرس حين يشق على أن أفهم شيئا ما ، وسرعان ما وقف وسوَّى قميصه وصداره باعتناء وتنحنح وقال :

— صمغها اليوم . سأحضر لك الأوراق الأخرى حالا .

وذهب إلى الباب ولكن وقف على العتبة وأومأ إلى بإصبع معوجة قائلا :

— وينبغى له أن يجلد .

فقالت أمى موافقة وهى تنحنى على .

— لا مراء فى هذا . . . لم فعلت ذلك ؟

ـــ لقد فعلته عمدا . نخير له ألا يضرب جدتى مرة أخرى وإلا جززت لحيته .

قالت جدتى وهى تنزع صدارها الممزق وتهز رأسها عاتبة :

ـــ أسكت الآن كما وعدت ـ وتفلت على الأرض ـ ليتورم لسانك إن لم تعقله !

فنظرت إليها أمى وعبرتْ ، المطبخ ثانية :

ـــ متى ضربها ؟

قالت جدتى غاضبة :

ـــ يجب أن تستحى يا فارفارا من سؤاله عن ذلك. هل هذا من شأنك ؟

فذهبتْ إليها أمى وطوقتها بذراعها قائلة :

ـــ أوه يا أميمة ، يا أميمتى العزيزة !

ـــ أوه ، اذهبى « بأميمتك » . اذهبى .

ونظرت كل منهما إلى الأخرى فى صمت ، وسُمع جدى وهو يذرع الردهة .

* * *

كانت أمى أول ما قدمت إلى المنزل قد صادقت السيدة الطروب زوجة الجندى ، وكانت تصعد كل مساء تقريبا إلى الغرفة الأمامية من الشقة حيث تلتقى فى بعض الأحيان أناسا من منزل بيتلنخا : نساء جميلات وضباطا . ولم يكن ذلك يروق جدى قط ، وبينما كان جالسا فى المطبخ ذات يوم هز لها ملعقته منذرا ودمدم :

ـــ وإذن فانت تستأنفين عوائدك القديمة ، عليك اللعنة ! إننا الآن لا يتاح لنا النوم حتى الصباح .

ولم يلبث أن طلب إلى السكان أن ينتقلوا فلما رحلوا جاء بحملين من الأثاث المتناسق من مكان ما ، ووضعه فى الغرفة الأمامية ، وأغلق عليه بقفل كبير . قال :

ـــ لا حاجة بنا إلى سكان سأقوم أنا الآن باستقبال الزوار .

وهكذا بدأ الزوار يتقاطرون علينا أيام الآحاد والأعيـــاد . كانت هناك ماترينا سرجييف شقيقة جدى ، وهى غسالة سليطة ذات أنف كبير ، ترتدى ثوبا حريريا مخططا وتصبغ شعرها بلون الذهب ، وكان يأتى معها أبناها فاسيلى وهو رسام طويل الشعر سمح مرح ملابسه كلها رمادية ، وفكتور وملابسه بألوان الطيف ، ذو رأس كرأس الحصان

ووجه ضيق أنمش ، وكان ـ حتى وهو فى الردهة ينزع حذاء المطر ـ يغنى بصوت صافر مثل صوت بتروشـــكا غنوة « يا أبى أندريه ! يا أبى آندريه ! » التى كانت تسبب لى شيئا من الدهش والقلق .

وكان خالى يا كوف يأتى أيضا ومعه قيثارة ، ويصحبه رجل أصلع مقوس هو ساعاتى يرتدى سترة طويلة سوداء ، دمث الخلق كان يذكرنى براهب . وكان يجلس فى زاوية وقد أمال رأسه إلى جانب ، وأخذ يضحك ضحكا غريباً وهو ينقر بأصابعه على لحيته الطويلة المفروقة . كان أسمر وكان فى نظرته إلينا بعينه الواحدة « شىء غريب » وكان نزر الكلام وتعبيره المحبوب هو : « أرجو ألا تنزعج . لا أهمية لهذا البتة . »

حين رأيته لأول مرة ذكرت بغتة أنى سمعت يوماً من زمن بعيد ، ونحن نقطن الشارع الجديد ، صوت طبل أصم متلاحقاً يدق خارج الباب ، ورأيت عربة زبالة يحيط بها جنود وأناس يرتدون السواد ، تسير من السجن إلى الميدان ، وكان يجلس فى العربة على أحد المقاعد رجل متوسط الحجم عليه قبعة صوفيـــة ، مشدود الوثاق ، تظهر على صدره رقعة سوداء كتبت عليها بعض الكلمات بأحرف بيضاء كبيرة ، وكان الرجل مطرق الرأس كأنه يقرأ ما كتب هناك ، يرتجف جسمه كله فترن قيوده . فلما قالت أمى للساعاتى : « هذا ابنى » أجفلتُ منه فزعا ، ووضعت يدى وراء ظهرى . فقال .

— أرجو ألا تنزعج .

وخلت فمه كله يمتد بطريقة مخيفة حتى يبلغ أذنه اليمنى ، وهو يقبض على حزامى ويجذبنى إليه ، ويديرنى بسرعة وخفة ثم يطلقنى .

— لا بأس به . إنه صبى قوى .

لجأت إلى الركن حيث كان كرسى منجد بالجلد كبير حتى ليستطيع المرء أن يرقد فيه ، وكان جدى يباهى به ويسميه « كرسىّ الأمير كروزنكى » فاستويت إليه وأخذت أنظر ، وأنا أرى أن أفكار الراشدين من الناس عن التسلية أفكار مملة ، وأن طريقة الساعات فى تغيير ملامح وجهه كانت غريبة لا تبعث على الاطمئنان .

كان وجهه مَزيتا مرنا يبدو كأنه يذوب ويختلج دائماً فى رفق ، وإذا ضحك امتدت شفتاه الغليظتان إلى خده الأيمن ، والتوى أنفه الصغير أيضا فى ذلك الاتجاه ، وبدا كأنه فطيرة لحم على طبق . وكانت لأذنيه الكبيرتين الناتئتين حركة غريبة أيضا فإحداهما ترتفع كلما

ارتفع حاجب عينه المبصرة ، والأخرى تساير عظم الفك العلوى فى حركته . وإذا عطس بدا كأنه يستطيع أن يعطى بهما أنفه كما يغطيه براحة يده ، وكان يتنهد أحيانا ويخرج لسانه القانى كأنه مدقّة ويلعق شفتيه الغليظتين النديتين بحركة دائرية . لم يكن ذلك يبدو لى مضحكا بل شيئاً لا يعدو أن يكون غريبا ولا حيلة لى فى النظر إليه .

وكانوا يشربون الشاى مع شىء الروم ، فتنبعث منه رائحة كرائحة رءوس البصل المشوية وكانوا يحتسون أشربة صنعتها جدتى ، بعضها أصفر كالذهب ، وبعضها أسود كالقير ، وبعضها أخضر . وكانوا يأكلون خاثر اللبن ، والكعك المعجون بالزبد والبيض والعسل . وكانوا يعرّقون ويلهثون ويكيلون الثناء لجدتى . وإذا ما فرغوا من الطعام تربّعوا على كراسيهم موردين منفوخين وسالوا خالى ياكوف فى خمول أن يعزف .

فكان ينحنى على قيثارة ويبدأ يغنى هذه الأغنية المثيرة الفظة :

« أوه ، لقد خرجنا معربدين .
وعجت المدينة بأصواتنا الطليقة ،
وقصصنا قصتنا رجلا رجلا ،
على سيدة من أهل قازان . »

ظننتها أغنية حقيرة ، وقالت جدتى :

ـــ لم لا تعزف شيئا آخـــر يا ياشا ؟ أغنية حقيقية ! أتذكرين ياماترينا الأغانى التى كنا نغنيها ؟

فبسطت الغسالة ثوبها الهفاف وقالت مذكرها :

ـــ هناك طراز جديد للغناء الآن ياتوشكا .

ونظر خالى إلى جدتى وهو يطرف كأنها كانت منه على مبعدة ، ثم مضى فى إصرار يقذف تلك الأصوات الكئيبة والكلمات السخيفة .

وكانت جدتى تتحدث مع الساعاتى حديثا غامضا ، وإصبعها تشير إليه ، فكان هذا ينظر إلى الزاوية التى فيها أمى وهـــو يرفع حاجبيه ثم يهز رأسه ، ويتخذ وجهه المرن شكلا جديدا لا يوصف .

وكانت أمى تجلس دائما بين الأخوين سرجييف فتنهدت وهى تكلم فاسيلى فى هدوء وصرامة :

ـــ نـ . . . مم ! ذاك أمر يحتاج إلى التفكير .

وبسم فكتور بسمة من أكل حتى شبع وصك الأرض بقدميه وانفجر بغتة يغنى :

— يا أبى أندريه ! يا أبى أندريه !

فصمتوا جميعا مأخوذين ونظروا إليه ، بينما راحت الغسالة تقول مفسرة فى زهو :

— لقد أخذها عن المسرح . إنهم يغنونها هناك .

ومرت أمسيتان أو ثلاث كهذه يحفرها فى الذاكرة إملالها الممض ، ثم ظهر الساعاتى نهاراً فى يوم أحد بعد القداس الكبير . وكنت جالسا مع أمى فى غرفتها أعينها على إصلاح ثوب مطرز بالخرز ممزق ، ففتح الباب على مصراعيه دون توقع ، واقتحمت جدتى الغرفة وقد بدا على وجهها الفزع وهمست بصوت مسموع :

— فاريا ! لقد جاء .

واختفت لتوها . لم تتحرك أمى ولم يختلج لها هدب ، ولكن الباب لم يلبث أن فتح ثانية ، ووقف جدى هناك على العتبة .

— أرتدى ملابسك يا فارفارا وأقبلى !

فجلست ساكنة وقالت دون أن تنظر إليه :

— أقبل إلى أين ؟

— أقبلى بالله ! لا تجادلى ! إنه رجل خـــير هادىء ذو مكانة طيبة ، وسيكون أبا صالحاً لليكسى .

وكان يتكلم باهتمام غير مألوف وهو يربت على جانبيه براحتى يديه ، ولكن مرفقيه كانا يرتجفان وقد ثناهما إلى الخلف ، كأنما كانت يداه تريدان أن تمتدا أمامه وهو يكافح لردهما .

قاطعته أمى بهدوء :

— أقول لك إن ذلك لن يكون .

فتقدم جدى إليها وهو يمد يديه كأنه أعمى ، وقال لها بصوت مجلجل وهو ينحنى عليها وقد استشاط غضبا :

— تعالى وإلا جررتك إليه . . . من شعرك .

فسألته أمى وهى تنهض ،

— ستجرنى إليه ، أليس كذلك ؟

وشحبت والتقت عيناها فى ألم وهى تنزع بسرعة صدارها وثوبها ، وأخيراً ذهبت إلى جدى وليس عليها سوى القميص وقالت .

— الآن جرّنى إليه .

فصر على أسنانه وهز قبضته فى وجهها :

— فارفا ! ارتدى ملابسك حالا !

فدفعته أمى بيدها جانبا ، وأمسكت بأكرة الباب :

— حسنا ! هيا !

فهمس جدى :

— عليكَ اللعنة !

— إنى لست خائفة . تعال .

وفتحت الباب ولكن جدى أمسكها من قمصها وخر على ركبتيه هامسا :

— فارفا ! يا شيطانة ! ستقضين علينا . أما تستحين !

وأعول فى رفق وشكاية :

— أمّ . . . . اه ! أمّ . . . . اه !

وكانت جدتى قد أخذت الطريق على أمى ، وراحت تلوح بيدها فى وجهها كأنها دجاجة وقد أبعدتها الآن وهى تدمدم من بين أسنانها المطبقة :

— فاركا ! يا حمقاء ! ماذا تفعلين ؟ أذهبى أيتها الفاجرة الوقحة !

ودفعتها داخل الغرفة ، وأوصدت الباب بالمغلاق ، ثم انحنت على جدى تعينه على النهوض بإحدى يديها وتهدده بالأخرى :

— أغ ! أيها الشيطان العجوز !

وأجلسته على الأريكة فتهالك عليها كأنه دمية من الخرق ، وفمه مفغور ورأسه يتمايل :

صاح جدى بأمى :

— ارتدى ملابسك حالا !

فقالت أمى وهى تلتقط ثوبها من الأرض :

— ولكنى لن أذهب إليه . أتسمع ؟

فدفعتنى جدتى عن الأريكة :

— أحضر حوضا من الماء . أسرع !

وكانت تتكلم فى صوت خافت يكاد يكون همسا وفى سكون وثقة .

فجريت إلى الردهة ، وكنت أستطيع أن أسمع الوقع الثقيل لخطوات منتظمة فى الغرفة الأمامية من الشقة ، وترامى إلىّ صوت أمى من الحجرة :

— سأترك هذا المكان غدا !

وذهبت إلى المطبخ وجلست عند النافذة كأنى كنت فى حلم .

كان جدى يئن ويصرخ ، وكانت جدتى تدمدم ، ثم سمع صوت باب يغلق ، وران الصمت . الصمت الثقيل .

وحين ذكرت ما أرسلت من أجله اغترفت شيئاً من الماء فى حوض نحاسى وذهبت إلى الردهة . فإذا بالساعاتى قادم من الغرفة الأمامية منكس الرأس ، وهو يمسح بيده قبعة الفراء ويبطبط . وكانت جدتى تقول بلطف وقد عقدت يديها على بطنها وانحنت على ظهره :

— أنت تعرف ذلك بنفسك . لا أحد يجبرك على التلطف مع الناس .

فوقف على العتبة ، ثم خطا إلى الحوش ، وراحت جدتى ترسم الصليب وهى ترتجف من الفرع إلى القـــدم ، ويبدو أنها لاتدرى أهى ترغب فى الضحك أم البكاء . سألت وأنا أعدو إليها :

— ما الأمر ؟

فاختطفت الحوض منى وهى ترش الماء على رجلىّ وصاحت :

— إذن أنت تجلب الماء من هنا ؟ أغلق الباب !

ورجعتْ إلى غرفة أمى ، وذهبت أنا إلى المطبخ ثانية وأصغيت إليهم وهم يزفرون ويئنون ويتمتمون كأنهم يتعتعون من مكان إلى مكان ثقلا يفوق طاقتهم .

* * *

كان يوما مشرقا ، انسلت فيه الأشعة المائلة من شمس الشتاء خلال زجاج النوافذ الذى يكسوه الثلج . وكان على المائدة المعدة للغداء آنية الزنك وقدح به كفاس حمراء وآخر به شىء من الفودكا خضراء صنعتها جدتى من البتونيكا وجمة القديس يوحنا ، وكان لها لمان ضعيف . ومن خلال المواضع التى تميع فيها الثلج على النوافذ ، كان الجليد يرى على السقوف باهر الإشراق لماعا كالفضة على أعمدة السور . وكانت أطيارى فى أقفاصها المعلقة بإطار النافذة تلعب فى ضوء الشمس ، كانت الزرازير الأليفة تزقزق مرحة ، وأبو الحن يشدو شدوه الحاد الصافر ، والحساسين تسبح .

ولكن هذا اليوم الفضى المشرق الذى صفا فيه كل شىء ووضح ، لم يجلب لى السرور معه ، فقد بدا فى غير موضعه ـ كل شىء بدا فى غير موضعه ، واستولت على الرغبة فى أن أطلق الطير ، وكدت أنزل الأقفاص وإذا بجدتى تقتحم الحجرة وهى تدق جانبيها بيديها ، واندفعت إلى الفرن وأخذت تسب نفسها :

— عليكِ اللعنة ! ساء حظك من حمقاء عجوز يا أكولينا !

وأخرجت من التنُّور فطيرة ولمست قشرتها بأصبعها . وتَفَلَتْ على الأرض من الغيظ .

— أنظر . لقد جفت تماما ؟ عليك وزر احتراقها . اغ ! يا شيطان ! سحقا لأعمالك كلها ! لمَ لا تفتح عينيك يا بومة ! ... أنت منحوس كالنقد المزيف !

وبكت ونفخت الفطيرة ، وقلبتها على هذا الوجه ثم على ذاك ، وهى تنقر بأصابعها على القشرة الجافة التى تناثرت عليها فى تعاسة قطرات دموعها .

وحين جاء جدى وأمى إلى المطبخ ألقت الفطيرة على المائدة فى عنف حتى قفزت الأطباق كلها .

— أنظر إلى هذا ! هذا عملك ... لن تنال قشرة ولا لبابا !

فقبّلتها أمى وكانت مفعمة بالسعادة والهدوء ، ورجتها ألا يغضبها ذلك ، بينما جلس جدى إلى المائدة بادىَ الانهاك والتعب ، وبسط فوطته وتمتم وهو يطرف لسقوط أشعة الشمس على عينيه :

— كفى ... ذاك لا يهم . لقد أكلنا كثيرا من الفطائر التى لم تتلف . إن الله حين يشترى يدفع ثمن العام دقائق ... ولا يسمح بربح ... اجلسى يافارفارا ! ... ولنفرغ من الأمر !

كان مسلكه مسلك من فقد رشده . وكان يتكلم طوال وقت الغداء عن الله وعن الفاسق أهاب ، وذكر عبء الأبوة ، حتى قاطعته جدتى غاضبة :

— تناول غداءك ... هذا خير ما تستطيع عمله !

وكانت أمى تمزح طوال الوقت وتتألق عيناها الصافيتان . سألتنى بوكزة منها :

— وإذن فقد فزعت الآن ؟

كلا إننى لم أفزع إذ ذاك ، ولكنى شعرت الآن بالقلق والحيرة وبدالى مع تباطىء الوجبة المألوف أيام الآحاد والأعياد أن أولئك الناس ليسوا هم الذين كانوا منذ نصف

ساعة يتصايحون ويكادون يتشاجرون ، وينفجرون بالدموع والعبرات . لم أكن أصدق أنهم ، بعبارة أخرى ـ كانوا يجدُّون الآن ، ولا يريدون البكاء طوال الوقت . ولكن تلك الدموع والصيحات والشتائم التي كان الواحد منهم يصبُّها على الآخر ، كانت تحدث كثيرا ، وتمر بسرعة ، حتى بدأتُ أعتادها ، ولم تعد تثيرني أو تحزُّ في قلبي .

وقد أدركت بعد ذلك بوقت طويل أن الشعب الروسيّ يحب ، لفقر حياته وقذارتها ، أن يتسلى بالحزن — أن يلعب به كالأطفال . وقل أن يخجل من تعاسته .

الأسى عيدٌ بين أيام الأسبوع التي لا تنتهي . والنار مسرةٌ — إن الخدش زينة الوجه الفارغ .

الفصل الحادي عشر

استقر الأمر لأمي بعد هذه الواقعة ورسخت أقدامها ولم تلبث أن أصبحت سيدة المنزل ؛ بينما صار جدي ـ وقد غلب عليه التفكير والهدوء ولم يعد يشبه نفسه ـ شخصا لا قيمة له .

كان لا يكاد يغادر المنزل ، بل يجلس طول النهار فى العلية يقرأ خفية كتابا اسمه : «كتابات أبى » . وكان يحتفظ بهذا الكتاب فى صندوق يغلقه عليه ، وقد رأيته مرة يغسل يديه قبل أن يتناوله ، كان كتابا قصيراً غليظاً ضخما مجلدا بجلد أحمر ،وكان على صفحة العنوان الزرقاء القاتمة كتابة مخطوطة أنيقة بالوان مختلفة من المداد : « إلى فاسيلى كاشيرين الفاضل رمزا للشكر والذكرى الخالصة » وكتب تحتها بعض الالقاب الغريبة ، أما وجه الكتاب فقد رسم عليه طائر منشور الجناح .

كان جدى يضع منظاره ذا الأطار الفضى وهو يفتح الغلاف الثقيل بعناية ، ويظل وقتا طويلا يحرك أنفه علوا وسفلا وهو يحدق فى الكتاب كى يثبّت منظاره على الزاوية الصحيحة .

وقد سألته غير مرة أى كتاب يقرأ ولكنه لم يكن يعدو أن يجيب متأثرا :

ــ لايهمك ... انتظر قليلا فسيكون لك حين أموت . وسأترك لك أيضا سترة الرقّون ،

وزاد لطفا فى كلامه لأمى ، وأن قلّ كلامه معها . كان يصغى بانتباه إلى أحاديثها وعيناه تلمعان كعينى عم بطرس ويتمتم وهو ينحّيها جانبا :

ــ كفى ! أفعلى ما شئت .

وكان فى صندوقه ذاك قطع كثيرة رائعة من الثياب ـ أُزُرٌ حريرية وسُتر من الخز منقوشة وجلابيب حريرية بغير أكمام ، ونسيج موشى بالفضة ، وعصائب مرصّعة باللؤلؤ ، وأطوال من القماش والمناديل . وعقود الأحجار الملونة . وقد أخذها جميعا إلى غرفة أمى وهو يلهث ووضعها على الكراسى والمناضد ـ وكانت الملابس بهجة أمى ـ وقال لها :

ــ لقد كانت الثياب فى شبابنا أجمل وأفخم مما هى الآن . كانت الثياب أفخم ، ولعل الناس كانوا أكثر وفاقا فيما بينهم . ولكن هذه أزمان سلفت ، ولا يمكن أن تعود . . . إليك هذه : خذيها وتزيّنى .

وذات يوم ذهبت أمى إلى غرفتها وغابت قليلا ، ثم عادت ترتدى ثوبا أزرق قاتما بلا أكمام ، مطرزا بالذهب ، وعصابة من اللؤلؤ ، وسألت وهى تنحنى لجدى :

— حسنا . كيف ترى هذا يا سيدى الوالد ؟

فتمتم جدى شيئا، وراح يدور حولها رافع اليدين وقد تألق تألقا رائعا وقال دون أن يبين كأنه يتكلم فى نومه :

— إش ! يافارفارا ! لو كان لك مال كثير لحام حولك أفضل الناس !

وكانت أمى تقيم الآن فى غرفتين من الشقة ، ويزورها جمهرة من الزوار ، على أن أكثرهم ترددا كان الأخوين مكسيموف : بطرس وهو ضابط وسيم حسن الحال ، له لحية طويلة خفيفة وعينان زرقاوان ، وهو الرجل الذى ضربنى جدى أمامه لأنى تفلت على رأس السيد العجوز ؛ ويوجين وهو طويل نحيل أيضا ، شاحب الوجه له لحية صغيرة مقرونة . وكانت عيناه الكبيرتان مثل البرقوق وكان يرتدى سترة خضراء ذات أزرار ذهبية ، وعلى كتفيه الضيقتين أحرف ذهبية . وكان كثيرا ما يهز قليلا ينحّى شعره الطويل المموج عن جبينه العالى الناعم ، ويبتسم فى سماحة . وكان إذا راح يقص قصة ما بصوته الأجش بدأ الحديث دائما بهذه الكلمات المتلطفة :

— أأخبركم كيف يبدو الأمر لى ؟

وكانت أمى تنصت إليه متألقة العينين وتقاطعه كثيرا ضاحكة قائلة :

— أنت طفل يا يوجين فاسيلوفتش . أغفر لى قولى هذا .

فكان الضابط يربت براحتيه العريضتين على ركبتيه ويصيح :

— طفل غريب !

ومرت عطلة عيد الميلاد فى مرح صاخب ، وكان الناس يأتون لزيارة أمى كل مساء تقريبا بملابسهم الكاملة ، أو ترتدى أمى ثوب السهرة ـ وكان أجمل من أثوابهم ـ وتخرج مع ضيوفها .

وكانت كلما ذهبت فى صحبة ضيوفها بملابسهم الزاهية بدا كأن المنزل يغوص فى الأرض، وكأن صمتا مفزعا يزحف إلى كل ركن من أركانه . كانت جدتى تجوس خلال الحجرة كالوزة العجوز ، تضع كل شىء مكانه . وكان جدى يقف وظهره إلى آجرّ الفرن الدافىء ويكلم نفسه :

— حسنا . . . هذا يكفى . . . حسنا جدا . سننظر ونرى أيّة أسرة . . .

وبعد عطلة عيد الميلاد أرسلتنى أمى أنا وساشا ابن خالى ميخائيل إلى المدرسة . كان والد ساشا قد تزوج ثانية ، وكرهت زوجته من يومها ابن زوجها ، وبدأت تضربه ، فأخذه

جدى بعد أن رجته أمى ، ليقيم فى منزله . وقد ذهبنا إلى المدرسة شهرا ، وكان كل ما تعلمته فيما أذكر : أنى لا ينبغى حين أسأل : ما لقبك ؟ أن أجيب ببساطة : « بيشكوف » ، بل أقول : « لقبى هو بيشكوف » ، وأنى لا ينبغى أيضا أن أقول للمعلم : لا تصح فى يا صاحبى العزيز فأنا لا أخافك !

لم أحب المدرسة أول الأمر ولكن ابن خالى كان شغوفا بها فى البداية ، وعقد الصداقات فى يسر ، ولكنه نام مرة أثناء درس من الدروس وصاح فجأة فى نومه :

— لن أفعل !

واستيقظ فزعا وجرى من حجرة الدرس فى غير احتفال ، وقد ضحكوا منه لهذا دون شفقة ؛ وفى اليوم التالى حين كنا فى الممر المجاور لميدان سينى فى طريقنا إلى المدرسة ، توقف عن السير قائلا :

— امض أنت . . . لن أذهب . . . بل أفضل أن أتنزه .

وأقعى على عقبيه ودس رزمة كتبه باهمال فى الجليد ، ومضى . كان اليوم صحوا من أيام يناير ، وكانت أشعة الشمس الفضية تتساقط حولى ، وقد حسدت ابن خالى كثيرا ، ولكنى ثبتُّ قلبى وذهبت إلى المدرسة . لم أرد أن أحزن أمى ، وقد اختفت الكتب التى دفنها ساشا طبعا ، فكانت له علة شرعية للانقطاع عن المدرسة فى اليوم التالى . ولكن نبأ مسلكه ترامى إلى جدى فى اليوم الثالث ، فدعينا للمحاكمة ، وجلس إلى المائدة فى المطبخ جدى وجدتى وأمى وراحوا يستجوبوننا — ولن أنسى كيف كان ساشا مضحكا فى إجابته عن أسئلة جدى :

— لمَ — لم تذهب إلى المدرسة ؟

— لقد نسيت أين هى .

— نسيت ؟

— اجل — لقد بحثت وبحثت . . .

— ولكنك ذهبت مع أليكسى ، وكان يذكر أين هى .

— ولكنى فقدته .

— فقدت ألكسى ؟

— أجل . .

— كيف حدث هذا ؟

ففكر ساشا لحظة ثم قال وهو يشهق :

— لقد هبت عاصفة جليدية ، ولم تكن تستطيع أن ترى شيئاً .

فابتسموا جميعا . وأخذ الجو ينجلي ، بل أن ساشا ابتسم فى حذر ، ولكن جدى قال ساخطا وهو يكشر عن أسنانه :

— ولكنك كنت تستطيع أن تمسكه من يده أو حزامه . أما كنت تستطيع ؟

قال ساشا مفسرا :

— لقد أمسكتهما ولكن الريح ذهبت بها .

كان يتكلم بنبرة قانطه كسلى وكنت أصغى إليه ضيقا بكذبته السمجة التى لا ضرورة لها ، متعجبا من عناده .

جلدنا ، ثم عهد إلى رجل من رجال الحريق السابقين ، شيخ مكسور الذراع أن يذهب بنا إلى المدرسة ، ويرى أن ساشا لا يضل عن طريق العلم . ولكن ذلك لم يجد ، فما كدنا نصل إلى الجسر فى اليوم التالى حتى انحنى ابن خالى فجأة ، ونزع أحد حذائيه الطويلين وألقى به بعيدا عنه ، ثم نزع الآخر وألقى به فى الاتجاه المضاد ، وجرى عبر الميدان بجوربيه ، فالتقط الشيخ الحذاءين وهو يتنفس بمشقة احمر لها وجهه ، وأخذنى إلى المنزل .

وظل جدى وجدتى وأمى طوال ذلك النهار يبحثون فى المدينة عن الهارب ، وحل المساء قبل أن يجدوه فى البار بحانة تشيركوف يسلى الناس برقصة . وقد أتوا به إلى البيت ، وفى الحق أنهم لم يضربوا ذاك الغلام المرتجف العنيد الصامت ، ولكنه قال لى بلطف وهو راقد إلى جانبى فى العلية ورجلاه إلى أعلى وكعبا حذائيه يحكان السقف :

— إن زوجة أبى لا تحبنى ، وأبى لا يحبنى ، وكذلك جدتى أيضا ، فلم أعيش معهم ؟ سأسأل جدى أين يعيش اللصوص فأهرب إليهم . . . وإذ ذاك تفهمون ، جميعـاً . . . لماذا لا نهرب معاً ؟

لم اكن أستطيع أن أهرب معه ، إذ كان لدى فى تلك الأيام ما يشغلنى ـ لقد عزمت أن أصبح ضابطاً ذا لحية كبيرة خفيفة ، والدراسة فى سبيل ذلك أمر لا مفر منـه . وحين أخبرت ابن خالى بخطتى وافقنى عليها بعد تأمل .

— هذه فكرة طيبة أيضا . ومتى أصبحت أنت ضابطاً صرت أنا شيخ لصوص فيكون عليك أن تأسرنى ، ويضطر واحد منا أن يقتل الآخر أو يأسره . وأنا لن أقتلك .

— ولا أنا .

لقد كنا على اتفاق فى هذا الأمر .

ثم جاءت جدتى وصعدت على الفرن لتنظر إلينا ، وقالت :

ــ حسنا ، أيهــا الفأران الصغيران ! أخ . . . أيها اليتيمان المسكينان ! . . . أيها الصغيران البائسان !

وإذا أظهرت الحسرة علينا ، أخذت تسب زوجة أبى ساشا : خالتى نادجدا السمينة ابنة الفندق ،وانتقلت إلى سبّ زوجات الآباء عامة ، وقصت علينا بالمناسبة ، قصة الراهب الحكيم أيونا وكيف حكم الله بينه وبين زوجة أبيه وهو ما يزال غلاما :

«كان أبوه أحد صيادى البحيرة البيضاء .

كان دماره على يد زوجته الشابة .

جاءته بشراب قوى .

معتصر من أعشاب تجلب السكرى .

ووضعته نائما فى زورق .

من البلوط ضيق مظلم كأنه قبر .

وأعملت مجاديف الاسفندان .

وفى وسط البحيرة حفرت حفرة . .

فقد دبّرت أن تخفى فى هذه البركة المظلمة جريمتها العظيمة .

وانحنت وأخذت تميل من جانب إلى آخر

حتى انقلب الزورق الصغير وغاصت

العروس الساحرة وزوجها إلى الأعماق

أسرعت الساحرة تعوم إلى الشاطىء

وخرت على الأرض تنوح نواحا مؤلما

وتولول ولولة النساء .

فبكى الناس الأخيار جميعا مع المرأه المفجوعة

وقد صدقوا قصتها .

« وانتحبوا انتحابا مرا :

— آه . شد ما قصرت أيام زيجتك !

وأثقلتك فجيعة الترمّل .

ولكن الحياة بيد الله ،

والموت ينزل بأمره أيضا حين يشاء » .

وكان ايونوشكا ، ابن زوجها ، ينفرد وحده بالعبوس ولا يصدق دمعها .

فقذف فى وجهها هذه الكلمات

ويده الصغيرة على قلبه :

— آه يازوجة الأب المشئومة !

آه . يا طير الليل الماكر ! يا من خلقت للخديعة !

أنا لا أصدق دموعك هذه !

أنت تحسين الفرح لا الألم .

ولكنا سنسأل الله أن يؤيد اتهامى .

ونستعين القديسين جميعا .

ليأخذ رجل سكيناً .

ويقذفها إلى السماء الصافية .

فإن كنت بريئة طعنتنى السكينة .

وإن كنت مصيبا كان لك الموت » .

* *

حدّقت فيه زوجة الأب بنظرتها الشريرة

ونهضت على قدميها

وعيناها تتقدان بالضغينة ،

وردت هجوم ابن زوجها بقوّة .

ولم تعوزها الكلمات :

— أوه . أيها المخلوق الأحمق !
أيها السقط ! يا كومة الغثاء !
ماذا تجنى من هذه البدعة ؟
أنت لا تستطيع أن تجيب !
ونظر القوم الأخيار ولكنهم لم يقولوا شيئا .
لقد كانوا يخشون ذلك العمل الأسود ،
فوقفوا فى حزن وهم .
ثم تناقشوا فيما بينهم .
فانبرى صياد شيخ وقور ،
وانحنى وقال :
— أعطونى أيها الأخيار سكينا من الصلب فى يدى اليمنى.
فأقذفها وترون على من تسقط .
فكان الجواب أن وضعوا فى يده سكينا .
فقذف النصل الماضى فى السماء .
فوق رأسه الأشيب .
وغاب النصل فى الفضاء كأنه طير .
وعبثا انتظروا سقوطه ،
وهم يحدقون فى الفضاء البلورى .
وقد نزعوا قبعاتهم ووقفوا متلاصقين .
صامتين . أجل وكان الليل نفسه ساهما !
ولكن السكين لم تسقط ،
وبزغ الفجر الياقوتى على البحيرة .
وتشجعت زوجة الأب وقد أحمر وجهها .
فابتسمت فى ازدراء .
وبغتة انقضت السكين على الأرض كالخطاف ،
وغابت فى قلبها .

* * *

جثا الناس ،

ولهجوا بالثناء على الله سيد الجميع :
— « أنت عادل يارب ! » .
وأخذ الصياد أيونا .
وجعل منه راهبا .
هناك على ضفة نهر كبير جنتجا .
فى خلوة تكاد لا ترى من مدينة كيتجا (١) »

* * *

صحوت فى اليوم التالى وعلى جسمى بقع حمراء كانت بداية الجدرى . فوضعونى فى العلية الخلفية ، وهناك رقدت وقتا طويلا ، أعمى مشدود اليدين والقدمين بالضمادات ، أعيش فى كوابيس مخيفة ، كدت أموت فى واحد منها . ولم يكن يدانينى أحد غير جدتى ، وكانت تطعمنى بملعقة كأنى طفل ، وتقص على الأقاصيص – قصة جـــديدة كل مرة – من كنزها الذى لا يفنى .

وذات مساء – وكنت ناقها أرقد بغير ضمادات إلا على يدىّ فقد شدتا لأمنع من حك وجهى – لم تأت جدتى لسبب ما فى وقتها المألوف ، فقلقت وفجأة رأيتها . كانت راقدة خارج الباب على أرض العلية التربة ووجها إلى أسفل . ويداها ممدوتان ، وعنقها مجروح جرحا بليغا كعنق عم بطرس . وكان يزحف نحوها من الركن فى الغسق الأغبر قط كبير قد اتسعت حدقتاه فى جشع . طفرت من السرير واصطدمت بإطار النافذة فرضت ساقاى وكتفاى ، وسقطت إلى الحوش وسط عاصفة من الجليد . واتفق أن كانت الأمسية من الأماسى التى يزور أمى فيها الزوار ، ولذا لم يسمع أحد تهشم الزجاج أو تحطم إطار النافذه ، وقدر لى أن أظل راقدا فى الجليد ، زمنا لم تكسر لى عظام ، ولكنى خلعت عظم كتفى . وجرحت نفسى جروحا بالغة من الزجاج المكسور ، وفقدت القدرة على استعمال ساقى ، ولبثت ثلاثة أشهر لا أقوى على الحركة قط . كنت أرقد ساكنا وأنصت ، وأفكر فى الصخب الذى جدّ على المنزل ، وفى إغلاق الأبواب فى الطابق السفلى ، وفى جمهرة الناس الذين يبدو أنهم يجيئون ويذهبون .

كانت العواصف الثلجية الثقيلة تعبر فوق السقف ، وكانت الريح تجىء وتروح مصلصلة خارج الباب ، وتغنى خلال المدافىء لحن جنازة . وتجعل اللوالب ترن . وكانت الغربان تنعب

---

(١) سمعت عام ١٨٩٠ فى قرية كوليتيا فوفكا من أعمال كاميوف ومقاطعة بووريسجلبسك رواية أخرى لهذه الأسطورة تقتل فيها السكين ابن الزوج الذى شهر بامرأة أبيه .

نهارا ، وفى الليل الهادىء كان يترامى إلى أذنى عواء الذئاب الكئيب ـ تلك هى الموسيقى التى ترعرع عليها قلبى . ثم استرق الربيع الحيّ النظر من النافذة بالاعين الوضاءة من شمس مارس ، وكان خجولا رفيقا أول الأمر ثم زاد جسارة ودفئا على الأيام ، وأخذت القطط تغنى وتعوى على السقف وفى العلية ، وخترق رفيق الربيع الجدران نفسها ، وتكسرت عناقيد الثلج البلورية ، وتساقط الجليد المائع عن سقف الاصطبل وبدأ يند عن الأجراس رنين أقل وضوحاً من رنين الشتاء . وحين كانت جدتى تدنو منى كانت رائحة الفودكا كثيرا ما تفوح من كلماتها ، وثقل ذلك على الأيام حتى أخذت فى النهاية تأتى معها بأبريق شاى كبير ابيض وتخفيه تحت فراشى وتقول غامزة :

ـ لا تحدث جدك ذاك بشىء ، اتفعل ياحبيبى ؟

ـ ماذا تشربين ؟

ـ دع هذا . ستعلم حين تكبر .

مصّت من بوز الأبريق بفمها ، ثم مسحت شفتيها بكمها ، وابتسمت ابتسامة حلوة وهى تسأل :

ـ حسنا . أيها السيد الصغير عمّ تريدنى أن أحدثك هذا المساء ؟

ـ عن أبى .

ـ أين أبدأ ؟

فذكّرتها وأخذ كلامها ينساب وقتا طويلا كأنه غدير سلسال .

وذات يوم أخذت ـ بوحى من نفسها ـ تحدثنى عن أبى وقد جاءت إلى مضطربة حزينة متعبة . قالت :

ـ لقد رأيت حلما عن أبيك . خلتنى أراه آتيا عبر الحقول يصفر ووراءه كلب ملوّن قد تدلّى لسانه . لقد بدأت لأمرما أرى الأحلام عن مكسيم سافا تيفتش كثيرا ... لا بد أن ذلك يعنى أن روحه غير قرير .

وقد قصت على فى عدة أماسى متتابعة تاريخ أبى ، وكان شائقا مثل أقاصيصها جميعا .

كان أبى ابنا لجندى شق طريقه إلى رتبة الضباط ، ونفى إلى سيبريا لقسوته على مرءوسيه وهناك ـ فى مكان ما من سيبريا ـ ولد أبى . وكانت حياته تعسة ، فكان فى بواكير عمره

يهرب من المنزل . وقد أطلق جدى لأبى الكلاب مرة تقتص أثره فى الغابة كأنه أرنب ، وضربه مرة أخرى حين أمسكه ضربا لا شفقة فيه حتى أبعد الجيران الطفل وأخفوه .

سألت :

— أهم يضربون الأطفال دائما ؟

فأجابت بهدوء :

— دائما .

وقد ماتت جدتى لأبى مبكرة ، ولما بلغ أبى التاسعة من عمره مات جدى الشيخ أيضا ، فأخذه صانع صلبان وأدخله فى رابطة مدينة پرم وبدأ يلقنه صناعته ، ولكن أبى هرب منه ، وأخذ يكسب قوته من قيادة العميان إلى الأسواق. ولما بلغ السادسة عشرة أتى إلى نجنى وعمل عند نجار كان يقوم بالمقاولات لبواخر تولشين . وحين ناهز العشرين كان قد مهر فى التجارة والتنجيد والزخرفة. وكان المصنع الذى اشتغل فيه مجاورا الباب منزل جدى فى شارع كوفاليتش .

قالت جدتى ضاحكة :

— لم تكن الأسوار عالية ، ولم يكن بعض الناس رجعيين . وهكذا لما كنت أنا وفاريا يوما نجنى الخداش فى الحديقة ، إذا بأبيك يتسلق السور ! .. فزعت وكنت جد حمقاء فى فزعى ولكنه كان يمشى هناك بين أشجار التفاح ، فتى وسيما يرتدى قميصا أبيض وسروالا من المخمل .. حافى القدمين حاسر الرأس ، ذا شعر طويل مضفور بشرائط من الجلد على هذا النحو تقدم خاطبا. وكنت قد قلت لنفسى حين رأيته أول مرة من النافذة : «هذا شاب جميل!» فلما دنا منى الآن قلت :

— لم تضل عن طريقك هكذا يافتى ؟

فجثا على ركبتيه قائلا :

— أكولينا افانوفنا ! .. لأن قلبى كله هنا .. مع فاريا . ساعدينا بالله إننا نريد أن نتزوج .

اذهلنى هذا ، وانعقد لسانى : ونظرت فإذا أمك . الشقية مختبئة هناك وراء شجرة التفاح محمرة حمرة الخداش ، تشير إليه الإشارات ، ولكن الدموع كانت تجول فى عينيها . صحت :

— أوه ، ياشقيان ! كيف دبرتما هذا كله ! أأنت مالكة عقلك يافارفارا؟

ــ وأنت يافتى فكر فيما تصنع ! أتريد أن تنال ماتريده عنوة ؟

كان جدك فى ذلك الوقت غنيا ، لأنه لم يكن قد أعطى ولديه نصيبهما وكان يملك أربعة منازل ومالا وكان طموحاً ، ولم يكن قد مر وقت طويل على منحهم إياه قبعة موشاة ، وكسوة لأنه ظل شيخ الحرفة تسع سنوات دون انقطاع ـ وكان متكبرا فى تلك الأيام . فقلت لها ما كان من واجبى أن أقوله ، ولكنى كنت طوال الوقت أرتجف من الخوف ، وأسفت لها جد الأسف أيضا ، فقد رأيت عليها الكآبة . ثم قال أبوك :

ــ أنا أعلم جيدا أن فاسيلى فاسيليتش لن يقبل أن يمنحنى فاريا . ولذلك سأسرقها ، ولكن ينبغى أن تساعدينا .

هكذا كان على أن أساعدهما ! لم يسعنى إلا أن أضحك منه ، ولكنه ما كان ليتحول عن غرضه . قال :

ــ سيان عندى أن ترجمينى بالحجارة أو تساعدينى . لن أسلم .

ثم ذهبت إليه فارفارا ووضعت يدها على كتفه وقالت :

ــ لقد تحدثنا عن الزواج منذ وقت طويل ، وكان ينبغى أن نقترن فى مايو .

كم فزعت . يا إلهى !

وأخذت جدتى تضحك واهتز جسمها كله ، ثم نشقت نشقة ومسحت عينيها وقالت وهى تتنهد مطمئنة :

ــ أنت لا تستطيع أن تفهم هذا . . . أنت لا تعرف معنى الزواج . . . ولكنك تستطيع أن تفهم هذا : إن ولادة الفتاة لطفل قبل أن تتزوج كارثة رهيبة . أذكر هذا . وحين تبلغ رشدك لا تغرِ فتاة على هذا النحو أبدا ، فإن تلك خطيئة كبيرة ترتكبها ويلحق الفتاة العار ، ويكون الطفل غير شرعى . اجتهد ألا تنسى هذا ! يجب أن تترفق بالنساء ، وتحبهن لأنفسهن لا جريا وراء لذة عاجلة . هذه نصيحة طيبة أسديها إليك .

وشرد ذهنها ، وهى ترجح نفسها فى كرسيها ثم انتفضت وبدأت تقول :

ــ حسنا ، ماذا كان يعمل ؟ لقد ضربت مكسيم على جبينه ، وجذبت ضفيرة فاريا ، ولكنه قال ، وكان قوله معقولا :

ــ إن الشجار لا يصلح الأمور .

وقالت هى :

— لنفكر أولا فى أفضل شىء نعمله ، ثم نتشاجر بعد ذلك .

سألته :

— أمعك نقود ؟

أجاب :

— كان عندى قليل ولكننى اشتريت به خاتما لفاريا .

— كم كان معك إذ ذاك ؟

قال :

— قرابة مائة الروبل .

كانت النقود شحيحة فى تلك الأيام والأشياء غالية الثمن ، فنظرت الى الاثنين — أمك وأبيك — وقلت لنفسى :

— يا لهما من طفلين ! يا لهما من شباب أحمق !

قالت أمك :

— لقد أخفيت الخاتم تحت الأرض كى لاتروه . ويمكن أن نبيعه .

أى طفلين كانا ، كلاهما ! على أننا بحثنا عن الطرق والوسائل التى يتزوجان بها فى مدى أسبوع ، ووعدت أن أدبر الأمر مع القسيس . ولكننى كنت منزعجة وكان قلبى يخفق ، لأنى كنت شديدة الفزع من جدك ، وكانت فاريا فزعة أيضا ، فزعا أليما . حسنا . لقد أعددنا كل شىء !

لكن كان لأبيك عدو ، عامل شرير كان قد حزر ماهناك منذ وقت بعيد ، وأخذ الآن يراقب حركاتنا . وقد جلوتُ ابنتى الوحيدة فى خير ماوجدت من الثياب وصحبتها الى البوابة حيث كانت هنالك ترويكا تنتظر ، فصعدت إليها وصفر مكسيم وانطلقا . وعند رجوعى إلى المنزل وأنا أبكى ، اعترضنى هذا الرجل قائلا فى تملق :

— إن لى قلبا طيبا ولن أتدخل فى أعمال القدر ، ولكن يجب أن تعطينى يا أكولينا افانوفنا خمسين روبلا كى ألزم الصمت .

ولكن لم يكن لدى نقود ، فأنا لاأحبها ولا أحفل بادخارها فقلت له كأنى حمقاء :

— ليس معى نقود ، ولذلك لاأستطيع أن أعطيك شيئا .

قال :

ـــ تستطيعين أن تعديني بها .

ـــ كيف أستطيع ذلك ؟ ومن أين لى أن أحصل عليها بعد أن أعدك ؟

قال :

ـــ أتكون السرقة من زوج غنى صعبة جدا ؟

ولو لم أكن حمقاء لداورته ولكنى بصقت فى وجهه القبيح ، ودخلت الى المنزل ، واندفع هو الى الحوش وصرخ وصاح .

ثم قالت وهى تبتسم وقد أغمضت عينيها :

ـــ لازلت حتى الآن أذكر بوضوح فعلتى الجريئة . وقد زأر جدك كأنه وحش كاسر ، وأراد أن يعلم أكانا يهزآن به . الواقع انه كان يغالى بفاريا ويباهى بها ويقول: سأزوجها من شريف سيد ! فقيض له هذا السيد الجميل ! ولكن أمنا العذراء أعلم منا بمن يجب أن يؤلف بينهم .

واخذ جدك يذرع الحوش كأنه يحترق ، ويدعو ياكوف وميخائيل بل أوحى إليه ذلك العامل الخبيث ، فدعا كليا الحوذى أيضا . ورأيته يتناول سيرا من الجلد قد ربط فى نهايته ثقل ، وحمل ميخائيل بندقيته . وكان عندنا فى تلك الأيام جياد عتاق قوية وكانت العربة خفيفة. فكرت : آه . إنهم لابد أن يلحقوا بها . ولكن ملاك فاريا الحارس أوحى إلى شيئا ، فأخذت سكينا ، وحززت حبال ذراعى العربة . الآن ستنقطع فى الطريق . وكذلك كان فقد انحلّ الذراعان فى الطريق ، وكاد يقتل جدك وميخائيل وكليا أيضا ، وذاك عدا تأخرهم . وحين أصلحوها واندفعوا إلى الكنيسه كانت فاريا ومكسيم يقفان عند المدخل زوجين . والحمد لله ! ثم اشتبك رجالنا فى شجار مع مكسيم ولكنه كان ممتعا بالصحة نادر المثال قويا ، فالقى ميخائيل بعيدا عن المدخل ، وكسر ذراعه ، وجرح كليا أيضا وفزع جدك وياكوف والعمال جميعا !

ولم يفقد أبوك حضور بديهته حتى فى غضبه فقال لجدك :

ـــ تستطيع أن تلقى ذلك السير . لا تلوّح به فوقى ، فانا رجل مسالم ، وليس ما أخذته إلا ما حبانى به الله . ولن يأخذه منى رجل ما . . . وهذا كل ما أريد أن أقوله لك .

فنفضوا أيديهم من الأمر ، ورجع جدك إلى العربة صائحا :

ـــ هذا وداع يا فارفارا ! أنت لست أبنتي ولا أريد أن أراك مرة أخرى أبدا : حية أو ميتة من الجوع .

وحين عاد إلى المنزل ضربنى وانتهرنى ، فلم أزد على الأنين والتزام الصمت .

كل شىء يمضى وما قدر يكون . وقد قال لى بعد ذلك :

ـــ أسمعى يا أكولينا ، ليس لك الآن فتاة . أذكرى ذلك . »

ولكنى قلت له :

ـــ زدنى أكاذيب أيها الحقود الأصهب ، قل إن الثلج دافىء .

كنت أصغى بانتباه وشره . وقد أدهشنى جزء من قصتها ، لأن جدى روى لى عن زواج أمى رواية مختلفة . قال إنه كان مناهضا للزواج وأنه منع أمى من دخول منزله بعده ، ولكن الزواج لم يكن سرا ، وكان هو حاضرا فى الكنيسة . ولم يرق لى أن أسأل جدتى من منهما ذكر الحقيقة ، لأن قصتها كانت أجمل القصتين ، وكانت أحبَّ إلىَّ .

كانت جدتى إذا قصت قصة ترجَّحت طوال الوقت من جانب إلى آخر ،كأنها فى زورق فإذا روت شيئا محزنا أو مخيفا ترجحت بعنف ، ومدت يديها كأنها تدفع شيئا فى الهواء وكانت كثيرا ما تغطى عينيها ، بينما تختفى فى خدها المجعد بسمة عمياء حنون . ولكن حاجبها الكثيفين كانا لا يكادان يتحركان . وكانت تمس قلبى أحيانا صداقتها المبذولة إلى كل أحد ، وكنت أود لو استعملتْ لغة قوية وعنيت بأن تفرض نفسها .

« بقيتُ أول الأمر لا أعلم أين فارفا ومكسيم ثم أرسل إلى صبى صغير حافى القدمين يخبرنى بذلك ، فذهبت يوم سبت أراهما ، وكان الظن أنى ذاهبة إلى صلاة المساء ، ولكنى ذهبت إليهما بدلا من ذلك . كانا يقيمان فى مكان بعيد على منحدر سوبتنسك فى جناح من منزل يطل على فناء بعض المصانع ، وهو مكان أغبر قذر صاخب ولكنهما لم يباليا بذلك فقد كانا مثل قطين جد سعيدين يهرّان بل يلعبان معا،وحملت إليهما ما استطعت أن أحمله : شايا وسكرا وحبوبا من صنوف مختلفة ، ومربى ودقيقا وكمأة مجففة وشيئا من النقود حصلت عليه من جدك خفية ، والسرقة مباحة للمرء ـ كما تعلم ـ إذا لم يسرق لنفسه ، ولكن أباك رفض أن يأخذ شيئا وقال :

ـــ ماذا ؟ هل نحن شحاذان ؟

ورددت فارفارا النغمة نفسها :

ـــ أخ . لم هذا يا أماه ؟

فألقيت عليهما محاضرة . قلت :

ــ أيها الأحمقان الصغيران . . . أحب أن أعرفَ من أنا ؟ . . . أنا الأم التى منحكم الله إياها . . . وأنتما ، يا أبلهان ــ لحمى ودمى . اتريدان الإساءة إلى ؟ ألا تعلمان أنكما حين تسيئان إلى أمكما على الأرض ، أم الرب فى السماء تبكى بكاء مرا !

« ثم أخذنى مكسيم فى ذراعيه ، وحملنى حول الغرفة . . : وكان يرقص فى الواقع ـ لقد كان قويا ـ الدب ! وهناك كانت فارفارا ـ الفاجرة ـ مزهوة بزوجها مثل الطاووس ، وهى لا تفتأ تنظر إليه كأنه دمية جديدة ، وتتحدث عن شئون البيت حديثا تظن معه أنها خبيرة بها ! كان الإصغاء إليها مضحكا ، وقد قدمت إلينا فطائر جبن مع الشاى تكسر أسنان الذئب ولبنا خاثرا انتثر عليه الغبار .

استمر هذا وقتا طويلا ، وقرب موعد ميلادك ، ولكن جدك ظل لا يفوه بكلمة ـ إن شيخنا عنيد ! كنت أزورهما سرا ، وكان يعلم ذلك ولكنه يدعى الجهل به . وكان حراما علىّ كل من فى المنزل أن يتحدثوا عن فاريا ولذلك لم تكن تُذكر قط . ولم أكن أنا أيضا أقول عنها شيئا ، ولكنى كنت أعلم أن قلب الأب لا يبقى طويلا على صمته . كان الوقت ليلا ، وقد ثارت العواصف الثلجية ، وبدا كأن الدببة تلقى نفسها على النوافذ ، وأعولت الريح فى المداخن ، وأطلقت الشياطين جميعا وكنت أنا وجدك فى الفراش ، ولكننا لم نستطيع النوم . قلت :

إن الفقراء يشقون بمثل هذه الليلة ، ولكن شقاء من لم تهدأ عقولهم بها أكبر .

ثم سأل جدك بغتة :

ــ كيف حالها ؟ أهما بخير ؟

سألت :

ــ عمن تتحدث ؟ عن إبنتنا فارفارا وزوجها مكسيم ؟

ــ كيف حزرت من أقصد ؟

قلت :

ــ كفاك يا أبتاه . ليتك تطرح التغابى ! ماذا يجلب من المسرة ؟

فتنفس نفسا عميقا ، وقال :

ــ آه . أيتها الشيطانة ! أيتها الشيطانة الشمطاء !

ثم قال بعد ذلك :

ــ يقولون إنه أحمق كبير (وكان يتحدث عن أبيكَ) أصحيح أنه أحمق ؟

قلت :

ــ الأحمق شخص لا يميل إلى العمل، ويكون عيالا على غيره من الناس. انظر إلى ياكوف وميخائيل مثلا أليسا يعيشان كالحمق ؟ من العامل فى هذا البيت ؟ من يكسب المال ؟ أنت ! هل يعاونانك فى كثير ؟

فراح يسبنى ، فأنا حمقاء، ومخلوق بشع ، وقوادة ، ولا أدرى ماذا أيضا . فلزمت الصمت.

ــ كيف أبحت لنفسك أن يغشك مثل هذا الرجل ، فى حين لا يدرى أحد من أين جاء ولا من هو .

فصحت حتى تعب ، ثم قلت :

ــ ينبغى لك أن تذهب وترى كيف يعيشان . إن حياتهما طيبة .

قال :

ــ إن فى ذهابى تشريفا كبيرا لهما ، ليأتيا إلى هنا .

فصحت فرحا حين قال ذلك ، وأرخى شعرى ، (وكان يحب العبث بشعرى) ، وتمتم :

ــ لا تزعجى نفسك ياغبية ، أتظنين أن ليس لى قلب .

وأنت تعلم أن جدنا كان طيبا جدا ، قبل أن يجول برأسه أنه أذكى الناس جميعا ، فإذ ذاك أصبح حقودا غبيا .

وهكذا أتى أبواك فى يوم من أيام القديسين ، وكلاهما ضخم صقيل أنيق ، ووقف مكسيم أمام جدك الذى وضع يده على كتفه ـ وقف هناك وقال :

ــ لا تظن يافاسيلى فاسيليتش أنى قدمت إليك فى بائنة ، لقد أتيت أقدم احترامى لوالد زوجتى .

فسر جدك لذلك وانفجر ضاحكا . قال :

ــ آه يامقاتل ! ياسارق ! حسنا لنتسامح مرة تعاليا وأقيما معنا .

فقطب أبوك جبينه وقال .

ــ الأمر ما تريده فاريا . أما أنا فسواء عندى . .

ثم كانت البداية ، فظلا طوال الوقت يختصمان جهد الطاقة ولا يستطيعان العيش معا على أية حال . وكنت أغمز أباك وأركله من تحت المائدة ، ولكن دون جدوى . فقد كان يقف عند رأيه . كانت له عينان جميلتان جدا ، شديدتا البرق صافيتان ، وكان حاجباه أسودين ، إذا قطبهما كادت تختفى عيناه ، وأصبح وجهه حجريا جامدا . ولم يكن ليصغى لأحد سواى .

وكنت أحبه أكثر من أولادي لو كان ذلك مستطاعا ، وكان يعلم ذلك ويحبني هو أيضا . وكان يحتضنني أحيانا ، ويحملني بين ذراعيه ويدور بي في الغرفة قائلا :

— أنت أمي الحقيقية ، كالأرض ، أنا أحبك أكثر من حبي لفارفارا فتهجم عليه أمك ، وكانت إذا سعدت صارت لعوبا جدا ، وتصيح :

— كيف تجسر على مثل هذا القول ياوغد ؟

ثم نمزح نحن الثلاثة معا ، آه ! لقد كنا سعداء إذ ذاك ياعزيزي . وكان يجيد الرقص أيضا ، ويحفظ أغاني رائعة . كان يأخذها عن العميان . والعميان أبرع المغنين .

استقرا في البناء الخارجي بالحديقة ، وهناك ولدت عند الظهيرة : جاء والدك للغداء ، فكنت هناك لتحيته . ولقد فرح حتى كاد لا يملك نفسه ، وكاد يتعب أمك ، كأن الغبي لم يكن يدري أي محنة في ولادة الأطفال . وقد حملني على كتفه ، وعبر بي الحوش إلى جدك ليفضي إليه بالنبأ : أن صغيرا آخر قد ظهر في الميدان . فضحك جدك أيضا وقال : يالك من شيطان يامكسيم !

ولكن خاليك لم يحباه . فلم يكن يشرب النبيذ ، وكان جريئا في كلامه ، يحذق صنوف الحيل التي كانت تعرضه للسخط الشديد . فذات يوم مثلا في أثناء الصيام الكبير ، هبت الريح وتجاوب في المنزل بغتة عويل مخيف ، فذهلنا جميعا : مامعنى ذلك ؟ وفزع جدك نفسه ، وأمر أن توقد المصابيح في أرجاء البيت كلها ، وأخذ يهرول وهو يصيح بأعلى صوته :

— يجب أن نصلي جماعة !

وفجأة كف الصوت ؛ فزدنا لذلك فزعا . ثم قال ياكوف يحدس :

— أنا واثق أن هذا من فعل مكسيم .

وقد اعترف بعد ذلك مكسيم نفسه بأنه وضع زجاجات وأكوابا من أنواع مختلفة في نافذة السقف، فكانت الريح حين تدخل في أعناقها، تحدث الأصوات بنفسها . قال جدك منذرا :

— ستحملك هذه المزح إلى سيبريا مرة أخرى ، إن لم تأخذ الحذر يا مكسيم .

وفي أحد الأعوام كان هناك صقيع شديد جدا ، وأخذت الذئاب تأتي من الحقول إلى المدن ، فقتلت الكلاب ، وجعلت الخيل تجفل ، وأكلت الحراس السكارى ، وأحدثت فوضى كبيرة . ولكن أباك تناول بندقيته ولبس حذاء الجليد ، وقتل ذئبين . وقد سلخهما ، ونظف رأسيهما ووضع لهما أعينا من زجاج ـ الواقع أنه قام في ذلك بعمـــل طيب . ثم إن خالك

ياكوف ذهب إلى الردهة في شيء ، وعاد يعدو ، وقد قفّ شعره ، ودارت عيناه ، وأخذ يلقف أنفاسه ، ويعجز عن الكلام . وأخيرا همس : ذئب اقبض كل واحد على ما وقعت عليه يده من سلاح ، واندفعوا إلى الردهة بالأنوار ، ونظروا فرأوا رأس ذئب قد برز من وراء منصة ، فضربوه واطلقوا عليه النار ، ولكن ماذا تظنه ؟ لقد دققوا النظر ، فلم يجدوه الا جلدا ورأسا فارغا ، وقد سمرت رجلاه الأماميتان في المنصة . وفي هذه المرة غضب جدك حقا من مكسيم .

ثم أخذ ياكوف يشارك في هذه الألاعيب . قص مكسيم رأسا من الورق المقوى ، وجعل له أنفا وعينين وفما ، وصمغ فيه أليافا لتمثيل الشعر ، ثم مضى في الشارع مع ياكوف ، وأخذ يطل بذلك الوجه المخيف من وراء النوافذ ، فكان الناس ـ طبعـــا ـ يفزعون ويهربون صارخين . وفي ليلة أخرى خرجا ملتفين في ملاءتين ، وأفزعا القسيس الذي اندفع إلى كشك أحد الحراس ، فاستدعى هذا الشرطة وهو فزع مثله . وقد ابتدعا كثيرا من هذه الألاعيب الخليعة ، ولم يكن يثنيهما عنها شيء . وقد رجوتهما في أن ينصرفا عن عبثهما ، وكذا فعلت فاريا . ولكن دون جدوى فهما لا يكفـّـان . كان مكسيم يضحك ويقول إنه ليضحك حتى ليوجعه جنباه حين يرى كيف يخبـــل الناسَ الفزعُ ، فيشجون رءوسهم من جراء عبثه . كان يقول :

— تعالى وحديثهم .

وقد وقع في شر أعماله ، وكاد يلحقه الدمار ، فقد كان خالك ميخائيل الذي يلازم جدك دائما ، حقودا سريع الغضب ، ففكر في وسيلة للتخلص من أبيك ، كان ذلك في أوائل الشتاء وكانوا عائدين من دار أحد الأصدقاء ، وكانوا أربعة : مكسيم وخالاك وشماس جرد فيما بعد لقتله حوذيا . ولما خرجوا من شارع يامسكى أقنعوا مكسيم أن يدوروا حول بركة ديوكوف زاعمين أنهم سوف ينزلقون على الثلج كالصبيان ، واستدرجوه إلى حفرة ثلجية ثم دفعوه فيها ـ ولكنى أخبرتك بهذا من قبل .

— لماذا كان خالاى شريرين ؟

قالت جدتى بهدوء وهى تنشق نشقة :

— إنهما ليس شريرين ؛ بل غبيان . وميشكا ماكر وغبى معا . أما ياكوف فهو على على الجملة فتى طيب . حسنا ، لقد قذفوه في الماء ، ولكنه تشبث بحافة الحفرة في سقوطه فأخذوا يضربون يديه ، ويسحقون أصابعه بأعقابهم . وكان هو ـ من حسن الحظ ـ صاحيا

على حين كانوا هم سكارى . فجر نفسه بعون الله من تحت الثلج ، وأبقى وجهه مرفوعا فى وسط الحفرة ليستطيع التنفس ، ولكن لم يكن فى وسعهم أن يمسكوه ، وبعد حين تركوه ليغرق وقد أحاط الثلج برأسه ، ولكنه صعدوجرى إلى مخفرالشرطة ، وهو قريب جدا ، كما تعلم ، فى السوق . وكان المفتش صاحب النوبة يعرفه ويعرف الأسرة كلها ، فسأله :

— كيف حدث هذا !

ورسمت جدتى الصليب ، ومضت تقول فى نبرة الشكر :

— رحم الله مكسيم سافاتيفتش ! إنه أهل للرحمة ، فينبغى أن تعلم أنه أخفى الحقيقة عن الشرطة . قال :

— هى غلطتى . فقد شربت وأخذت أهيم فوق البحيرة ، فوقعت فى حفرة ثلجية .

قال المفتش .

— ليس هذا صحيحا ، فأنت لم تشرب .

وباختصار ، دعكوه بالبراندى ، وألبسوه ثيابا جافة ، ولفوه فى جلد شاة ، وأتوا به إلى المنزل : أتى به المفتش نفسه وآخران . ولم يكن ياشكا وميشكا قد عادا ، بل ذهب إلى إحدى الحانات يحتفلان بالحادث . نظرت أنا وأمك إلى مكسيم ، فكان مغايرا نفسه : وجهه أزرق ، وأصابعه مرضوضة ، وعليها دم جاف ، وخصله كأنها مرقشة بالجليد ، غير أنه لا يذوب : كان أبوك قد شاب !

صرخت فارفارا :

— ماذا فعلوا بك ؟

فبدأ المفتش ، وقد تنسم الحقيقة ، يسأل الأسئلة ، وأحسست فى قلبى أن شيئا سيئا جدا قد وقع . وأبعدت فاريا مع المفتش وحاولت أن أعرف الحقيقة من مكسيم بهدوء ، قلت :

— ماذا حدث ؟

همس :

— يجب قبل كل شىء أن تنتظرى ياكوف وميخائيل ، وتطلبى إليهما أن يقولا إنهما افترقا عنى عند شارع يامسكى ، وذهبا إلى شارع بوكروفسكى ، وملت أنا إلى حارة بريادلنى والآن لا تخلطى فى ذلك وإلا وقعنا مع الشرطة فى عناء .

فذهبت إلى جدك وقلت :

ــ اذهب أنت وتكلم مع المفتش ، بينما أذهب أنا انتظر ولدينا لأخبرهما بالشر الذى حاق بنا .

فارتدى ملابسه وهو يرتجف ويتمتم :

ــ لقد كنت أعلم ما سوف يحدث ! هذا ما توقعته !

كذب ! إنه لم يكن يعلم شيئا . ثم لقيت ولدىّ ويداى على وجهى . كان الخوف قد أذهب الخيار عن ميشكا من فوره ، وكشف ياشكا العزيز الستر عن الأمر بقوله :

ــ أنا لا أعرف شيئا . إنه كله من عمل ميخائيل ، فهو الأكبر .

على أية حال ، دبرنا الأمر مع المفتش ، وكان سيدا لطيفا جدا . قال :

ــ أوه . ولكن خير لكم أن تحذروا . فإذا وقع شرّ فى بيتكم ، عرفت من الملوم .

قال هذا ورحل ، فتقدم جدك إلى مكسيم وقال :

ــ شكرا لك ! لو كان غيرك فى مكانك لما فعل ما فعلت . أنا أعلم ذلك . شكراً لك يا ابنتى لمجيئك هذا الرجل الطيب إلى بيت أبيك .

كان جدك يستطيع أن يجعل كلامه معسولا حين يريد ، وكان ذلك قبل أن يصيبه الحق ، ويغلق قلبه كأنه حصن .

وبقينا نحن الثلاثة معا ، فبدأ مكسيم سافاتيفتش يبكى ، وكاد يهذى :

ــ لم فعلوا ذلك بى ؟ فيم أسأت إليهم ؟ ماما ... لم فعلوا ذلك ؟

لم يكن يدعونى قط « ماماشا » بل « ماما » ، كأنه طفل ... ولقد كان له خلق الطفل حقا . سأل :

ــ لماذا ؟ ...

بكيت أنا أيضا ، وهل كنت أستطيع غير هذا ؟ كنت شديدة الأسف على أبنائى . وقطعت أمك أزرار ثوبها كلها ، وجلست هناك مشعثة كأنها كانت تتعارك ، وأخذت تصيح :

ــ لنرحل يا مكسيم . أخواى عدوّ لنا . وأنا أخافهما . لنرحل !

فحاولت تهدئتها ، قلت :

— لا تلق على النار حطبا . إن البيت ليملؤه الدخان بغير هذا . وفى تلك اللحظة كان جدك الأحمق قد أرسل الاثنين يطلبان الصفح ، فوثبت إلى ميشكا وصفعته على وجهه . قالت :

— هذا صفحك !

وقال أبوك شاكيا :

— كيف فعلتما هذا يا اخوتى ؟ ربما أصبتمانى بعاهة . كيف أكون عاملا إذا فقدت يدى؟
على أنهم تصالحوا وظل أبوك يتألم زمنا ، وبقى يتململ سبعة أسابيع ، ولا تتقدم صحته ولبث يقول :

— آه يا ماما ، لنذهب إلى مدينة أخرى ، فقد مللت هذا المكان .

ثم لاحت له فرصة للذهاب إلى استراخان ، فقد كانوا يتوقعون زيارة الامبراطور هناك فى الصيف ، وعهد إلى أبيك ببناء أحد أقواس النصر ، فرحلا على أول مركب ، وحزّ فى قلبى فراقهما ، وحزن هو أيضا لذلك ، ولبث يقول لى إنى يجب أن أذهب معهما إلى استراخان ، ولكن فارفارا كانت فرحة . ولم تحاول حتى إخفاء فرحها — الفاجرة ! وهكذا ذهبا . . . وهذا كل شىء !

وحَسَتْ حسوة من الفودكا ، ونشقت نشقة من السعوط ، وأردفت وهى تحدق خارج النافذة فى السماء الزرقاء القاتمة :

— أجل ، لم أكن أنا وأبوك من دم واحد ، ولكن كانت بين روحينا قرابة .

وكان جدى يقدم أحيانا وهى تقص على هذا ، رافعاً وجهه ، يتشمم الهواء بأنفه الرقيق ، وينظر فى ارتياب إلى جدتى ، وينصت إلى ما تقول ويتمتم :

— ليس هذا صحيحا ! ليس هذا صحيحاً !

ثم سأل بغتة :

— أكانت تشرب البراندى هنا يا ليكسى ؟

— كلا .

— هذا كذب ، لأنى رأيتها بعينى !

ثم يخرج مترددا ، فتغمز جدتى من وراء ظهره ، وتفوه بكلمات غريبة :

— أذهب يا أفداى ولا تفزع الخيل . . .

وذات يوم قال بلطف وقد وقف فى وسط الغرفة يحدق فى الأرض :

— أماه ؟

— إيه .

— أترين ما يجرى ؟

— أجل . أرى .

— ما رأيك فيه ؟

— ستكون هناك زيجة يا أبتاه . أتذكر كيف كنت تتحدث عن أحد السادة ؟

— نعم .

— حسنا ، إنه هنا !

— لكنه مفلس .

— ذاك شأنها .

وغادر جدى الغرفة ، فسألت وقد استشعرت القلق :

— عم تتحدثان ؟

أجابت متذمرة وهى تفرك قدمى :

— أنت تريد أن تعرف كل شىء . وإذا عرفت كل شىء فى الصغر ، لم يبق هناك ما تسأل عنه فى الكبر ...

وضحكت وهزت رأسها لى .

* * *

— آه يا جد ! ياجد ! أنت لست إلا ذرة من الغبار فى عين الله . لا تقل لأحد هذا يا لينكا ! إن جدك قد أطبق عليه الخراب ، فقد أقرض بعض السادة مبلغا كبيرا من المال ، فأفلس هذا السيد .

واستغرقها الحلم وهى تبتسم ، وجلست وقتا طويلا دون أن تتكلم وأصبح وجهها متجعدا حزينا كئيبا :

— فيم تفكرين ؟

أجابت مجفلة :

— أفكر فى شىء أقصّه عليك . أأروى لك قصة أفستيجنيا ؟ أتنفع ؟ حسنا إليك إذن :

« كان هناك شماس اسمه أفستيجينا ،

وكان يظن أن لا أحد أحكم منه ؛

سواء أكان خسيسا أم شريفاً

بل إن الصياد لا يفضله فى الحكمة .

كان ينصب نفسه كسنبلة القمح

متكبرا . ويعلم جيرانه صغارا وكبارا .

يخطّىء هذا ويزجر ذاك :

يقول إذا نظر إلى كنيسة : إن الشموخ يعوزها !

وإذا مر بشارع قال : يا لضيقه !

وإذا قطف تفاحة قال إنها ليست حمراء !

وكانت الشمس — فى رأيه — تشرق مبكرة جدا ،

وليس فى العالم شىء مستقيم »

* * *

ونفخت جدتى خديها ، وأدارت عينيها ، وصار لوجهها الرفيق تعبير بليد مضحك وقد مضت تقول بصوت كسلان مطوط :

« قال : ليس هناك شىء لا أستطيع أنا أن أعمله

وسيكون أفضل بكثير فيما أظن

لو أفسح لى فى الوقت قليلا .

وبقيت لحظة صامتة باسمة ، ثم مضت تقول :

« وذات ليلة جاءت بعض الشياطين إلى الشماس :

وقالت : — وإذن فأنت ضيق بهذا المكان ياشماس ؟

تعال معنا ياشيخ إلى جهنم .

فلن تجد هناك عيبا تأخذه على النيران .

وقبل أن يتمكن الشماس الحكيم من وضع قبعته

قبضت عليه الشياطين بمخالبها .

وعادت به وهى تضحك وتقول .

كان يجلس على كل كتف منه شيطان .

وهناك فى لهب جهنم وضعوه .

— أأنت بخير هنا يا افستيجنو شكا ؟

وكان الشماس يشوى ويتوهج محترقا

ويقيم نفسه ، ويداه إلى جانبيه :

قط شفتيه وهو يقول بازدراء :

— إن الدخان فظيع هنا — فى جهنم »

* * *

وختمت جدتى الحديث بصوت رخى ضعيف رفيق ، فبدلت تعبير وجهها وقالت مفسرة وهى تضحك ضحكا هادئا :

— لم يكن افستيجنيا ذاك ليسلم ، ولكنه ثبت على رأيه معاندا ، مثل جدنا ... يكـ هذا الآن ، نم ، فقد آن الأوان .

كانت أمى لا تصعد إلى العلية إلا لماما ، ولم تكن تبقى طويلا ، وكانت تتكلم كأنها معجلة . كانت تزداد ملاحة ، وتجمل أثوابها ، على الأيام ، ولكنى كنت أحس فيها شيئا غريبا كما أحسست فى جدتى ، وشعرت بأن هناك شيئاً يجرى ، ولكنه يكتم عنى ، وحاولت أن أحدس ما هو .

وقل شغفى بأقاصيص جدتى شيئاً فشيئا ، حتى بما كانت ترويه عن أبى ، ولم تعد تهدىء هلعى الغامض الذى يزيد على الأيام .

سألت جدتى :

ـ لماذا كان روح أبى غير قرير ؟ .

أجابت وهى تغطى عينيها :

ـ من أين لى أن أعلم ؟ هذا أمر الله . . . خارق للطبيعة . . . محجَّب عنا .

وفى الليل حين كنت أحدق ساهدا من خلال النوافذ الزرقاء القاتمة فى النجوم التى تسبح عبر السماء فى بطء ، ألـّفت فى ذهنى قصة حزينة ، تدور حول أبى الذى كان دائما يهيم على وجهه وحيداً ، وفى يده عصا ، ووراءه كلب أشعث .

الفصل الثاني عشر

نمت يوما قبيل المساء ، وحين صحوت شعرت بأن رجلي قد صحتا أيضاً ، فمددتهما من الفراش ، فخدرتا ثانية ، ولكن بقي أنهما قد شفيتا ، وأني سوف أستطيع المشي . كان ذلك نبأ سارا حتى لقد صحت فرحا ، ووضعت قدمي على الأرض ، وحملتهما ثقل جسمي كله ، فسقطت ، ولكني زحفت إلى الباب ، وهبطت الدرج ، وأنا أصور لنفسي تصويراً بديعا دهشة من في الطابق السفلي حين يرونني .

ولست أذكر كيف وصلت إلى غرفة أمي وأنا أحبو ، ولكن كان هناك معها بعض الغرباء ، فعلا على سائر الأصوات صوت امرأة من بينهم ، عجوز عجفاء ترتدي ثوبا أخضر قالت في حزم :

ـــ اسقوه شيئاً من شراب التوت وغطوا رأسه .

كان كل ما فيها أخضر : الثوب والقبعة والوجه الذي كانت تحت العينين منه غدد بل إن الشعر الذي نبت على تلك الغدد كان كالعشب . وأرخت شفتها السفلى ، ورفعت العليا وهي تنظر إلى بأسنانها الخضراء ، وقد حجبت عينيها بيد فيها قفاز من الخيط الأسود . سألت وقد غلبني الحياء فجأة :

ـــ من هذه ؟

فأجاب جدي بصوت كريه :

ـــ تلك جدة أخرى لك .

فضحكت أمي وأتت بيوجين مكسيموف إلى قائلة :

ـــ وهذا أبوك !

وقالت بسرعة شيئاً لم أفهمه ، فانحنى مكسيموف عليّ وقد تألقت عيناه وقال :

ـــ سأهدي إليك بعض الرسوم .

وكانت الغرفة ساطعة الضوء ، فقد كان على المائدة حاملا شموع فى كل منهما خمس شمعات ووضعت بينهما أيقونة جدى المحبوبة : «لا تحزنى على يا أماه» وكان يصدر عن لألائها لمعان خاطف حين تتراقص عليها الأضواء ، وكانت جواهر التاج الذهبى تتألق ، وكانت وجوه ثقيلة مستديرة تضغط على النوافذ من الخارج ، وتفطس أنوفها على الزجاج ، وبدأ كل شىء حولى يسبح . . وجست السيدة العجوز الخضراء أذنى بأصابعها الباردة وقالت :

ـــ حقا ! حقا !

قالت جدتى :

ـــ إنه يُغشى عليه

وحملتنى إلى الباب . ولكننى لم أكن مغشيا على ، بل كنت مغمضا عينى ، وما أن صعدت بى الدرج وأنا بين المحمول والمسحوب حتى سألت :

ـــ لم لم تخبرونى بهذا ؟

ـــ كفى . اسكت .

ـــ أنتم مخادعون كلكم .

فتهالكت وهى ترقدنى على الفراش ، ورأسها على الوسادة ، وانفجرت باكية وهى ترتجف من الفرع إلى القدم ، واختلجت كتفاها وهى تتمتم مختنقة :

ـــ لم لا تبكى ؟

لم تكن بى رغبة فى البكاء ، وكانت العليَّة مُغشبشة باردة . كنت أرتجف وكان السرير يهتز ويئز ، والعجوز الخضراء واقفة أمام عينى لا تريم ، فتناومت وخرجت جدتى .

ومرت أيام عدة خالية من الحوادث متشابهة مثل جدول صغير . وقد رحلت أمى بعد الخطبة إلى مكان ما ، وران على المنزل صمت ثقيل .

وذات صباح جاء جدى بإزميل وبدأ يكسر الأسمنت الذى وضع فى الشتاء من حول أطر نوافذ العلية ، ثم ظهرت جدتى تحمل حوضا به ماء وقطعة من القماش ، وسأل جدى بلطف :

ـــ حسنا ، ما رأيك فى الأمر يا عجوز ؟

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أأنت مسرورة أم ماذا ؟

فأجابته كما أجابتنى على الدرج :

ـــ كفى ، اسكت .

أصبح لأيسر الكلمات عندى الآن معان غريبة خيّـل لى أنهما يخفيان شيئا هائلا فى معناه وألمه ، لا يستطيع أحد أن يتحدث عنه ولـكن كل أحد يعلمه .

نزع جدى اطار النافذة بعناية وذهب به ، وقصدت جدتى إلى النافذة تنسم الهواء ، وكان الزرزور فى الحديقة يزقزق ، والعصافير تغرد ، ورائحة الأرض المسكرة وقد أخذ الثلج يذوب تسبح فى الغرفة ، وبدا كأن صفائح الفرن الزرقاء القائمة تشحب من الاضطراب فقد كان النظر إليها يبعث فى المرء القشَرّ . هبطت من على السرير إلى الأرض وقالت جدتى :

ـــ لا تجر هنا وهناك حافيا !

ـــ أنا ذاهب إلى الحديقة .

ـــ إنها لم تجف بعد . انتظر قليلا .

ولـكنى لم أصغ إليها ، والواقع أن رؤية الـكبار نفسها أصبحت كريهة لدى الآن . وفى الحديقة كانت حراب العشب الصغير المخضرة تبرز وبراعم أشجار التفاح تضخم وتـكاد تنشقّ ، وكان الطحلب على سقف كوخ بتروفنا تسر العين خضرته المجددة وقد انتشرت من حولى الطيور ، وأصوات الفرح ، وأثار الهواء النقى العاطر احساسا لذيذا بالدوار . وكان عند الحفرة ـــ حيث حزّ عم بطرس حلقه ـــ عشب طويل أخضر مختلط بالجليد المتـكسر لم يرقنى النظر إليه ، إذ لم يكن فيه ما يشبه الربيع . وقد برزت الدواخن السوداء كريهة ، وكانت الحفرة كلها قذى للعين لاضرورة له ، فتملـكتنى رغبة غاضبة فى تقطيع العشب الطويل وتـكسير الدواخن لبنة لبنة ، وفى التخلّـص من ذلك القذر كله وفى أن أبنى لنفسى مأوى نظيفا فى الحفرة ، أستطيع أن أعيش فيه الربيع كله بغير أناس راشدين .

وما فـكرت فى ذلك حتى بدأت أنفذه ، وسرعان ما حولت ذهنى عما كان يجرى فى المنزل وشغلته وقتا طويلا فوقعت أشياء كثيرة كانت خليقة بازعاجى ، ولـكنها مع ذلك قل خطرها عندى يوم بعد يوم .

كانت أمى وجدتى تسألانى :

ـــ لماذا أنت متبرم ؟

فأنزعج لسؤالهما هذا ، لأنى لم أكن غاضبا منهما ، بل كان الأمر لا يعدو أن كل من فى المنزل أضحى غريبا عنى . وكثر ظهور السيدة الخضراء على الغداء وعلى شاى العصر وعلى العشاء ، وهى تبدو كأنها عمود عفن فى سور قديم . كأن عينيها مخيطتان على وجهها بخيوط خفية ، وكان من اليسير أن تتدحرجا من محجريهما العظميين وهى تديرهما بسرعة فى كل اتجاه وترى وترقب كل شىء — ترفعهما إلى السقف حين تتكلم عن الله وتنظر تحت أنفها وهى عن شئون البيت . وكان حاجباها يبدوان كأنهما ُجمِّعا من قطع صغيرة ، وصُمِّغا وكانت أسنانها الكبيرة البارزة تمضغ فى هدوء كل ما تضعه فى فمها وقد لوت ذراعها ليًّا مضحكا . وبرز خنصرها ، على حين تتحرك العظام التى حول أذنيها كأنها كرات صغيرة مدورة ، وتصعد الشعرات الخضراء التى على عذر عينيها وتهبط كأنها تزحف على جلدها الأصفر المجعد البغيض فى نظافته .

كانت شديدة النظافة دائما مثل ولدها ، وكان الدنو منهما أمرا كريها ، وفى أول يوم وضعت يدها الميتة على شفتى ، انبعثت منها بشدة رائحة البخور وصابون قازان الأصفر ، فأشحت بوجهى وهربت . وكثيرا ما قالت لابنها :

— إن هذا الصبى فى حاجة شديدة إلى الأدب . أتفهم ذلك يا جينيا ؟

فيعبس وهو ينكس رأسه مذعنا ، ويلزم الصمت . كان كل أحد يعبس فى حضرة المرأة الخضراء .

كرهت المرأة العجوز ، وكرهت ابنها أيضا كراهية شديدة ، وقد كلفنى ذلك كثيرا من اللطمات . قالت يوما على الغداء ، وكان لعينيها دوران بشع :

— أوه يا اليشنكا ، لم تعجل فى الأكل هكذا وتتناول مثل هذه القطع الكبيرة !

دع هذا يا عزيزى !

فأخرجت القطعة من فمى ، ووضعتها على الشوكة ثانية وقدمتها إليها :

— خذيها ولكنها حارة !

فذهبت بى أمى بعيدا عن المائدة ، وُنفيت نفيا مهينا إلى العلية حيث لحقت بى جدتى وقد وضعت يدها على فمها تحاول أن تكتم الضحك :

— يا لك من قرد صغير وقح . بارك الله فيك !

وقد أزعجنى أن أرى يدها على فمها فهربت وصعدت إلى سقف المنزل ، وجلست هناك

إلى جانب المدخنة وقتا طويلا . أجل لقد أردت أن أكون وقحا ، وأن أوجه إليهم جميعا كلمات السباب ، وكان من العسير أن أقاوم هذا الشعور ولكن كان لا بد أن أقاومه .

وذات يوم غطيت كرسى زوج أمى المقبل بالزيت ، وكرسى جدتى الجديدة بصمغ الكرز فلصق كلاهما بكرسيه . وكان ذلك مضحكا جدا ، ولكن بعد أن ضربنى جدى ، أتتنى أمى فى العلية وأخذتنى إليها وقالت وهى تضمنى إلى ركبتها :

ـــ اسمع الآن ! لماذا أنت خبيث هكذا ؟ ليتك تعلم ما يسببه لى ذلك من الشقاء . وغرقت عيناها فى دموع مشرقة وهى تضغط رأسى بخدها .

تألمت لذلك أشد الألم ، ووددت لو أنها كانت ضربتنى ، وقلت لها إنى لن أعود إلى مخاشنة آل مكسيموف ـــ لن أعود إذا هى كفت عن البكاء قالت بلطف :

ـــ حسنا . حسنا . يجب ألا تكون وقحا . إننا لن نلبث أن نتزوج ثم نذهب إلى موسكو ، وسوف نعود بعد ذلك ، وتعيش معنا . إن يوجين فاسيليفتش كريم ذكى ، وسوف تكون على وفاق معه . وسوف تذهب إلى المدرسة الابتدائية ، ثم تصبح بعد ذلك طالبا فى الجامعة ، مثل يوجين الآن ، ثم تصير طبيبا ، أو ماتريد . تستطيع أن تدرس ما يحلو لك . والآن اذهب والعب .

بدت لى « سوف » و « ثم » التى رددتها واحدة بعد أخرى ، كأنها درج يؤدى بى مكان عميق بعيد عنها ، فى الظلمة والوحشة ـــ درج لا ينتهى بى إلى سعادة . وددت لو قلت لأمى :

ـــ أرجو ألا تتزوجى سأكسب مالا يقوم بأودك .

ولكن الكلمات ، لأمر ما ، لم تواتنى . وكانت أمى تثير فى أفكاراً رقيقة عنها ، ولكنى لم أستطع قط أن أجزم أمرى فأخبرها بها .

وتقدم عملى فى الحديقة ، فنزعت العشب الطويل أو قطعته بسكين ، وبنيت بقطع من من الآجر ، إزاء حافة الحفرة حيث انهار التراب ، مقعدا عريضا يتسع فى الواقع للرقاد عليه . وأخذت بعضا من قطع الزجاج الملون ، وشقف الآنية المكسرة ووضعته فى الشقوق التى بين الآجر فكانت الشمس إذا أشرقت على الحفرة لمعت الكسر كلها كأنها الطيف ، على نحو ما يراه المرء فى الكنائس . قال جدى يوما وهو ينظر إلى عملى :

ـــ أحسنت التدبير ! ولكنك قطعت العشب ، وتركت الجذور . اعطنى مسحاتك أخرجها لك . هيا هاتها لى .

بجثته بالمسحاة الصفراء ، فبصق فى يديه ، وغرز المسحاة بقدمه فى الأرض وهو يبطبط ، قال :

ـ ألقِ الجذور . وسأزرع لك فيما بعد بعض عباد الشمس وشجيرات الخداش . سيكون ذاك جميلا جدا .

نظرت إليه فإذا قطرات صافية من الدمع تهمى من عينيه الصغيرتين الذكيتين الشبيهتين بعينى الكلب ؟ قلت : ماذا بك ؟

فانتفض ومسح وجهه براحتيه ونظر إلى نظرة غائمة . قال :

ـ كان ذلك عرقا . أنظر . ما أكثر الديدان هناك !

ثم بدأ يحفر ثانية ، وبعد حين قال بغتة :

ـ لقد فعلت هذا فى غير شىء . فى غير شىء يابنى . فسأبيع المنزل عن قريب . ويجب أن أبيعه قبل الخريف على أية حال ، فأنا محتاج إلى النقود لبائنة أمك . هذا ما هناك . أرجو لها السعادة ! باركها الله !

وألقى المسحاة مزورا ، وذهب إلى حوض إنبات كان له وراء المغسل وبدأت أحفر ، ولكنى ما كدت أفعل حتى سحقت بالمسحاة أصابع قدمى .

وقد عاقنى هذا عن الذهاب إلى الكنيسة مع أمى حين تزوجت ، ولم أستطع أن أعدو البوابة ، وقد رأيتها من ثم فى ذراع مكسيم ، مطرقة الرأس ، تنقل أقدامها بعناية على الجادة وعلى العشب الأخضر ، وتجوز الحفر كأنها تمشى على مسامير حادة .

كان الزفاف هادئا ، وحين رجعا من الكنيسة ، شربا الشاى فى كآبة ، وبدلت أمى ثوبها من فورها ، وذهبت إلى غرفتها تحزم المتاع ، وجاء زوج أمى وجلس بجانبى وقال :

ـ أعدك بأن أعطيك بعض الرسوم ، ولكن ليس فى هذه المدينة شىء جيد منها ، ولا أستطيع أن أعطيك رسومى ، ولكنى سأجلب لك رسوما من موسكو .

ـ وماذا أفعل بها ؟

ـ أما تحب الرسم !

ـ لست أدرى كيف أرسم .

ـ حسنا ، سأجلب لك شيئا آخر .

ثم دخلت أمى . قالت :

ـ أننا لا نلبث أن نرجع . إن على أبيك هذا أن يتقدم إلى أحد الامتحانات ، فإذا أنهى دراسته عدنا .

سرنى أن يتحدثا إلى هذا النحو كأنى راشد ، ولكن صكّ سمعى أن يستمر فى تلقى العلم رجل ذو لحية . سألت :

ـ ماذا تدرس ؟

أجاب :

ـ المساحة .

فلم أعنّ نفسى بالسؤال عن معنى المساحة ، وخيل لى أن قد عم المنزل هدوء بليد . وتردّد فيه خفيف كخفيف الصوف ، ووددت لو تعجل الليل قدومه . وقد وقف جدى لاصقا ظهره بالفرن ، يحدق من النافذة عابسا . وكانت العجوز الخضراء تعين أمى على حزم المتاع ، وهى تدمدم وتتنهد ، وكانت جدتى التى سكرت منذ الظهيرة ، وأخجلها ذلك ، قد انحازت إلى العلية وحبست نفسها هناك . ورحلت أمى فى بكرة اليوم التالى ، فعانقتنى وودعتنى . قالت وهى تقبلنى وقد رفعتنى عن الأرض قليلا ، وحدقت فى عينى بعينين بدت لى فيهما غرابة :

ـ حسنا . وداعا !

قال جدى عابسا ، وقد رفع بصره إلى السماء التى كانت ما تزال وردية :

ـ قولى له ، إنه ينبغى أن يطيعنى .

قالت أمى وهى على الصليب :

ـ افعل ما يأمرك به جدك .

وكنت أتوقع أن تقول شيئا آخر ، فسخطت على جدى لأنه عاقها عن ذلك . واستقرا فى العربة ولكن أمى ظلت وقتا طويلا تحاول تخليص ذيلها الذى علق بشىء ، فقال جدى :

ـ عاونها . أما تستطيع ؟ أأنت أعمى ؟

ولكن لم أستطع معاونتها ، لقد كان الأسى يغمرنى .

و ثنى مكسيموف فى العربة رجليه الطويلتين بسروالها الأزرق القاتم ، بينما أخذت جدتى تناوله بعض الصور ، فكوّمها على ركبتيه و ثبتها بذقنه ، و تمتم وقد تجعّد وجهه الأبيض حرجا :

— هذا يكـ . . . فى !

وجلست العجوز الخضراء فى عربة أخرى مع ابنها الأكبر ، الضابط ، الذى كان يحك لحيته بمقبض سيفه و يتثاءب . قال جدى :

— و إذن فأنت ذاهب إلى الحرب ؟

— أنا مضطر إلى الذهاب .

— شىء بديع حقا . . . يجب أن نهزم الترك .

رحلوا والتفتت أمى مرات ولوّحت بمنديلها ، ولوّحت جدتى بيدها أيضا وهى غارقة فى الدموع ، تعتمد بيدها على الجـدار . ومسح جدّى الدموع عن عينيه و تمتم بكلمات متقطعة :

— لن يأتى . . . هذا . . . بخير .

وجلست على عمود البوابة أرقب العربة وهى ترتجّ صاعدة هابطة ، ثم انعطفوا عند المنحنى . تخيل لى أن بابا فى قلبى قد أغلق وسد فجأة . كان الوقت شديد البكور ، ولم تكن مغاليق النوافذ قد رفعت عنها ، وكان الشارع خاليا — لم أر قط مثل هذا الأقفار من الحياة وكان الراعى يسمع من بعد وهو يعزف عزفا مثيرا .

قال جدى وهو يمسكنى من كتفى :

— هيا إلى الأفطار . لقد قدر لك فيما يظهر — أن تعيش معى ، وهاأنتذا تترك على أثرا كالذى تركه عود الثقاب حين يشعل على آجرّة .

كنا نشغل أنفسنا من الصباح إلى المساء فى الحديقة ، يخطط هو الأحواض ، و يربط شجيرات الخداش ، و يقشر الأشنة عن أشجار التفاح ، و يقتل الهوامّ . بينما أمضى أنا فى بناء مأواى وزخرفته . وقد قطع جدى نهاية الكتله المحترقة وصنع منها أعوادا غرسها فى الأرض فعلقت عليها أقفاص طيورى ثم نسجت من الأعشاب الجافة حصيرا وجعلت منها ظلة فوق مقعدى تحجب الشمس والطلّ . وكانت النتيجة مرضيه جدا .

قال جدى :

— ينفعك كثيرا أن تتعلم كيف تفيد من الأشياء أكبر إفادة .

وكان لكلماته وقع عظيم عندى . وكان يرقد أحيانا على المقعد الذى غطيته بالعشب . ويلقننى فى بطء شديد ، كأنما يشق عليه العثور على الكلمات .

— لقد قُطعتَ الآن عن أمك . وستنجب هى أطفالا آخرين يكونون أعز عليها منك وتلك جدتك قد أدمنت الشراب . .

وصمت وقتا طويـــلا كأنه يصغى إلى شىء ، ثم عاد يلتقط الكلمات الكئيبة على غير رغبة منه :

— هذه هى المرة الثانية التى أدمنتْ فيها الشراب،وقد أدمنته أيضا حين جُنّد ميخائيل. إن العجوز الحمقاء أغرتنى بأن أدفع له البدل . . . ولو أنه صار جنديا لتغيرت أحواله تغيرا تماما . . أغ . . أنت ! سأموت بعد قليل ، وهذا يعنى أنك ستترك وحيدا . . . معتمدا على نفسك . . فى كسب قوتك . أتفهم . . حسنا ! يجب أن تتعلم العمل لنفسك . . ولا تخضع لغيرك ! عش فى هدوء وسلام واستقامة . أنصت إلى ما يقوله الآخرون ولكن افعل ما هو خير لك .

عشت فى الحديقة طول الصيف إلا إذا ساء الجو طبعاً ، بل كنت أنام هناك فى الليالى الدافئة على قطعة من اللبّد أهدتها إلى جدتى . وكثيرا ما نامت هى أيضا فى الحديقه ، تأتى بكومة من من التبن وتفرشها بجوار مرقدى وترقد عليها ، وتقص على الأقاصيص زمنا طويلا ، وهى تقطع كلامها بين الفينة والفينة بعبارات شاردة :

— انظر ! إذ ذاك هوى نجم ! تلك روح طاهرة تتعذب . . أم تُرى تفكر فى الأرض ! ذاك يعنى أن قد ولد رجل طيب أو امرأة طيبة ، أو تشير إلى قائلة :

انظر ! لقد لاح نجم جديد ! إنه يبدو مثل عين كبيرة ! . . أوه ، أيها الكائن السماوى اللامع . . أيها الزخرف الإلهى المقدس !

كان جدى يزجر :

— ستبردين أيتها المرأة الحمقاء ويصيبك فالج . . سيأتى اللصوص ويقتلونك .

كان يجرى عبر السماء أحيانا عند غروب الشمس ، أنهار من الضوء كأنها تشتعل،ويبدو كأن رمادا ذهبيا يتساقط على الحديقة الخضراء المخملية . ثم ينساب على كل شىء ظلٌ من

القتام واضح ، ويبدو مع إطباق الغسق الدافىء كأنه يكبر وينتفخ . كانت الأوراق تهوى وقد ضاقت بالشمس والعشب ينكس رأسه ، ويبدو كل شيء ارق وأغنى ، وينفح بعطور مختلفة مهدّئة كالموسيقى . وكانت هناك أيضا موسيقى تسبح من المعسكرات فى الحقول حيث كانوا يعزفون عزفا متقطعا .

وهبط الليل ، وحلّ معه فى قلب المرء شيء قوى نقى كالمناغاة الحبيبة للأم . ومسح الكون عليه بيديه الدافئتين الحنونتين ، فزال عنه كل ما ينبغى ان ينسى : المرارة كلها ، غبار اليوم . كان يسحرك أن ترقد ووجهك إلى أعلى ترقب النجوم مشتعلة فى غور السماء اللانهائى ، وهو غور كلما امعن فى السمو انجاب عن افق من النجوم جديد ، وأن تنهض عن الأرض قليلا ، فإذا الأرض - ويا للعجب ! - قد صغرت فى عينيك : أو إذا بك تذوب فيها حولك وقد كبرت كبرا هائلا . الظلام والسكون يزيدان لحظة بعد لحظة ، ولكن هناك حشداً متتابعا من الأصوات الدقيقة الممطوطة التى لا تكاد تحسّ وكل صوت منها سواء أكان طائرا يغرد فى نومه ام قنفذا يمر أم صوتا إنسانيا يعلو بلطف فى مكان ما ، كل صوت يختلف عن أصوات النهار وفيه شيء خاص به ، يكمن والها وراء سكونه الحساس هناك أرغن يعزف فى مكان ما ، وضحكة امراه ترن ، وسيف يصلصل على صخور الجادة وكلب ينبح ، ولكن هـــذه الاصوات كلها ليست سوى سقوط أوراق اليوم الأخيرة التى نضرت وماتت .

وكانت تتصاعد أحيانا بغتة صيحة مخمورة من الحقل أو الشارع ، وصوت بعض الناس يجرون فى صخب ، ولكن ذلك كان يقع عادة ، ويمر دون أن ينتبه إليه أحد .

ولم تكن جدتى تنام طويلا قط ، وكانت تبدأ وهى راقدة ورأسها مستند على ذراعيها اللتين تثنيهما تحتها ، تقص على قصة عند أول إشارة منى ، ولا يعنيها فيما يبدو أن أصغى أو لا أصغى : وكانت قديرة دائما على أن تختار القصص التى تجعل الليل عندى أثمن وأجمل .
كنت استغرق فى النوم دون شعور تحت تأثير فيض كلامها الموزون ، وأصحو مع الطيور والشمس تسدد النظر إلى عينى ونسيم الصباح الذى أدفأته أشعتها يرف حولنا . وأوراق أشجار التفاح تنفض عنها الطل ، والعشب الأخضر الذى يبدو أسطع وأنفر ما يكون بشفافيته البلورية وكانت تسبح فوقه ضبابة خفيفة . وكانت قبرّة تغرد وهى عالية فى السماء ، عالية حتى ما تكاد ترى ، وكانت الألوان والأصوات الصادرة عن الندى تثير مسرة هادئة ، وتحى الرغبة العاجلة فى النهوض ، وفى القيام بعمل ما ، وفى الحياة القائمة على المودّة مع الكائنات الحية جميعا

كانت تلك أهدأ فترات حياتى أ وكبرها حظًا من التأمل: وفى غضون هذا الصيف ، رسخ شعورى بقوتى ونما. أصبحت نفورا لا آنف الناس وإذا سمعت صيحات أطفال أوفسيا نيكوف لم أرغب فى الذهاب إليهم ، وإذا جاء أبناء خالى لم أكن قليل الضيق بذلك ، وكان الاحساس الذى يثيرونه فىّ لا يعدو الخوف من أن يهدموا بنائى الذى فى الحديقة ، وهو أول عمل قمت به وحدى .

ولم يعد حديث جدى يشوقنى قط ، وقد غدا على الأيام أكثر جفاء وتذمرا وكآبة . وكثر شجاره مع جدتى وطرده لها من المنزل ، فكانت تذهب إلى بيت خالى يا ثوث أو خالى ميخائيل . وغابت مرة عدة أيام ، فكان جدى يطهو بنفسه ويحرق يديه ، ويصرخ من الألم ويسب ويكسر الآنية . وغدا بين الشراهة .

كان يقدم أحيانا إلى كوخى ، ويسأل بغتة بعد أن يلاحظنى زمنا وهو صامت :

— لماذا أنت شديد الهدوء ؟

— يروقنى ذلك ... لماذا ؟

فيبدأ موعظته :

— نحن لسنا سادة . ولا يعنى أحد بتعليمنا ، وعلينا أن نستخلص كل شىء بأنفسنا . إنهم يكتبون الكتب لغيرنا من الناس ، ويبنون المدارس ، ولكنهم لا يصرفون شيئا من الوقت فى العناية بنا . علينا أن نشق نحن طريقنا .

ويستغرقه الصمت والتأمل ، وقد جلس ساكنا ساهما ، حتى ليكاد يغدو ثقيل المحضر .

وباع المنزل فى الخريف ، وقد قال ذات صباح بغتة قبل البيع بقليل وهو يتناول الشاى:

— أماه ، لقد غذوتك وكسوتك — غذوتك وكسوتك . وقد آن لك أن تكسبى خبزك بنفسك .

فتلقت جدتى إعلانه جدّ هادئة ، كأنها كانت تنتظره منذ وقت طويل ، وبحثت عن علبة النشوق غير آبهة ؛ وملأت أنفها الاسفنجى ثم قالت :

— حسنا ! فليكن الأمر كذلك إن لم يكن منه بدّ .

وتحول جدى نحو غرفتين مظلمتين فى قبو منزل قديم ، عند سطح تل صغير . وأخذت جدتى ونحن ذاهبون إلى ذلك المسكن ، حذاء ليف عتيقا ، ووضعته تحت الفرن ، وأقعت على كعبيها وهى تتجه إلى عفريت البيت قائلة :

ــ يا عفريت البيت ، ياعفريت الأسرة ، تلك زلاقتك فتعال إلينا ! فى بيتنا الجديد ، واحمل إلينا الحظ السعيد .

وأطل جدى من النافذة وهو فى الحوش صائحا :

ــ سأعاقبك على هذا يا زنديقة ! أنت تحاولين اخجالى !

قالت جدتى حادة :

ــ آه . احذر أن تؤذى نفسك يا أبتاه !

ولكنه لم يعد أن زجرها ومنعها من الابتهال إلى عفريت البيت .

وبيع الأثاث والمتاع إلى أحد تجــار القديم وكان تتريا ، بعد ثلاثة أيام من المساومة والمشاتمة ، ولكن جدتى كانت تنظر من النافذة ضاحكة أحيانا ، باكية أحيانا أخرى ، وتقول هامسة :

ــ هذا حسن ! جرّها . هشمها :

وكان البكاء يحضرنى أنا أيضا إذ آسى على حديقتى وكوخى الصغير .

وذهبنا إلى هناك فى عربتين ، وكانت العربة التى وضعت فيها بين أدوات مختلفة ترتج ارتجاجا فظيعا ، كأنها توشك أن تلقى بى بين حين وآخر مع بعض الحمل . وبقيت عامين حتى قربت وفاة أمى ، تسيطر على فكرة أنى قد ألقيت عن العربة فى مكان ما . ولم تلبث أمى أن ظهرت حين استقر جدى فى قبوه ، وكانت شديدة الشحوب والتحول ، تلمع عيناها الكبيرتان لمعانا غريبا . حدقت كأنها ترى أباها وأمها وترانى للمرة الأولى ، حدقت ولم تقل شيئا ؛ بينما راح زوج أمى يجوس فى الغرفة ويصفر بلطف ، ويتنحنح ويداه وراء ظهره وأصابعه تختلج . قالت لى أمى وهى تضغط أصابعها الدافئة على خدى :

ــ يا إلهى ! لقد نموت نموا مخيفا .

وكانت ترتدى بإهمال ثوبا بنيا سابغا ، وقد انتفخ بطنها كثيرا .

ومد لى زوج أمى يده قائلا :

ــ كيف أنت يا بنى ؟ كيف حالك ؟

ثم أردف وهو يتشمم الهواء :

ــ أتعلمون أن الرطوبة شديدة هنا ؟

كان الانهاك باديا عليهما ، كأنهما كانا يجريان وقتا طويلا ، وكانت ملابسهما مهملة ملوثة وكان كل ما يريدان كما قالا ، هو الرقاد والراحة . سأل جدى حين راحا يشربان بعض الشاى وقد بدا عليهما التحرج — وهو يحدق فى النوافذ التى غسلها المطر :

— وإذن فقد خسرتما كل شىء فى حريق ؟

أجاب زوج أمى جازما .

— كل شىء ؟ ولم ننج إلا لحسن حظنا .

— كذا ! . . . ليس الحريق مزحة .

وهمست أمى شيئا فى أذن جدتى وقد مالت على كتفها ، فطرفت جدتى كأن الشمس فى عينيها . وزاد الحرج وضوحا .

وبغتة قال جدى بصراحة تامة فى صوت بارد يشف عن الحقد :

— إن الشائعة التى انتهت إلى أذنى ياسيدى العزيز يوجين فاسيليف ، تقول إن لا حريق هناك وأنما فقدت كل شىء فى لعب الورق .

فكان سكون رهيب ، لا تعطيه غير أزيز السماور ، ورشاش المطر على زجاج النوافذ ، أخيرا قالت أمى متوسلة :

— ياباشا . . .

صاح جدى بصوت يصم الآذان :

— ما معنى ياباشا ! ماذا بعـــد ؟ ألم أقل لك إن امرأة فى الثلاثين ، لا يناسبها فتى فى العشرين ؟ . . . هذه أنت . . . وهذا هو ، الوغد الماكر ! السيد ! . . . ماذا ؟ ماذا يا ابنتى الصغيرة ؟

وتصايح الأربعة بأعلى أصواتهم ، وكان زوج أمى أعلاهم صياحا . فذهبت إلى المدخل وجلست على كومة من الخشب ، وقد أدهلتنى الدهشة أن أجد أمى شديدة التغير ، شديدة الاختلاف عما كانت عليه . ولم تصعقنى هذه الحقيقة حين كنت فى الغرفة معها كما صعقتنى الآن فى الغسق ، وقد اتضحت أمام بصيرتى ذكرى حالها الماضية .

وقد وجدت نفسى بعد هذا فى سورموفا — وإن نسيت ما يتصل بذلك من ظروف — فى بيت كل ما فيه جديد ، عارى الجدران ، ينبت الطحلب فى الشقوق التى بين الفروق ، وكان

فى الطحلب هوام كثيرة . كانت أمى وزوجها يسكنان فى غرفتين بهما نوافذ تطل على الشارع وكنت أقيم أنا وجدتى فى المطبخ الذى كانت فيه نافذة فى السقف . وكان على الجانب الآخر من السقف مداخن مصنع تذهب عالية فى السماء ، وتقذف دخانا كثيفا ، كانت ريح الشتاء تنشره على المدينة كلها ، وكانت الذئاب تعوى « كفووو . . . ! »

وكان الواقف على كرسى يستطيع أن يرى من خلال زجاج النافذة العلوى عبر السقف بوابة المصنع مضاءة بالمصابيح نصف مفتوحة كأنها فم أسود أدرد لشحاذ شيخ ، وكانت تدخل فيها جماعة من ناس صغار . وكانت شفتا البوابة السوداوان تنفرجان عند الظهيرة مرة أخرى ، فيتقا طرون فى الشارع مثل جدول أسود حين تلفحهم ريح جليدية شديدة وتدفعهم إلى منازلهم . كنا قليلا ما نرى السماء فوق القرية ، وكان هناك دائما فوق سقوف المنازل وفوق أكوام الجليد التى تناثر عليها النثور ، سقف آخر رمادى مسطوح ، يسحق الخيال ويعمى المرء بقذره المطبق .

وفى الأماسى كان يرجف فوق المصنع لهب أحمر غائم ، يضىء المداخن ويجعلها تبدو كأنها لا تصعــــد من الأرض إلى السماء ، بل تهوى إلى الأرض من تلك السحابة الدخنة ، وتقذف فى هبوبها اللعب وتعوى .

وكان النظر إلى هذا كله مشقة لا تطاق ، وكان اطرادة يقبض على قلبى قبض الشر .وكانت جدتى تقوم بعمل خادم عام : تطهو وتغسل الأرض وتكسر الحطب وتجلب الماء من الصباح إلى المساء ، وتأوى إلى الفراش خائرة متذمرة زافرة . وكانت أحيانا إذا أتمت الطهو ارتدت صدارها القصير المحشو ، وشمرت إزارها . وذهبت إلى المدينة .

— سأمضى وألقى نظرة على الشيخ وأرى كيف حاله .

— خذينى معك .

— إذن لمست بردا . انظر كيف يسقط الجليد .

ثم نمشى سبعة فرسات فى الشوارع أو بين الحقول المكسوة بالجليد .

وكانت أمى تجوس فى البيت صفراء حاملا ترتجف من البرد وقد تدثرت بشملة شهباء ممزقة ذات أهداب .

كرهت تلك الشملة التى تشوه ذلك الجسم الضخم المتين ،وكرهت ذوائب الأهداب وأخذت أقطعها . كرهت البيت والمصنع والقرية . وكانت أمى تسير فى حذاء اللباد البالى ، وتسعل

طول الوقت وبطنها القبيح يرتج ، ولعينيها الزرقاوين الشهباوين بريق لامع قاس ، وكانت كثيرا ما تقف مستندة إلى الجدران العارية كأنما التصقت بها . وكانت تقف أحيانا ساعة كاملة تطل من النافذة على الشارع ، الذى كان مثل فك سودت السن نصف أسنانه وعوجتها ، وتلف نصفها الثانى ، فاستبدلت ، أسنان زائفة . سألت .

— لماذا نقيم هنا ؟

أجابت :

— أخ ، أعقل لسانك . أما تقدر ؟

وكان كلامها معى نزرا ، وإذا تكلمت لم يعد ذلك أن تأمرنى بشىء :

— اذهب ! تعال ! احضر هذا !

ولم يكن يسمح لى بالخروج إلى الشارع كثيرا ، وكنت أعود كل مرة أحمل علائم تدل على أن الصبية الآخرين ضربونى ، فقد كان العراك لذتى الحبيبة بل الوحيدة ، وكنت أقبل عليه متحمسا . وكانت أمى تضربنى بسير ، ولكن العقاب لم يكن إلا ليزيد إثارتى فأعارك فى المرة التالية فى ثورة الأطفال ، وتعاقبنى أمى عقابا أسوأ . وقد استمر هذا حتى أنذرتها يوما أن تكف عنى ، وإلا عضضت يدها وهربت إلى الحقول ومت من البرد ؛ فدفعتنى عنها ذاهلة ، وأخذت تذرع الغرفة وقالت لاهثة من الإنهاك .

— لقد أصبحت مثل الوحش !

كان ذلك الأحساس الذى يسمونه الحب قد بدأ يتفتح فى قلبى الآن ، فياضا بالحياة ، مرتعشا مثل قوس الغمام . وكثر أن ينفجر تبرمى بالناس جميعا كأنه لهب دخن أزرق قاتم وحز فى قلبى إحساس قاهر بالضيق ، شعور بأنى وحيد وحدة مطلقة فى ذلك الوجود الأشمط الذى لا معنى له .

كان زوج أمى يقسو بى ، ولا يكاد يكلم أمى ، ويدور فى البيت صافرا ساعلا ، ويقف بعد الغداء أمام مرآة ينبش جاهدا أسنانه العوجة بشظية من الخشب . وكثر شجاره مع أمى يناديها غاضبا : يا امرأة (مكان يا ست) فكنت أحنق لهذه العادة حنقا لا حد له . كان إذا وقع شجار ، أحكم إغلاق باب المطبخ ، لأنه فيما يظهر لا يريد أن أسمع ما يقول ، ولكن صوته العميق الجهير كان يمكن مع ذلك أن يسمع واضحا جدا .

صاح يوما وهو يدق الأرض بقدميه :

— ألأنك كنت حمقاء حملت ، لا أستطيع أن أدعو أحدا لزيارتى يا بقرة !

اشتد عجبي وغضبي حتى لقد وثبت فى الهواء عاليا وصدمت رأسي فى السقف ، وعضت لسانى حتى دمى .

وفى أيام السبت كان العمال يقدمون بالعشرات ليروا زوج أمى ، ويبيعوا له بطاقات طعامهم التى كان ينبغى آن يذهبوا بها إلى حانوت المصنع ، فيدفعوها بدلا من النقود ، ولكن زوج أمى كان يشتريها بنصف ثمنها . كان يستقبل العمال فى المطبخ وهو جالس إلى المائدة تبدو عليه العظمة ، ويعبس ويقول وهو يتناول البطاقات :

— روبل ونصف !

— يا يوجين فاسيليف بالله ...

— روبل ونصف !

واستمرت هذه الحياة المشوشة الكئيبة حتى آن لأمى أن تلد ، فأرجعت إلى جدى . وكان يقيم إذ ذاك فى كونافين حيث استأجر غرفة ضيقة رطبة بها موقدة روسية ونافذتان تطلان على الفناء ، فى بيت من طابقين يقع فى شارع ترب يمتد إلى سور مقبرة ناپولنو . صاح مقهقها حين لقينى :

— ما هذا ؟ يقولون إن الأم خير صديق ، ولكن يبدو الآن أن الصديق ليس الأم ، وإنما هو الجد ، ذلك الشيطان العجوز . أغ . . . أنت !

وقبل أن يتاح لى النظر فى مأواى الجديد ، أتت جدتى تصحب أخى والطفل ، فقد طرد زوج أمى من المصنع لاختلاسه نقود العمال ، فبحث عن عمل آخر وسرعان ماوجده فى شباك التذاكر بالمحطة .

وبعد فترة طويلة خالية من الحوادث عدت إلى الإقامة مرة أخرى فى قبو أحد المخازن ، وما استقرت أمى حتى أرسلتنى إلى المدرسة التى حملت لها الكراهة من اللحظة الأولى .

كنت أذهب إليها لابسا حذاء أمى ، وعلى سترة مصنوعة من صدار الجدتى ، وقميص أصفر وسروال كان قصيرا فأطيل . وسرعان ما أصبح ملبسى هدفا للسخرية ، ونلت على القميص الأصفر كله « الآس الديناري » .

ولم ألبث أن صادقت الأولاد ، ولكن المعلم القسيس لم يحبانى .

كان المعلم رجلا أصلع مصفرا يعانى رعافا مستمرا ، فكان يظهر فى حجرة الدرس وقد سدّ منخريه بقطعتين من القطن ، ويجلس إلى النضدة يسألنى الأسئلة بصوت أخنّ . وبغتة يسكت

فى وسط الكلمه ويخرج القطن من منخريه ، وينظر إليه وهو يهز رأسه . كان وجه مسطحا نحاسى اللون ، فى تعبيره مرارة ، وفى تجاعيده اخضرار . ولكن أبشع ملامحه كان عينيه الملونتين بلون الرصاص تماما ، وكانتا تثبتان على وجهى تشبثا بغيضا حتى لأحس أنى يجب أن أزيلهما عن خدى بيدى .

بقيت أياما فى الصف الأول عند أول الفصل ، شديد القرب من منضدة المعلم ، وكان مكانى لا يكاد يحتمل ، كان يبدو أنه لا يرى أحدا سواى ، وكان لا يفتأ يخن :

— يا بيش . . . سكوف يجب أن ترتدى قميصا نظيفا . يا بيش . . . لا تجلب بقدميك يا بيش . . . سكوف لقد انحل رباط حذائك مرة أخرى . .

ولكنى رددت عليه وقاحته الوحشية . فأخذت يوما نصف بطيخة متجمدة ، وأخرجت لبها وربطتها بخيط على بكرة فوق الباب الخارجى . وحين انفتح الباب ، صعدت البطيخة إلى أعلى ، ولكن حين أقفله المعلم ، سقطت البطيخة على صلعته كأنها قبعة . فأرسل التلميذ المراقب معى بورقة إلى مكتب الناظر ، وكفرت بجلدى عن فرحتى .

ونثرت النشوق فى مرة أخرى على منضدته ، فاشتد عطاسه حتى اضطر إلى مغادرة الفصل وإرسال صهره مكانه . وكان هذا ضابطا جعل الفصل يغنى : « ليحفظ الله القيصر » و « أيتها الحرية ، ياحريتى » وكان يضرب أولئك الذين يشذون عن النغم بالمسطرة على رءوسهم فيكون . لها صوت مضحك أجوف ولكنها كانت تؤذى .

وكان معلم الدين القسيس الوسيم الشاب الكثيف الشعر يكرهنى لأنى لم يكن لدى كتاب مقدس ، ولأنى كنت أيضا أسخر من طريقته فى الكلام . كان أول شىء يفعله حين يدخل الفصل أن يسألنى :

— يابيشكوف ، هل أحضرت ذلك الكتاب أم لا ؟ نعم . الكتاب !

— فأجيب :

— كلا . لم أحضره . نعم

— مامعنى : نعم ؟

— كلا . .

— حسنا . تستطيع أن ترجع إلى البيت . نعم إلى البيت لأنى لاأريد أن أعلمك . نعم لاأريد أن أفعل .

لم أكن أنزعج لذلك كثيرا ، فكنت أتمشى فى شارع القرية القذر حتى ينتهى الدرس ، وأراقب الحياة الصاخبة حولى .

كان لهذا القسيس وجه جميل كوجه مسيح، وعينان ناعستان كعينى أمرأة، ويدان صغيرتان لطيفتان ككل شىء فيه. كان إذا أمسك شيئا سواء أكان كتابا أم مسطرة أم ريشة أم سواها، أمسكه بعناية كأنه شىء حى سريع العطب وكأنه يحبه ويخشى أن يتلفه بلمسه . ولم يكن على مثل هذا اللطف مع الأولاد ، ولكنهم كانوا مع ذلك يحبونه .

ولم ألبث أن أخبرت ، برغم نجاحى فى الدرس نجاحا مرضيا ـ أنى سأطرد من المدرسة لسوء سلوكى . ففهمنى ذلك لأنى كنت أرى أمامى زمنا بغيضا جدا ، فأمى تزيد ثورتها على الأيام وهى تضربنى أكثر من ذى قبل .

ولكن العون كان قريبا ، فقد زار الأسقف خريستانف [١] المدرسة زيارة مفاجئة . وكان رجلا ضئيل الجسم مثل الساحر ، وكان ـ إذا صدقتنى الذاكرة ـ أحدب .

وجلس عند المنضدة ،وقد بدا شديد الصغر فى ثيابه السوداء الضافية ، وكانت على رأسه قبعة مضحكة كأنها دلو صغير ، وخلص يديه من كميه وقال :

ـــ والآن يا أطفال لنتحدث معا . .

وسرعان ماعم الحماس من الأشواق حجرة الدرس،وشاع فيها جو من السرور غير مألوف.

ودعانى إلى المنضدة بعد كثيرين مرّوا بدورهم ، وسألنى فى وقار .

ـــ وكم سنك ؟ هـــذا كل شىء ؟ يالك من صبى طويل ! أظنك كنت تقف فى المطر كثيرا . أوقفت ؟ هه ؟

وأدنى وجهه بعينيه الحانيتين من وجهى وقد وضع على المنضدة يدا جافة ذات أظافر طويلة حادة ،وأخذ يتخلل بأصابع الأخرى لحيته الخفيفة وقال :

ـــ والآن حدثنى بأحب قصص الكتاب المقدس إليك .

---

(١) مؤلف الكتاب المشهور الذى عنوانه « ديانات العالم القديم » فى ثلاثة مجلدات ، وصاحب مقال « التناسخ عند المصريين » وعدة مقالات أخرى تعالج موضوعات عامة مثل « حول الزواج والنساء » وقد أثر فى ذلك المقال الأخير تأثيراً عميقا حين قرأته فى شبابى . وإخالنى لم أذكر عنوانه الصحيح ولكنه نشر فى بعض الصحف الدينية فى العقد الثامن .

وحين أخبرته أن لم يكن عندى كتاب مقدس ، وأنى لا احفظ تاريخ الأسفـار سوّى قلنسوته قائلا :

— ماهذا ؟ انت تعلم ضرورة حفظك له . ولكن لعلك تحفظ شيئا بالسماع ! أنت تحفظ المزامير ؟ حسنا . والأدعية ؟ اترى ! وحياة القديسين أيضا شعرا ؟ . . . أذن فأنا أظنك متقدما فى هذه الدراسة .

وفى هذه اللحظة ظهر قسيسنا محمرا مبهورا ، فباركه الأسقف ولكنه حين بدأ يتكلم عنى ، رفع الأسقف يده قائلا :

— عفوا . . . لحظة . . . قص على الآن قصة اليكسى ولى الله .

ثم قال حين سكت سكوتا تاما وقد نسيت البيت التالى :

— هذه أشعار جميلة ، هه ، ياولدى ؟ أذكر لنا الآن شيئا آخر ، شيئا عن الملك داود هيا ، إنى أصغى بانتباه شديد .

وقد رأيت أنه كان يصغى حقـا ، وأن الأشعار أعجبته ، وظل وقتا طويلا يمتحننى ثم نهض بغتة وسأل سريعاً :

— لقد حفظت المزامير ؟ من لقنك ! إيَّاها ؟ جد طيب ، اليس كذلك ؟ هه ؟ سىء ؟ لا تقل هذا ! ولكن ألست شديد الشقاوة ؟

فترددت ولكنى قلت آخر الأمر :

— بلى .

فأيد المعلم والقسيس اعترافى وهذرا بالكلام ، فأصغى إليهما وقد غضّ عينيه ثم قال متنهدا :

— أتسمع ما يقولان عنك ؟ تعال !

وسأل وهو يضع على رأسى يده التى تنبعث منها رائحة خشب السرو :

— لماذا أنت شديد الشقاوة ؟

— التعلم ممل .

— ممل ؟ ليس هذا صحيحا ياولدى . لوكنت تراه مملا لكنت طالبا بليدا ، ولكن أساتذتك يشهدون بأنك تلميذ مجد ، معناه أن هناك شيئا آخر يجعلك شقيا .

وقال وهو يكتب فى دفتر صغير تناوله من صدره :

ـــ بيشكوف ، أليكسى . السمع ! على أية حال ينبغى لك يا ولدى أن تكبح نفسك ، وتحاول ألا تكون شقيا . وسنسمح لك بقليل من الشقاوة ، ولكن الناس لا ينقصهم عناؤك . أليس كذلك يا أولاد ؟

فأجابت أصوات كثيرة فى مرح :

ـــ أجل .

ـــ ولكنى أستطيع أن أرى أنكم لستم أشقياء . هل أنا على حق !

فأجاب الأولاد كلهم ضاحكين :

ـــ كلا . إننا أشقياء أيضا . أشقياء جدا .

فانحنى الأسقف على ظهر أحد الكراس رجذبنى إليه ، وقال بطريقة مدهشة أضحكتنا جميعا حتى المعلم والقسيس :

ـــ الحقيقة يا إخوانى أنى حين كنت فى مثل سنكم كنت شقيا جدا . مارأيكم فى هذا ؟

ضحك الأولاد وبدأ هو يسألهم ويفتن فى تغليطهم ، فبدأ الواحد منهم يجيب الآخر ، وتضاعف المرح . وأخيرا وقف قائلا :

ـــ جميل أن أكون معكم ، ولكن آن لى أن أذهب .

ورسم علينا جميعا الصليب بإشارة كبيرة واحدة وهو يدفع يده ويشمر كمه ، وباركنا :

ـــ باسم الأب والابن والروح القدس أباركُكم وأبارك أعمالكم ... وداعاً .

فصاحوا جميعا :

ـــ الوداع ياسيدنا . عد إلينا بسرعه .

قال وهو يهز قلنسوته :

ـــ سأجىء مرة أخرى ، سأجىء مرة أخرى ، وآتيكم ببعض الكتب الصغيرة

ثم قال للمعلم وهو يدلف خارج الفصل :

ـــ دعهم يرجعون الآن إلى بيوتهم .

وقادنى من يدى إلى المدخل حيث قال بهدوء وهو ينحنى على :

— وإذن فستكبح نفسك ، أتفعل ؟ . . . هل اتفقنا ؟ . . . أعرف سبب شقاوتك . وداعا يا ولدى !

كنت شديد الانفعال يزخر قلبي بأحاسيس غريبة ، وحين استبقانى المعلم بعد أن صرف باقى التلاميذ ليقول لى إنى ينبغى الآن أن أكون أهدأ من الماء ، وأخشع من العشب ، أصغيت إليه فى انتباه وإقبال .

وقال القسيس بلطف وهو يرتدى سترة الفراء :

— وسيكون لك منذ اليوم أن تحضر الدروس . نعم . سيكون لك ذلك واجلس هادئا أيضا . نعم أجلس هادئا .

ولكن بينما كانت الأمور فى المدرسة تتحسن ، حدثت فى البيت حادثة كريهة ، فقد سرقت من أمى روبلا ، واقترفت ذلك الاثم دون تبصر . فذات مساء خرجت أمى وتركتنى أحرس البيت وأرعى الطفل . فبدأت حين شعرت بالملل ، أقلب صفحات كتاب من كتب زوج أمى ـ «مذكرات طبيب» لدوماس الكبير ـ فوجدت بين الصفحات ورقتين إحداهما بعشرة روبلات والأخرى بروبل . ولم أكن أستطيع أن أفهم الكتاب فطويته ، ثم لاح لى بغتة أنه لو كان معى روبل لاشتريت الكتاب المقدس وكتاب «روبنسن» أيضا . وكنت علمت من المدرسة منذ قليل بوجود هذا الكتاب ، إذ كنت أقص على الأولاد ساعة الفسحة فى أحد أيام الصقيع حكاية خرافية ، فقال أحدهم بازدراء :

— الحكايات الخرافية هذر ! أنا أحب «روبنسن» ، إنها قصة حقيقية .

ولما وجدت عدة أولاد آخرين قد قرأوا «روبنسن» وكالوا له الثناء ، ساءنى أنهم لا يعجبون بأقاصيص جدتى ، وعزمت على أن أقرأ «روبنسن» لنفسى ، حتى أستطيع أن أقول لهم إنه «هذر !» .

وفى اليوم التالى جئت من المدرسة بكتاب مقدس وبمجلدين ممزقين من أقاصيص اندرسون الخرافية وبثلاثة أرطال من الخبز الأبيض ورطل من السجق ، وكان هناك أيضا فى الحانوت الصغير المظلم بجانب جدار كنيسة فلاديمورسك نسخة من روبنسون ـ وهى كتاب نحيل صغير ذو غلاف أصفر ، وعلى صفحته الأولى صورة رجل ملتح يلبس قبعة فراء ، وعلى كتفيه جلد حيوان مفترس ، ولكن منظره لم يرقنى ، أما غلاف الأقاصيص الخرافية فكان سارا برغم تمزقه .

وفى وقت الفسحة الطويل وزعت الخبز والسجق بين الأولاد وبدأنا نقرأ تلك القصة الرائعة «البلبل» التى خلبت ألبابنا جميعا .

« الناس فى الصين كلهم صينيون حتى الامبراطور نفسه رجل صينى » - لا زلت أذكر كيف بدهتنى هذه العبارة بموسيقاها البسيطة المرحة الباسمة . وكان فى القصة أيضا أشياء كثيرة رائعة الحسن .

ولكن لم تتح لى قراءة « البلبل » فى المدرسة . ولم يفسح لى فى الوقت إذ أننى حين عدت إلى البيت سألتنى أمى بصوت غريب خفيض ، وهى واقفة أمام النار وفى يدها مقلاة كانت تقلى فيها بيضا .

— هل أخذت ذلك الروبل .

— نعم اخذته . . . من ذلك الكتاب .

فضربتنى بالمقلاة ضربا مبرحا ، وأخذت كتاب أندرسون وأخفته فى مكان ما ، فلم أستطع أن أجده ثانية ، وكان ذلك عقابا أسوأ من الضرب بكثير .

ولم اذهب إلى المدرسة عدة أيام ، ولابد أن زوج أمى قد أخبر فى أثنائها واحدا من أصدقائه بعلتى ، فقصها على أبنائه الذين نقلوها إلى المدرسة . فحين رجعت قوبلت بالصيحة الجديدة . « لص ! » .

كان الوصف موجزاً واضحا ولكنه لم يكن حقيقيا لأننى لم أحاول أن أخفى أنى أنا الذى أخذت الروبل . وقد حاولت أن أفسر هذا ، ولكنهم لم يصدقونى ، وحين عدت إلى المنزل قلت لأمى إنى لن أذهب إلى المدرسة مرة أخرى .

كانت جالسة بجوار النافذة حبلى من جديد ، مربدة الوجه ساهمته ، متعبة العينين تطعم أخى ساشا ، فـحدقت فى وفمها مفغور مثل السمكة . قالت بهدوء :

— أنت مخطىء . لا يمكن أن يكون أحد قد علم بأخذك الروبل .

— تعال بنفسك واخبرهم .

— لابد أنك هذرت بذلك ، اعترف الآن . . . انت قلت ؟ حذار ، فإنى سأبحث بنفسى عمن نشر القصة فى المدرسة .

فذكرت لها اسم التلميذ ، فتجعد وجهها تجعدا مؤلما ، وبدأت دموعها تهمى .

وذهبت إلى المطبخ ورقدت على الفراش وكان صندوقا وراء الموقدة . رقدت هناك وأصغيت إلى امى وهى تنتحب :

— يا إلهى ! يا إلهى !

وإذ لم أعد أطيق الرائحة الكريهة المنبعثة من القماش المزيت وهو يجف ، فقد نهضت وخرجت إلى الحوش ولكن أمى نادتنى :

ـــ إلى أين أنت ذاهب ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ تعالَ إلى !

ثم جلسا على الأرض ، ورقد ساشا على حجر أمى ، وأخذ يمسك أزرار ثوبها ، ويهز رأسه ويقول : « بوفوجا » وهى طريقته فى نطق « بوجوفكا » ، أى زرّ .

كنت أجلس ملاصقا لأمى ثم قالت وهى تقبلنى :

ـــ نحن فقراء ، وكل كوبك . . . وكل كوبك . . .

ولكنها لم تتم قط ما بدأت تقوله ، وهى تضمنى بذراعها الدافئة . وقالت بغتة ناطقة بكلمة كنت أسمعها من قبل تقولها .

ـــ حثالة ! حثالة !

وردد ساشا :

ـــ حالة !

كان طفلا صغيرا غريبا ، مشوه الخلقة ، ذا رأس كبير ، يجيل نظرة فى كل شىء بعينيه الزرقاوين القاتمتين الجميلتين ، ويبسم فى هدوء كأنه يتوقع أحدا . وقد بدأ الكلام مبكرا تبكيرا غير مألوف ، وكانت حياته سعادة هادئة مطردة . كان طفلا ضعيفا ، لا يكاد يستطيع الحبو ، وكان يسر دائما برؤيتى ، ويطلب إلى أن أحمله على ذراعى ، ويحب أن يسحق أذنى بأصابعه الصغيرة اللطيفة ، التى كانت ـ لأمر ما ـ تنسم دائما بالبنفسج . وقد مات بغتة دون أن يمرض البتة . كان فى الصباح جم السعادة على عادته ، فلما دقت الأجراس فى المساء للصلاة كان مسجى على المائدة . حدث هذا بعد ميلاد الطفل الثانى نيقولا بقليل . وقد برت أمى بوعدها ، وأصلحت لى الأمور بالمدرسة ، ولكنى سرعان ما لقيت صدمة أخرى .

فذات يوم بينما كنت داخلا إلى المطبخ من الحوش فى وقت شاى العصر سمعت صيحة أليمة تند عن أمى :

ـــ أرجوك يا يوجين ، أرجو . . . .

قال زوج أمى :

ـــ هـ . . . راء !

ـــ ولكنك ذاهب إليها . أعلم ذلك

ـــ حـ . . . سنا ؟

ولبثا صامتين بضع ثوان ، ثم قالت أمى وهى تسعل :

ـــ أى حثالة حقيرة أنت !

وسمعته يضربها فاقتحمت الغرفة فإذا بأمى جاثية على ركبتيها تستند بظهرها ومرفقيها إلى كرسى ، وقد برز صدرها وألقت برأسها الى الوراء ، تحشرج فى حلقها ، ولمعت عيناها لمعانا

مخيفا . أما هو فكان يرتدي خير ملابسه ، وعليه معطف جديد ، وقد أخذ يركلها فى صدرها بقدمه الطويلة . تناولت من المائدة سكينا ، سكينا ذات مقبض من العظم مموّهة بالفضة كانوا يستعملونها فى قطع الخبز ، وهى آخر ما بقى لأمى من تراث أبى — تناولتها وضربت زوج أمى فى جنبه بكل قوتى .

وكان من حسن الحظ أن بادرت أمى فى الوقت الملائم فدفعت مكسيموف بعيدا ، فطاشت السكين وأحدثت فى معطفه ثقبا واسعا . ولم تزد على خدش جلده . وأسرع زوج أمى خارج الغرفة لا هثا قابضا على جنبه ، وأمسكت بى أمى رفعتنى ثم ألقتنى على الأرض وهى تئن . وحين عاد زوج أمى من الحوش تحانى عنها .

وحين تقدم المساء وخرج زوج أمى برغم كل شيء ، أتت إلى أمى وراء الفرن ، وأخذتنى برفق فى ذراعيها ، وقبلتنى وقالت باكية :

— اغفر لى . لقد كانت غلطتى ! آه ياعزيزى ! كيف استطعت ؟ . . . وبسكين ؟ .

واذكر بوضوح تام كيف قلت لها إنى قاتلٌ زوج أمى وقاتل نفسى أيضا . وأظننى كنت أفعل ذلك ، أو أحاوله على أية حال . بل إنى لاأستطيع الآن أن أرى إتلك الساق الكريهة ، فى السروال المطرز ، مشهورة فى الهواء ، تركل صدر امرأة . وقد مات ذاك البائس مكسيموف أمام عينى فى مستشفى بعد ذلك بعدة سنوات ، وكنت إذ ذاك قد تعلقت به تعلقا غريبا ، فبكيت حين رأيت الضوء يخبو فى عينيه الجميلتين التائهتين ، ولكنى فى تلك اللحظة الأليمة نفسها لم أستطع أن أنسى أنه ركل أمى ، وإن امتلأ قلبى بأسى عظيم .

وكثيراً ما أسأل نفسى ـ وأنا أذكر هذه الفظائع الرهيبة لحياتنا الروسية الوحشية : أتستحق أن أتكلم عنها ؟ ثم أجيب نفسى مستعيدا ثقتى : إنها تستحق لأنها حقيقية واقعة خبيثة لم تزل بعد حتى فى هذه الأيام ؛ حقيقية يجب أن ترد إلى أصلها . وتقتلع بجذرها من ذاكرة الناس ونفوسهم ، ومن حياتنا الضيقة المريرة .

وهناك سبب آخر أهم يفرض على وصف هذه الفظائع . إنها وإن كانت منفرة ، وإن قهرت وسحقت إلى الموت ، كثيرا من النفوس الجميلة ، فما يزال قلب الروسى سليما شابا ، حتى يستطيع أن يسمو عليها . إن هذه الحياة الغريبة لم تقتصر على تنمية الجانب الحيوانى من طبيعتنا وتسمينه ، بل لقد شبّ إلى جانبها ، ظافرا برغمها ، نوع من الإنسانية مشرق سليم خالق يوحى إلينا بأن نتطلع إلى الزمن الذى سنعيش به جميعا فى سلام وتعاطف .

الفصل الثالث عشر

وجدت نفسى مرة أخرى فى بيت جدى ، فكانت تحيته لى هذه الكلمات :

ـــ حسنا . ماذا تريد يا لص ؟ ـ وصحبها بنقر أصابعه على المائدة ـ أنا لن أطعمك ، منذ الآن فلتطعمك جدتك .

قالت جدتى :

ـــ سأطعمه . أف يالسوء الحظ . فكر فى ذلك .

صاح جدى :

ـــ حسنا . أطعميه إذا شئت ـ ثم قال لى مفسرا بعد أن هدأ ـ إننا نعيش الآن منفردين تماما . لا صلة بيننا البتة .

كانت جدتى جالسة تحت النافذة ، تصنع الوشى بحركات سريعة ، وكان المكوك يطق فى مرح ، والحشية التى تكاثفت فيها الدبابيس النحاسية تشرق فى ضوء الشمس ، مثل قنفذ ذهبى . لم تتغير جدتى وربما ظن المرء أنها صبت فى قالب من النحاس ؛ ولكن جدى زاد ضآلة وتجعدا ، وشاب شعره الأصهب ، وأصبح شديد الصخب بعد هدوئه وكبره ، وأعتمت عيناه الخضراوان ، وغدا له تعبير مستريب وقد أخبرتنى جدتى ضاحكة بقسمة المتاع التى جرت بينها وبين جدى ، فأعطاها القدور والأوعية والآنية كلها قائلا :

ـــ هذا نصيبك الصغير ، ولا تطلبى منى شيئا سواه .

ثم أخذ ملابسها العتيقة ، وأشياءها كلها ، وفيها عباءة من فرو الثعلب ، وباعها بسبعمائة روبل ، ووضع المال بالربا عند محمده اليهودى تاجر الفاكهة . وأخيرا استولى عليه داء البخل ، فلم يعد يعرف الخجل ، وبدأ يتردد على معارفه القدامى ، وزملائه السابقين ، والتجار الأغنياء شاكيا الخراب الذى جلبه عليه أولاده ، وسائلا إياهم نقودا تعينه على فقره ، وقد أفاده احترامهم له ، فأعطوه بسخاء أوراقا نقدية بمبالغ كبيرة كان يلوح بها فى وجه جدتى مفاخرا أو معيرا لها كالطفل .

ـــ انظرى يا حمقاء . إنهم لن يعطوك منها جزءا من مائة .

وكان يضع النقود التى يحصل عليها بهذه الطريقة بالربا عند صديق جديد له : فرّاء طويل أصلع يدعى فى القرية خليست (السوط) ، وعند أخته وهى صاحبة حانوت سمينة حمراء الخدين بنية العينين ، سمراء حلوة كالشهد البكر .

وكانت مصروفات البيت تقسم بعناية : فيوما تعد جدتى الغداء مما اشترته بمالها وفى اليوم التالى يعده جدى . ولم يكن غداؤه طيبا قط مثل غدائها ، إذ كانت جدتى تشترى لحما طيبا ، أما هو فكان يشترى نوافل من كبد وأحشاء وقطع من اللحم . وكان لكل منهما خزينة من الشاى والسكر ، ولكن الشاى يغلى فى أبريق واحد ، فيقول جدى :

ـــ انتظرى ! انتظرى لحظة ! كم وضعت فيه ؟ ويقلب أوراق الشاى فى راحته ، ويفحصها بعناية قائلا : إن أوراق شايك أصغر ، فيجب أن أضع أنا شايا أقل لأن أوراقه أكبر .

وكان يحرص أن يكون شايه وشاى جدتى من قوة واحدة ، وعلى أن تملأ كوبها عدد ما يملأ كوبه . سألت جدتى قبل أن تصب الشاى كله :

ـــ وماذا عن الكوب الأخير ؟

فنظر جدى فى الأبريق وقال :

ـــ هناك كثير . . . للكوب الأخير .

بل إنه كان يشترى زيت قنديل الأيقونة منفردا ـ وهذا بعد خمسين عاما من العمل المتحد! كانت ألاعيب جدى هذه تلذنى وتنفرنى فى آن ، ولكن جدتى كانت تراها مضحكة وحسب. كانت تهدئنى قائلة :

ـــ أسكت أنت ! ماذا فى ذلك ؟ إنه رجل شيخ مشرف على الجنون . هذا كل شىء. لا بد أنه بلغ الثمانين أو نحوها . دعه يتصنع الحماقة ، هل يضر ذلك أحداً ؟ وسأقوم بشىء من العمل لى ولك . لا يهمك !

وبدأت أنا أيضاً أكسب قليلا من المال ، فكنت أحمل حقيبة فى الصباح الباكر أيام العطلات ، وأدور فى الأحواش والشوارع ، أجمع العظام والخرق والورق والمسامير فيعطينى تجار الخرق جريفين (عشرين كوبا) ثمنا للبود (أربعين رطلا) من الخرق والورق أو الحديد ، وعشرة كوبكات أو ثمانية ثمنا لبود العظام . وكنت أقوم بهذا العمل أيضاً فى أيام الأسبوع بعد المدرسة ، وفى أيام السبت كنت أبيع أدوات بثلاثين كوبكا أو بنصف روبل للأداة ، وربما بعتها بأكثر من ذلك إذا أسعدنى الحظ . وكانت جدتى تأخذ النقود منى وتسرع بوضعها فى ازارها وتثنى على مطرقة :

ـــ حسنا ! شكرا لك يا عزيزى . هذا يكفى طعامنا . . . لقد أحسنت صنعا .

وذات يوم رأيتها تمسك فى يدها خمسة كوبكات من نقودى و تنظر إليها و تبكى فى هدوء وكانت دمعة ترية معلقة على أرنبة أنفها الاسفنجى الذى يشبه حجر الخفّان .

وكانت هناك رياضة أجدى من التقاط الخرق هى سرقة الكتل والألواح من أحواش الخشب على ضفاف الأوكا أو جزيرة بيسك حيث كان الحديد يباع ويشترى أيام السوق فى سقائف بنيت على عجل . وكانت السقائف تهدّ بعد الأسواق ولكن العروق والألواح كانت تخترق فى حظائر المراكب حتى قرب حلول فيضان الربيع . كان المالك الصغير يدفع عشرة كوبكات ثمنا للوح الجيد ، وكانت سرقة اثنين فى يوم ميسورة ، ولكن نجاح العملية كان يقتضى سوء الجو إذ تدفع عاصفة الجليد أو الأمطار الثقيلة الحراس إلى الاختباء .

وقد استطعت أن أجمع بعض الشركاء الموافقين : سانكا فياخير ابن أحد الشحاذين الموردبين فى العاشرة من عمره ، وهو صبى رقيق لطيف . وكوستروم الذى لا أهل له ، وهو هزيل نحيل ذو عينين سوداوين هائلتين ، أرسل فى الثالثة عشرة إلى إصلاحية الأحداث لأنه سرق زوجا من الحمام ، والتترى الصغير خابى وهو « فتوة » ، ساذج العقل طيب القلب ، وياز الأفطس الأنف ، ابن حارس جبانة وحفار قبور ، وهو صبى فى الثامنة صموت كالسمكة يعانى الصرع ، وكان أكبرهم جميعا ابن خياطة أرملة اسمه جريشكا تشوركا ، وهو غلام عاقل صريح كان بارعا فى استعمال قبضتيه براعة مخيفة . وكنا جميعا نقطن شارعا واحداً

لم تكن السرقة تعد فى قريتنا جريمة . لقد أصبحت عادة ، وكانت فى الواقع الطريقة الوحيدة التى يحصل بها الأهالى المتضورون جوعا على القوت . ولم تكن الأسواق التى تظل شهرا ونصف شهر لتقيم أودهم عاما كاملا ، وكان كثير من السكان المحترمين « يقومون بعمل صغير على النهر » يصيدون الكتل والألواح التى حملها المد ، وينقلونها منفردة أو فى أحمال صغيرة كل مرة ، ولكن أهم صورة لهذا العمل ، كانت السرقات من الزوارق ، أو فى أثناء التجسس علوا وسفلا ، على الفولجا أو الأوكا بحثا عن شىء لم يحفظ كما ينبغى : وكان الراشدون من الناس يتباهون أيام الآحاد بنجاحهم والصغار ينصتون ويتعلمون .

وفى الربيع فى لفح القيظ قبل السوق ، حين تمتلئ شوارع المدينة بالصناع والحوذية وصنوف العمال ، كان أطفال القرية يثبتون وجودهم : وكان ينظر إلى هذا على أنه عمل مشروع ، وكانوا يقومون به تحت أبصار أوليائهم . كانوا يسرقون الأدوات من النجار

والمفاتيح من الحوذى المهمل ، والسرج من حصان العربة ، والحديد من محور العجلات ولكن عصابتنا الصغيرة لم تكن تشارك فى هذا . وذات يوم أعلن تشوركا مصمما :

ـــ أنا لن أسرق . إن أمى لا تقر ذلك .

قال خالى :

ـــ أنا خائف أيضا

وكان كوستروم يكره اللصوص الصغار كرها شديدا، وينطق كلمة : « اللصوص » بقوة خاصة ، وكان حين يرى الأطفال الغرباء ينشلون جيوب السكارى يطردهم ، وإذا قبض على واحد منهم ضربه ضربا مبرحا . كان هذا الصبى الكبير العينين اليائس الطلعة يتخيل نفسه راشدا ، وكانت له مشية خاصة ؛ كان يمشى بجنبه مثل حمال ، وكان يتكلم بصوت غليظ خشن ، كان شديد التحفظ رابط الجأش مثل رجل شيخ .

وكان فياخير يؤمن بأن السرقة حرام ، ولكن أخذ الألواح والعروق من بيسك لم يكن يعد خطيئة ، ولم يكن أحد منا يخشى ذلك ، وقد دبرنا الأمور بحيث يكون النجاح ميسورا جدا . كان فياخير وياز فى بعض الأماسى حين يبدأ الظلام فى الحلول ، أو فى النهار حين يكون الجو سيئا ، يذهبان إلى بيسك عابرين الخليج قرب الجليد المائع . وكانا يذهبان علناً كى يحولا إليهما انتباه الحراس بينما نعبر نحن الأربعة منفردين دون أن نرى . وإذ يشتبه الحراس فى ياز وفياخير فيشغلون بمراقبتهما ، نتجه نحن إلى حظيرة المراكب التى اتفقنا عليها من قبل ، ونختار شيئا نحدله ، ثم نقفل راجعين بينما يثير رفيقانا الخفيفان الحراس ، ويدفعانهم إلى المطاردة . كان لكل منا قطعة حبل فى نهايتها مسمار طويل ملتو مثل الشص . كنا نشبكه فى اللواح أو العرق فنستطيع بذلك أن نجره على الجليد والثلج . وقل أن يرانا الحراس ، فإذا رأونا لم يستطيعوا أن يلحقوا بنا .

وكنا بعد أن نبيع ما سلبنا نقسم الأرباح ستة أقسام وكان القسم يصل أحيانا إلى خمسة أو سبعة كوبكات . كانت هذه النقود تكفى لأن نعيش فى بذخ يوما ، ولكن أم فياخير كانت تضربه إذا لم يأتها بثمن كأس من البراندى أو قليل من الفودكا وكان كوستروم يدخر نقوده ويحلم بإقامة فخ لصيد الحمام . كانت أم تشوركا مريضة ، فكان يحاول أن يعمل ما استطاع وكان خالى أيضا يدخر نقوده راجيا أن يعود إلى مسقط رأسه وقد جاء منه مع عمه الذى غرق فى نجنى بعد وصوله بقليل وقد نسى خالى اسم البلدة وكان كل ما يذكره أنها تقع على

الكاما قريبا من الفولجا . وكنا لأمر ما ، نسخر دائما من بلدته ، ويغيظ ذاك التترى لأحول فنغنى :

هناك مدينة على الكاما .

ولكن أحدا لا يعرف موضعها !

لن تصل إليها أيدينا .

ولن تجد أقدامنا السبيل إليها .

وكان خابى — أول الأمر — يغضب منا ، ولكن فياخير قال له يوما بصوته الذى يشبه الهديل ويناسب اسمه :

— ماذا بك ؟ لا شك أنك غير غاضب من رفاقك .

فاستحى التترى وكان بعد ذلك يشاركنا فى الغناء عن المدينة التى تقع على الكاما .

على أننا مع ذلك كنا نفضل جمع الخرق والعظام ، على سرقة الألواح . فقد كانت للأولى لذة ممتازة فى وقت الربيع بعد أن يكون الجليد قد ذاب وغسل المطر الشوارع . وهناك حيث تقام السوق ، كنا نستطيع دائما أن نلتقط كثيرا من المسامير وقطع الحديد من مصرف الماء ، ونجد أحيانا نقودا نحاسية وفضية . كنا نتملق الحارس بأن نقدم إليه بضع كوبكات كى لا يطاردنا أو يقبض على زكائبنا ، أو كنا نظهر له الإحترام العميق . ولكن إعطاء النقود لم يكن أمرا سهلا ، ومع ذلك فقد سارت أحوالنا معا سيرا حسنا ، ولا أذكر أن قد حدث بيننا شجار عنيف ، وإن اختصمنا قليلا فيما بيننا أحيانا .

وكان فياخير رسول السلام بيننا ، وكانت تحضره دائما بعض الكلمات البسيطة التى تلائم المناسبة ، وتدهشنا وتخجلنا . وكان يلفظها بنبرة المندهش . ولم تكن نكات ياز اللاذعة تسوءه أو تغيظه . فكل شىء سىء لا ضرورة له — فى رأيه — فكان ينبذه بهدوء وثقة . كان يسأل :

— حسنا ، ما فائدة هذا ؟

ونرى بوضوح أن لا فائدة هناك . وكان يدعو أمه « المردونية » ولم نكن نضحك منه كان يقول لنا فى مرح وهو يجيل عينيه المستديرتين :

— لقد جاءت المردونية ، سكرى مرة أخرى مساء أمس . وأبقت الباب مفتوحا وجلست على العتبة تغنى مثل دجاجة .

فيسأل تشوركا الذى يحب الدقة :

— وماذا غنت ؟

فيعيد فياخير أغنية أمه وهو يضرب على ركبتيه بيديه .

« دق يا راعى على نافذتك الصغيرة .

ونحن نجرى فى الجنينة .

واصفر . أصفر ثانية يا طير الليل السريع .

المختفى عن الأنظار ، بالموسيقى العذبة .

وانشر سحرك على القرية » .

وكان يعرف كثيرا من هذه الأغانى العاطفية ، ويجيد غناءها ، ثم مضى يقول :

— نعم . وهكذا نامت على العتبة ، وبردت الغرفة حتى أرتجف من الفرع إلى القدم كدت أموت بردا ، ولكنها كانت أثقل من أن أجرها إلى الداخل ، وقد قلت لها هذا الصباح: « ماذا تريدين من هذا السكر الشديد ؟ »

قالت : « أوه . لا ضير . احتملنى قليلا فسرعان مايدركنى الموت . »

وردد تشوركا بنبرة الجد :

— سرعان ما تموت . إنها مريضة بالاستسقاء منذ الآن .

سألت :

— أيحزنك ذلك ؟

فأجاب فياخير مندهشا :

— طبعا أحزن . إنت تعلم أنها طيبة معى .

فصدقنا جميعا أن المردونية كانت طيبة ، وإن كنا نعلم أنها لا تنفك تضرب فياخير ، بل أن تشوركا كان يقترح أحيانا إذا مر بنا يوم سىء :

— لنجمع الكوبكات معا ونشتر لأم فيا خير شيئا من البراندى وإلا ضربته .

وكنت أنا وتشوركا الوحيدين فى جماعتنا اللذين يعرفان القراءة والكتابة . وكان فياخير يحسدنا كثيرا ويدمدم وهو يمسك أنفه الدقيق الذى يشبه الفأر :

— سأذهب أنا أيضا إلى المدرسة ، حين تدفن المردونية . وسأجثو أمام المعلم وأرجوه أن يأخذنى ، وحين أتم الدراسة سأذهب إلى الأسقف واشتغل بستانيا عنده ، أو لعلى أذهب إلى الأمبراطور نفسه :

وفى الربيع انسحقت المردونية هى ورجل شيخ كان يجمع التبرعات لبناء كنيسة ، زوجاجة فودكا ، تحت كومة هائلة من الخشب ، وقد أخذوا المرأة إلى المستشفى وقال تشوركا العملى لفياخير:

— تعال واسكن معى ، وستعلمك أمى القراءة والكتابة .

وبعد فترة وجيزة جدا استطاع فياخير أن يقرأ وهو رافع الرأس ، عبارة : « مخزن بدالة » ، ولكنه كان يقول : « بالاكينيا » ، فيصححه تشوركا :

— باكالينيا يا روحى .

— أعلم . ولكن الأحرف تطفر هكذا . إنها تطفر لسرورها بأنها تقرأ .

وقد أدهشنا كثيرا بحبه الأشجار والعشب وأضحكنا كثيرا . وكانت تربة القرية رملية وزرعها ضئيلا : ففى بعض الأحواش صفصافة تعسة ، أو شىء من شجيرات . . . المعوجة أو بضعة أحواض غبراء جافة من العشب تسختفى خجلة تحت سور ، ولكن إذا جلس واحد منا عليها صاح فياخير غاضبا :

— لم تجلسون على العشب ؟ لم لا تقعدون على الحصباء ؟ ذاك سواء عندكم أليس كذلك ؟

لم يكن من المعقول فى رأيه كسر الأغصان من الصفصافة ، أو قطف الأزهار ، أو قطع أفرع الصفصاف الباكى على ضفاف الأوكا . وكان يظهر دائما دهشة عظيمة حين تفعل هذا ويهز كتفيه ويمد يديه :

— لماذا بالله تريدون أن تكسروا كل شىء ؟ انظروا ما فعلتم يا شياطين !

وكنا نخجل من دهشته .

وقد دبرنا لعبة مرحة جدا لأيام السبت ، وكنا نُعِدُّ لذلك فنجمع أحذية الليف البالية التى نستطيع أن نجدها ، ونخزنها فى زوايا أمينة . كنا نقف مساء السبت حين يجىء الحمالون التتر من موانى سيبريا ، ونقذفهم بالأحذية .

كان ذلك يثيرهم أول الأمر فيجرون خلفنا ولكن اللعبة ما لبثت أن شاقتهم ، فكانوا بعد أن علموا بما ينتظرهم ، يظهرون فى الميدان مسلحين أيضا بقدر من أحذية الليف بل لانهم عرفوا أين نخفى ذخيرتنا وسرقوها. وقد شكونا هذا ، قلنا : ما هكذا يكون اللعب ! ، فقسموا الأحذية قسمين وأعطونا النصف وبدأ القتال . وكانوا عادة ينظمون أنفسهم فى رحبة وسط مفرق الطرق ، وكنا نجرى حولهم صائحين نقذف الأحذية ، وكانوا هم أيضا يصيحون ويضحكون ضحكا عاليا يصم الآذان حين يقذف الواحد منا بحذاء يصيبه تحت قدمه ، فيقع ويندس رأسه فى الرمل .

وكان هذا اللعب يستمر بنشاط وقتا طويلا ، ويظل أحيانا حتى يكاد يحل الظلام ، وكان السكان يجتمعون حولنا أو يرقبوننا من الزوايا ويزمجرون لأنهم يظنون ذلك ما يجب عمله . وكانت الأحذية تطير مثل الغربان فى الهواء الرطب ، ومن بعضنا يصاب أحيانا إصابة شديدة ، ولكن لذة اللعب كانت أكبر من الألم أو الأذى .

ولم يكن التتر أقل منا حماسة ، وكثيرا ما كنا نذهب معهم بعد انتهاء اللعب إلى أحد المطاعم فيطعموننا نوعا خاصا من المعلبات من الفاكهة ، وكنا بعد العشاء نشرب شايا ثقيلا بلون الآجر تقدم معه الحلوى . وقد أحببنا هؤلاء الناس الذين كانت قوتهم تساير ضخامتهم وكان فيهم شىء كثير من الطفولة والشفافية . وكان أبلغ ما يبدهنى منهم رقتهم، وسماحتهم الدائمة واحترامهم الرزين المؤثر لبعضهم البعض .

كانوا جميعا يضحكون من قلوبهم حتى لتسيل الدموع على أوجههم ، وكان واحد منهم من أهل كاسيموف أجدع الأنف ، يشتهر بقوته . وقد حمل يوما من مركب على مسافة من الشاطىء جرسا وزنه سبعة وعشرون بودا ، وأخذ يقهقه ضاحكا وهو يصيح : فو.فو ! .

وذات يوم أجلس فياخير على راحته وقال وهو يرفعه عاليا :

ـــ انظر أين تعيش الآن عاليا فى السماء .

وكنا حين يسود الجو نجتمع فى بيت ياز عند المقبرة حيث مسكن أبيه ، وكان هذا الأب ناتىء العظام طويل الذراعين صغير الرأس ، ينمو على وجهه شعر أغبر . وكان رأسه يبدو فوق عنقه الطويل كأنه سنبلة على ساق . وكانت له طريقة ظريفة يغمض عينيه بها نصف إغماضة ويتمتم بسرعة :

ـــ انزل علينا السكينة يارب . أوخ .

وقد اشترينا ثلاثة زوليتنيكات من الشاى وثمانى أوقيات من السكر ، وبعض الخبز ، واشترينا طبعا شيئا من الفودكا لوالد ياز الذى كان تشوركا يلقى عليه الأوامر بصرامة :

— أيها الفلاح الخاسر . أعد السماور .

وكان الفلاح يضحك ويعد سماور الساج ، وكان يلقى إلينا النصائح الطيبة ونحن نتناقش في العمل انتظارا لإعداد الشاي :

— اسمعوا ! إن حفلة تروسوف الشهرية بعد غد ، وستكون هناك وليمة . . . تلك فرصة لجمع العظام .

قال تشوركا الذي كان يعرف كل شيء :

— إن طاهي بيت تروسوف يجمع العظام كلها .

وقال فياخير حالما وهو يطل من النافذة على المقبرة :

— سنستطيع بعد قليل أن نخرج إلى الغابات .

وكان ياز يظل صامتا ، وينظر إلينا نظرات معبرة بعينيه الحزينتين . وقد أرانا لعبة في سكون وهي جنود خشبية وجدها في حفرة الكناسة ، وخيول بغير أرجل ، وقطع من النحاس وأزرار .

وأعد والده على المائدة الأكواب والأطباق المختلفة الأشكال ، وأحضر السماور . وجلس كوستروم ليصب الشاي ، وصعد هو بعد أن شرب الفودكا على الفرن وأخذ يراقبنا بعينيه النبيذيتين وهو يمد رقبته الطويلة ويتمتم :

— أوخ ! هكذا . . . تتحررون كأنكم لستم أطفالا صغارا . هه ؟ آه ! لصوص . . . يرحمنا الله .

فقال له فياخير :

— لسنا لصوصا البتة .

— حسنا لصوص صغار أذن .

وإذا أمعن أبو ياز في الأزعاج ، صاح تشوركا غاضبا : «أسكت أيها الفلاح الخاسر» ولم أكن أنا وفياخير وتشوركا نطيق أن نسمع الرجل وهو يحصى عدد المنازل التي بها مرضى ، أو يحاول أن يحزركم من القرويين سيموتون عن قريب . كان يتكلم محصيا غير مشفق وحين يرانا تنفر مما يقول يعمد إلى إغاظتنا وتعذيبنا :

— أوه . أنتم خائفون إذن ، أيها السادة الصغار . حسنا . حسنا ! سيموت بعد قليل رجل قوي . . . أخ ! ليطل تعفنه في قبره !

وكنا نحاول إسكاته ولكنه لم يكن يقلع عن الحديث .

— وأنتم تعلمون أنكم ستموتون أيضا . أنتم لا تستطيعون أن تعيشوا طويلا في هذه البركة الآسنة !

قال فياخير :

ـــ حسنا . لا بأس بهذا ، وسيجعلون منا ملائكة بعد أن نموت . قال والد ياز وهو يلقف نفسه مندهشا :

ـــ أنـ . . . تم ؟ أنـ . . . تم ؟ ملائكة ؟

وضحك من بين أسنانه ثم بدأ يغيظنا ثانية ، بأن يروى لنا قصصا بشعة عن الأموات .

ولكن هـــذا الرجل كان يتكلم أحيانا فى همس ويخفض صوته خفضا ولكن هذه الرجل غريبا :

أسمعوا يا أطفال . . . انتظروا قليلا ! لقد دفنوا أول أمس امرأة . . . وعرفت قصتها يا طفال . . . من كانت هذه المرأة فيما تظنون ؟

كان كثيرا ما يتحدث عن النساء ، وكان يفحش فى ذلك دائما ، ولكن كان فى قصصه شيء شائق شاك ، كأنه كان يدعونا إلى المشاركة فى أفكاره ، وكنا نصغى إليه بانتباه . كان يتكلم فى جهالة والتواء ، وكثيرا ما يقطع كلامه بالأسئلة ، ولكن قصصه كانت تترك فى الذاكرة شظايا ومقتطفات مقلقة .

« يسألونها : من أشعل النار فى المكان ؟ أنا أشعلتها : كيف ذلك أيتها المرأة الحمقاء وأنت لم تكونى فى البيت تلك الليلة بل كنت راقدة فى المستشفى ؟ فتقول : لقد أشعلت النار فى البيت ! هكذا كانت تتكلم . . . لماذا ؟ أوه ! يرحمنا الله » .

وكان يعرف سيرة كل امرأة من قطان المكان تقريبا ممن دفنهن فى تلك المقبرة العارية الكئيبة ، وكان يبدو كأنه يفتح أبواب المنازل التى ندخلها ، ويرى كيف يعيش سكانها وكان ذلك يشعرنا بالجد والكبر ، كان يستطيع ـ فيما يظهر ـ أن يستمر فى الكلام طوال الليل حتى الصباح ، ولكن ما كانت نافذة الكوخ تعتم ، ويطبق عليها الفسق ، حتى ينهض تشوركا عن المائدة ويقول :

ـــ أنا عائد إلى المنزل وإلا خافت أمى . من يأتى معى ؟

كنا إذ ذاك نذهب جميعا ، وكان ياز يشيعنا إلى السياج ، ويغلق الباب وراءنا ، ويقول بصوت غليظ وقد ضغط وجهه الأسمر الأعجف بين قضبان السياج : ـــ وداعا

وكنا نحن أيضا نحييه : « وداعا » ، وكان يشق علينا دائما أن نتركه فى المقبرة . قال كوستروم يوما وهو ينظر خلفه :

ـــ سنأتى يوما نسأل عنه ، فنجده ميتا .

وكثيراً ما قال تشوركا :

— إن حياة ياز أسوأ من حياة كل منا .

وكان فياخير دائما يردف ذلك بقوله :

— ليست حياتنا سيئة ـ حياة أى منا :

وحين أرجع بنظرى إلى الوراء أرى أن حياتنا لم تكن سيئة . فقد كانت تلك الحياة المستقلة المليئة بالمتناقضات تشوقنى جدا ، وكذلك كان رفاقى الذين كانوا يوحون إلى بالرغبة فى أن أرد إليهم الجميل دائما .

وأصبحت حياتى فى المدرسة شاقة من جديد ، فقد نبزنى التلاميذ بلقب : « جامع الخرق » و « الأفاق » وقد أخبروا المعلم يوما فى أثر عراك بأن لى رائحة المجرور وإنهم لا يستطيعون أن يجلسوا بجانبى . واذكر كيف حز ذلك الاتهام فى نفسى حزا عميقا ، وكيف شق على أن أذهب إلى المدرسة بعده وقد كانت الشكاية عن حقد ، فقد كنت اغتسل كل صباح اغتسالا تاما ، ولم أكن أذهب إلى المدرسة قط بالملابس التى أرتديها حين أجمع الخرق .

وعلى أية حال فقد جزت فى النهاية امتحان السنة الثالثة ، ونلت جوائز كانت نسخا مجلدة من «الرسل» و « خرافات كريلوف » وكتابا آخر كان له هذا العنوان المبهم : فاتا مارجانا وأعطونى أيضا بعض شهادات الثناء . وحين أخذت جوائزى إلى البيت سر جدى وأعلن أنه ينوى أن يأخذ منى الكتب ويغلق عليها فى صندوقه . ولكن جدتى كانت مريضة منذ أيام مفلسة ، وكان جدى لا يزال يتنهد ويصرخ :

— ستأكل منزلى ومأواى . . . أغ . . . أنت !

فأخذت الكتب إلى حانوت صغير حيث بعتها بخمسة وخمسين كوبكا ، وأعطيت النقود لجدتى أما الشهادات فقد أتلفتها بالكتابة عليها ثم أعطيتها لجدى الذى أخذها دون أن يقلبها وحفظها دون أن يلاحظ الفساد الذى أحدثته ، ولكنى دفعت ثمن هذا فيما بعد .

وحين انقضت الدراسة بدأت أعيش فى الشوارع من جديد، ووجدت ذلك خيرا من ذى قبل .

كنا فى أواسط الربيع وكان اكتساب المال سهلا ، وكانت جماعتنا كلها تذهب أيام الآحاد فى الصباح الباكر إلى الحقول أو الغابات حيث كانت الأوراق ناضرة فتية ؛ ولا نعود إلا فى وقت متأخر من المساء ، وقد استولى علينا تعب لذيذ ، وتقاربنا أكثر من ذى قبل .

ولكن صورة الحياة هذه لم تستمر طويلا ، فقد اختفى زوج أمى من جديد بعد أن فصل لتراكم الدين عليه ، وعادت أمى إلى جدى مع أخى الصغير نيقولا ، وكان على أن أعنى به لأن جدتى ذهبت لتقيم فى بيت تاجر غنى بالمدينة تعمل فى حياكة الأكفان .

كانت أمى من الضعف والهزال بحيث يشق عليها أن تمشى ، وكان لعينيها تعبير مخيف وهى تنظر حولها . وكان أخى مريضا . . . . : تغطيه . . . مؤلمة ، ضعيفا لا يقوى حتى على الصياح ولا يعدو أن يئن حين يجوع . وكان إذا أطعم نعس وهو يتنفس بصوت غريب مثل مواء القطة الصغيرة .

قال جدى وهو يراقبه بانتباه :

— ينبغى أن يتوفر له الطعام الجيد ، ولكن ليس معى ما يطعمكم جميعا . فتنهدت أمى وهى جالسة على السرير فى الركن وقالت بصوت أجش :

— إنه لا يحتاج إلى كثير .

— قليل لهذا وقليل لذاك يصبح كثيرا بعد قليل .

ولوح بيده والتفت إلى :

— يجب أن يبقى نيقولا فى الشمس ، فى الرمل .

فأخرجت زكيبة من الرمل النظيف وكومتها فى مكان تتساقط عليه الشمس ، ودفنت أخى فى الكوش إلى رقبته كما أخبرنى جدى . وقد أحب الصبى الصغير الرقود فى الرمل . كان يناغى مناغاة صلوه ، وينظر إلى بعينيه المتألقتين ، وكانتا غريبتين . لا بياض فيها بل هما انسانان تحيط بهما حلقتان لامعتان .

وسرعان ما تعلقت بأخى الصغير ، وكان يبدو لى كأنه يفهم أفكارى كلها وأنا راقد بجانبه على الرمل تحت النافذة ، حيث يأتى صوت جدى الحاد وهو يقول :

— إذا مات — ولا يشق عليه ذلك — كانت لك فرصة للحياة .

وكانت أمى تجيب بنوبة سعال طويلة .

كان الطفل الصغير يخلص يديه ، ويمدها لى وهو يهز رأسه الصغير الأبيض . وكان شعره قليلا جدا . وكان هذا القليل أشهب تقريبا ، وكان لوجهه الصغير تعبير مسن حكيم . وكان قولاى إذا اقتربت منا دجاجة أو قطة حدق فيها وقتا طويلا ثم نظر إلى وابتسم ابتسامة تكاد تكون معبرة . كانت ابتسامته تلك تقلقنى . أ كان من الممكن أنه يحس أنى أجد البقاء معه مملا ، وأنى أتوق إلى أن أجرى إلى الشارع وأتركه هناك ؟

كان الحوش صغيرا ضيقا قذرا ، وقد بنيت من عند البوابة مجموعة متوالية من الأكراخ والاقبياء فتنتهى عند الغسل . وقد صنعت السقوف كلها من أجزاء الزوارق القديمة : الكنل

والألواح وقطع الخشب المرطوبة التى التقطها السكان المجاورين حين ذاب الثلج فى الأدكا، او فى وقت الفيضان ، وكان الحوش كله حشدا قبيحا من أكوام الخشب المختلفة الأنواع ، التى تشربت الماء ونزت به فى الشمس وانبعثت منها رائحة عفن كثيفة .

وكان بجوارنا مسلخ للانواع الصغيرة من الماشية ، وكان يسمع كل صباح تقريبا خوار العجول ورغاء الغنم ، وكانت رائحة الدم تشتد أحيانا حتى بدا لى أنها كانت ترنق فى الجو منه شبكة شفافة حمراء .

وحين كانت الحيونات تخور إذ تصيبها النأس بين القرون كان قولاى يطرف ويزم شفتيه . كأنه يريد أن يقلد الصوت ولكنه لم يكن يستطيع إلا أن يتنفس :

ــ فوو ...

وكان جدى يصيح عند الظهيرة وقد اطل من النافذة :

ــ الغداء !

وقد اعتاد أن يطعم الطفل بنفسه وقد وضعه على ركبتيه وأخذ يدس البطاطس والخبز فى فم قولاى ويفتها حول شفتيه الدقيقتين وذقنه المدبب . وكان جدى بعد أن يعطى الصبى الصغير قليلا من الطعام ، يرفع قيصه ويجس بطنه المنتفخ بأصابعه ويجادل نفسه بصوت عال :

ــ أيكفى هذا ؟ أم ينبغى أن أعطيه أكثر ؟

ثم نسمع صوت أمى آتيا من ركنها المظلم :

ــ أنظر إليه ! إنه يمد يده إلى الخبز :

ــ ياللطفل الغبى ! كيف يستطيع أن يعرف قدر ما ينبغى له أن يأكل ؟

ثم أعطى قولاى من جديد شيئا يمضغه .

وكنت أحس الخجل حين أنظر إلى عمليه الإطعام هذه ، ويبدولى أن شجاً يصعد فى حلقى ويمضنى .

ويقول جدى أخيرا :

ــ هذا يكفى . خذه إلى أمه .

فآخذ قولاى وكان يعول ويمد يديه إلى المائدة ، وكانت أمى تنهض جاهرة وتتقدم للقائى

وقد مدت ذراعيها الجافتين المعروقتين البشعتين الطويلتين الناحلتين — كأنهما فرعان قطعا من شجرة عيد ميلاد .

وقد أصبحت خرساء تقريبا ، لا تكاد تنبس بكلمة بصوتها الحاد بل ترقد طوال النهار فى ركنها — تموت ببطء . كنت أحس أنها تموت . نعم ، كنت أعلم ذلك . وكان جدى يكثر من الكلام بطريقته المملة عن الموت وخاصة فى المساء ، حين يظلم الحوش ، وتزحف من النافذة رائحة العفن دافئة صوفية مثل فرو الشاء .

وكانت نافذة جدى فى الركن الأمامى تحت الأيقونة تقريبا ، وكان هو يرقد هناك ورأسه متجه إليها وإلى النافذة ، ويتمتم فى الظلام وقتا طويلا :

— حسنا ، لقد آن لنا أن نموت . كيف نستطيع المثول أمام الله ؟ ماذا نقول له . لقد كالحنا طوال حياتنا . ماذا فعلنا ؟ ولأى غاية فعلنا ذلك ؟

وكنت أنام على الأرض بين الفرن والنافذة . ولم يكن المكان فسيحا ، ولذا كان على أن أضع قدمى فى الفرن ، فكانت الصراصير تدغدغهما ، ولم تكن مسرتى الخبيثة سندا الركن ضئيلة ، إذ كان جدى لا يزال يكسر النافذة بطرف العود أو المحراك أثناء قيامه بالطهو ، وكان من المضحك جدا أن أرى — ومن الغريب جدا أن أفكر — أن أحدا فى مثل مهارة جدى لا يفكر فى قطع العود .

وذات يوم كان هناك شىء يغلى فى قدر على النار وكان جدى معجلا ، فأساء استعمال العود حتى لقد كسر إطار النافذة ، ولوحين من الزجاج ، وقلب المقلاة على الوجاق وكسرها .

ولقد استشاط الشيخ غضبا حتى لقد جلس على الأرض وصاح :

يا إلهى ! يا إلهى !

وفى ذلك اليوم حين خرج تناولت سكين خبز وقطعت العود إلى ربع طوله وثلثه ولكن حين رأى جدى ما صنعت وبخنى قائلا :

— أيها الشيطان اللعين ! كان ينبغى أن ينشر بمنشار ، وكنا نستطيع أن نصنع من طرفه نشابات ونبيعها ، يا بذرة الشيطان !

وهرول من الغرفة وهو يلوح بيديه فى وحشية وقالت أمى :

— كان ينبغى ألا تتدخل ...

ماتت أمى فى يوم أحد من أغسطس حول الظهيرة . وكان زوج أمى قد عاد لتوه من رحلاته ، ووجد عملا فى مكان ما ، وأخذت جدتى قولاى إليه فى شقة جديدة البناء قرب المحطة ، وكانت أمى ستحمل إلى هناك بعد أيام قليلة .

قالت لى أمى فى صبيحة وفاتها بصوت خفيض ولكنه أرق وأصفى من صوتها الذى سمعته فى الأيام الآخيرة :

— أذهب إلى يوجين فاسيليف وأسأله أن يأتى إلى — وأردفت وهى ترفع نفسها فى السرير بضغط يديها على الحائط — أجر ... بسرعة !

ظننتها تبتسم وكان فى عينيها ضوء جديد .

كان زوج أمى فى القداس الكبير ، وأرسلتنى جدتى أشترى لها نشوق ولكن لم يكن هناك نشوق مجهز ، فكان على أن أنتظر حتى يعده صاحب الحانوت . ثم عدت به إلى جدتى .

وحين رجعت إلى بيت جدى كانت أمى جالسة إلى المائدة مرتدية ثوبا نظيفا بلون النرجس ، وقد صفف شعرها تصفيفا جميلا ، وبدت رائعة كعهدها . سألت وأنا أحس خوفا مبهماً :

— أتشعرين بتحسن ؟

قالت وهى تحدق فى :

— تعال ! أين كنت ؟ هه ؟

وقبل أن أجد وقتا للجواب ، أمسكت شعرى بيد وأمسكت بالأخرى على سكينة طويلة مرنة مصنوعة من منشار ، ولوحت بها عدة مرات وضربتنى بصفحتها ، ثم انزلقت السكين من يديها على الأرض .

— التقطها واعطها لى . .

فالتقط السكين وقذفتها على المائدة ، ودفعتنى أمى عنها . وجلست على حافة الفرن واخذت أرقب حركاتها فزعاً .

ثم نهضت عن الكرسى ودلفت ببطء إلى ركنها ورقدت على السرير ومسحت وجهها المتصبب عرقا بمنديل ، كانت حركة يديها غير ثابتة وقد أخطأت وجهها مرتين ولمست الوسادة بدلا منه .

— أعطنى شيئا من الماء ...

فاغترفت بكوب بعض الماء من دلو، فرفعت رأسها جاهدة وشربت قليلا . ثم نحت يدى بعيدا بيدها الباردة وتنفست تنفسا عميقا . وبعد أن نظرت إلى الركن الذى فيه الأيقونة ، حولت إلى عينيها وحركت شفتيها كأنها تبتسم وأسدلت ببطء أهدابها على عينيها . كان مرفقاها يضغطان جنبيها ، وكانت يداها — اللتان تتلوى أصابعهما بضعف — يتحسسان صدرها ، وتتحركان نحو حلقها . وقد سقط على وجهها ظل وامتد على كل جزء منه ، فاصفر له الجلد ، ورق الأنف . وكان فمها مفغورا كأنها تدهش لشىء ما ، ولكن تنفسها لم يكن مسموعاً . وقفت — ولا أدرى كم وقفت — إلى جانب أمى ، والكوب فى يدى ، أرقب وجهها وهو يتجمد ويربد . وحين جاء جدى قلت له :

— ماتت أمى .

فنظر إلى الفراش . قال :

— لماذا تكذب ؟

وذهب إلى الفرن وأخرج الفطيرة فجعلت القضبان ترن رنينا يعم الآذان . نظرت إليه وأنا أعلم أن أمى قد ماتت ، وانتظر أن يجد هو ذلك .

وأتى زوج أمى يرتدى سترة بحار وقبعة بيضاء ، وتناول فى صمت كرسيا وحمله إلى فراش ، وبغتة أسقطه على الأرض فاصطدم بها ، وصاح بصوت عال كأنه طبله :

— نعم ، ماتت ! انظر !

فابتعد جدى بهدوء عن الفرن ، وقد اتسعت عيناه ، والحراك فى يده وهو يعثر كالأعمى .

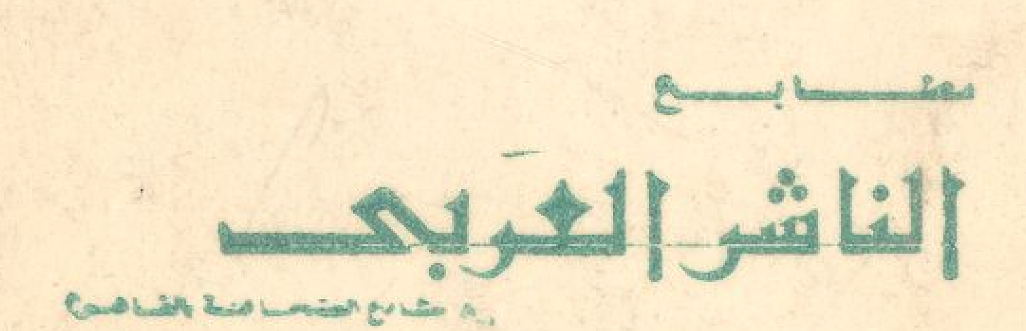
* * *

وبعد أيام قليلة من جنازة أمى قال لى جدى :

— الآن يا لكسى ، لا ينبغى أن تتعلق بعنقى . ليس لك مكان هنا . عليك أن تخرج إلى الدنيا .

وهكذا خرجت إلى الدنيا .

مطابع الناشر العربى
٨ شارع الصحافة



الثمن ٢٥ قرشا مصريا